التسامح الإسلامي مع غير المسلمين

تأليف/ أحمد على خضر

تصدير/ أ.د. على عبد العال ربيع

التسامح الإسلامي
مع غير المسلمين

أحمد على خضر

التسامح الإسلامى مع غير المسلمين

تصدير: دكتور/ على عبد العال ربيع

إن الإسلام لا يمنع أتباعه من التعايش السلمى مع مخالفيهم فى الدين والعقيدة ؛ لأنه ليس من أصول الإسلام رفض الآخر ، ومحوه من الوجود ورفض التعايش السلمى معه .


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
القاهـــــرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله رب العالمين. أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً وتوحيداً. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. بلغ رسالة ربه أحسن ما يكون البلاغ وأدى الأمانةً بنصح وإخلاصٍ ما يكون الأداء. وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها فلا يزيغ عنها إلا هالك، ومصداقية ذلك ثابتة ومحققة في قوله ﷺ **«إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه»**[الحاكم].

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد عدد من صلى عليه. وصلِّ على سيدنا محمّدٍ كما تحبّ أن يصلى عليه. وصَلّ على سيدنا محمد عدد من لم يصل عليه. وصلِّ على سيدنا محمّدٍ كما تحبَّ أن يصلى عليه. وصلّ على سيدنا محمّدٍ كما ينبغى أن يصلى عليه.

أما بعد

فالمتصفح للمصادر الإسلامية يلحظ على الفور .. أن الإسلام دين عالمي يتجه برسالته إلى البشرية كلها. تلك الرسالة التى تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم، وترسى دعائم السلام فى الأرض. وتدعو إلى التعايش الإيجابى بين البشر جميعًا فى جوٍّ من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم فالجميع ينحدرون من نفس واحدة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(سورة النساء: ١).

ولو نظرنا إلى العالم فى أيامنا هذه – فى شتى مناحى الحياة – ندرك أنه فى أشد الحاجة إلى التسامح الفعال، والتعايش الإيجابى بين الناس أكثر من أى وقت مضى نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات، والثورة التكنولوجية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة .. والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات[1].

وبناءً على ما سبق:

فالكتاب الذى قام بتأليفه الأستاذ/ أحمد على خضر وجعله تحت عنوان (التسامح الإسلامى مع غير المسلمين) كتاب جيد فى مادته العلمية والثقافية، وقد رجع فيه المؤلف إلى المصادر الأصلية والفرعية.. وعالج فيه الكثير من القضايا المهمة فى التعامل مع غير المسلمين.. وأسأل الله عز وجل أن يجعل ثواب هذا العمل فى ميزان حسناته وأن ينفع به كل من يطلب الحقيقة من مظانها إنه ولى ذلك والقادر عليه.

أ.د/ علي عبد العال ربيع
الأستاذ بقسم الأديان
كلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

---

١) راجع كتاب التسامح فى الفكر الإسلامى؛ إصدار رابطة الجامعات الإسلامية. الكتاب رقم (١٢) من سلسلة الفكر الإسلامى. إشراف أ.د/ جعفر عبد السلام: ط. عام ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص٩ بتصرف.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو القوى الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لا راد لحكمه، ولا معقب لأمره، وسع كل شىء رحمةً وعلمًا، وأسبغ على أوليائه نعمًا وفضلاً.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صفوة خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة وكشف الله به الغمة، وعبد ربه حتى لبى داعيه، وجاهد فى سبيله حتى أجاب مناديه، فتح الله به أعينًا عميا، وقلوبا غلفا، وآذانا صُمًّا. ونشر أضواء الحق والخير والإيمان، كما تنشر الشمس ضياءها فى رابعة النهار، فصلى الله عليه وسلم، وتبارك وترحّم، وشرّف وكرم، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه كلمات موجزة، عن سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين (اليهود والنصارى) وغيرهم ممن خضعوا لحكم المسلمين. لأن الإسلام دين السماحة والرأفة، دين الإخاء والرحمة، دين يدعو إلى أداء الفروض الدينية، وتبادل المودة والتعاون على البر والتقوى .

إن الإسلام هو الدين الوحيد، الذى عاش فى دياره كل أصحاب الملل - الإلهية والنحل الوثنية - مع صيانة معابدهم وأموالهم، وفتح فى دياره لهم جميع وجوه التعايش المادى والحضارى؛ بل ويفسح صدره للأقليات التى لاتدين به، ويأمر برعايتها وحمايتها.

وقد يكون من نافلة القول أن أذكر : أن موقف التشريع الإسلامى فى رعاية حقوق غير المسلمين، هو موقف أملته أصالة هذا التشريع، ونظرته المتسامحة تجاههم، ومودته بهم، وهو معاملة المخالف فى العقيدة المعاملة الإنسانية المتحضرة، من منطق أنه بشر محترم، يتمتع بحق الكرامة الإنسانية، التى قررها القرآن الكريم

فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾

(سورة الإسراء، الآية ٧٠)

فكما أن للمسلم حرمة فى ذاته وماله وعرضه، فإن لغير المسلم هذه الحرمة كذلك، ولا يجوز الاعتداء على أى منهما إلا بالحق والعدل، وفى مجال العقيدة والدين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(سورة الكافرون، الآية٤).

يقول الشيخ محمد الغزالى السقا - عليه رحمة الله -: والذى يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا فى العالم بالبقاء والتسلط، هو رجل مخطئ، بل متحامل جرىء ... !!

عندما جاء النبى ﷺ إلى المدينة وجد بها يهودًا توطنوا، ومشركين مستقرين .. فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه[1].

ويمكن القول: أنه من خلال مبادئه السمحة ﷺ نال أهل الكتاب حقوقا لم يحلموا بها، ولم يتصوروا أن هذا الدين يصل إلى هذه الدرجة من التسامح الدينى لجميع الطوائف والديانات .

وإذا كان الغرب كله قد بلغ آفاقًا رحبة، فى المدنية والحضارة وحقوق الإنسان، فلماذا يعامل المسلمون - هناك - تلك المعاملة المزرية، والتى تتناقلها وكالات الأنباء بين الحين والآخر، من حرمان الطالبات المسلمات من ارتداء الزى الإسلامى فى المدارس الفرنسية، ومن التعسف والظلم ضد الجاليات الإسلامية فى معظم البلدان الأوربية، وغيرها من الصور المأساوية، التى تعتبرها الحضارة الغربية المهينة مظاهر للأصولية الإسلامية، يجب القضاء عليها أو محاربتها .

---

(١) فقه السيرة، محمد الغزالى، ص ١٩٥، ١٩٦.

ألا يجدر بهم أن يعاملوا المسلمات - هناك - بمثل المعاملة التى تعامل بها المرأة الغربية، التى ترتدى أحدث الأزياء فى البلاد الإسلامية، وتحاط بمظاهر الرعاية والاحترام، وكذلك ما تعامل به الدول الإسلامية الإنسان الأوربى والأمريكى فى بلادها ؟ فأين هذا مما نشاهده فى بلاد الإسلام - قديمًا وحديثًا - حيث يحتضن الإسلام - دائمًا وأبدًا - بين جناحيه من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى، طوائف من غير المسلمين: يهودًا ونصارى ومجوسًا، وطوائف من المسلمين المبتدعين: شيعة وخوارج وأباضية...؟

إن التسامح تجاه غير المسلمين، لم يكن قول فقيه أو وليد صدفة .. إنما كان تشريعًا إسلاميًا، فرضته نصوص محكمة فى قوله تعالى (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)(سورة الممتحنة، الآية٨) . وقوله ﷺ «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(1). وقام على تطبيقه نظام الدولة، التى طبقت الإسلام فى صورته النموذجية، على نهج السياسة التى وضعها الرسول ﷺ ونفذها الراشدون من بعده، وأئمة المسلمين إلى يوم الدين.

هذا، وسيتبين فى هذه الدراسة سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين، وبراءته من التعصب واقتسار(2) الناس على اعتناقه.

وسنرى أنه قد كفل للناس حرية العقيدة، قبل أن تهب الثورة الفرنسية بنحو اثنى عشر قرنًا.

وسيكون حديثنا عن سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين، ممزوجا بمقارنات بين الإسلام وتعنت الديانات الأخرى، وشهادات المستشرقين - المنصفين

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث رقم ٣٠٥٢.

(٢) بمعنى: إكراه.

ـ الذين لا أرب لهم فى إشادتهم بعظمة الإسلام إلا إحقاق الحق، والتنويه بالفضل، كى يظهر بجلاء سمو هذه السماحة، وكيف أن الإسلام هو دين الرقى والرفعة؟

وكتابى هذا: «**التسامح الإسلامى مع غير المسلمين**» قد توخيت قبل الكتابة فيه، الحرص التام، والاطلاع على كثير من المؤلفات والكتب العديدة والمراجع المتنوعة، فى التاريخ الإسلامى الحافل بالأحداث العظام، والخطوب الجسام، فضلا عن كتب التفسير والحديث ثم التراجم، وعلى رأسهم جميعا كتاب الله «القرآن الكريم»، حتى يتبين الحق لمن خفى عليه.

ولعلى أكون قد وفقت إلى إرضاء المولى عز وجل، ثم إرضاء رسوله ﷺ معلم البشرية الأول.. راجيًا من الله تعالى أن يؤدبنا بأدبه، وأن يحشرنا فى زمرة أتباعه وأوليائه من المسلمين المتقين والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

المؤلف

أحمد على خضر

بين يدى الكتاب

حديث هذا الكتاب عن : **التسامح الإسلامى فى التعامل مع غير المسلمين**

لقد حفل الإسلام بالدعوة إلى التسامح، منذ بزغ فجره وسطع نوره، لأن الإسلام دين السماحة والرحمة والإخاء والإنسانية - لا دين الغلظة والقسوة - وهى إنسانية لا تراها فى أرقى الأمم المتمدنة اليوم، فالعالم بأسره لم يعرف السماحة إلا من خلال الإسلام ومبادئه السمحة، فلقد عاش الجميع - مسلمين وغير مسلمين - فى كنف الدولة الإسلامية، وفى ظلالها الوارفة فى تسامح دينى، وعدالة شاملة، وضمان لجميع الحقوق لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

لقد حث النبى ﷺ على التسامح ودعا إليه، وحبّبه إلى المسلمين بقوله وفعله؛ لأنه ﷺ كان النموذج الأمثل، والأسوة الحسنة للبشرية جمعاء، فى سماحة النفس ولين الجانب..

ولقد اتبع الخلفاء الراشدون، وأمراء المسلمين، أوامر الله ورسوله، وعملوا بوصية رسول الله الكريم، فى السماحة واللين، والرفق بالرعية والناس أجمعين؛ على نحو ما وضحناه فى هذا الكتاب، بذكر الأمثلة العديدة والشواهد الكثيرة .

لكن شرذمة من أعداء الإسلام وخصوم الدين، حاولوا النيل منه، والتهجم عليه ورموه بما ليس فيه، واتهموه - ظلمًا وزورًا - بأنه دين التعصب والجمود والتخلف والرجعية .. لكن هيهات هيهات .

ولا يزال لهذه الشرذمة أبواق، يرددون بها مفتريات من سبقهم، ويزيدون عليها أباطيل من عندهم، طابعها الكذب والافتراء والتجاهل والتضليل، وبعضها يستجلب الضحك؛ مما يحمل من جهل وسفسطة وهزيان... وشر البلية ما يضحك.

وما من شك فى أن الإسلام يفرض علينا أن نرد عنه كيد الكائدين، لا بالسباب والأباطيل كما صنعَ أعداؤه، بل بالحجة والمنطق وقوة البرهان، ليستبين الحق من الباطل، وليتجلى تساميه وتعاليه على كل ما سبقه من مذاهب وعقائد، ولتظهر لنا أسمى أنواع السماحة فى معاملة خصوم العقيدة.

وهذا الكتاب الذى بين يديك - أيها القارئ الكريم - قصرته على : **سماحة الإسلام مع غير المسلمين** فى عدة جوانب، تخيرها أعداؤه للتنقص من قدره، والتهجم عليه، وأهمها :

١- إن الإسلام لم ينتشر بحد السيف :

يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين، بأن أكثر ما تم من الفتوحات الإسلامية لم يكن بواسطة الحرب، وإنما كان بفضل التجارة والدعوة السلمية والإقناع الحكيم، والقدوة الحسنة.

وحقًا كان لابد للمسلمين من حماية جانبهم والزود عن حياضهم، من أجل ذلك قاموا بالفتوحات الإسلامية، بيد أن هذه الفتوحات كلها لم تكن للبطش والإرهاب، وإنما كانت للهداية والإيمان.

ولو كان السيف وسيلة لنشر الإسلام، لاختفى باختفاء السيف ولزال بزوال السلطان، وذلك من الأدلة القوية على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف؛ كما يتقول المتقولون.

٢- الكلام عن الفرق الإسلامية :

وأسباب نشأتها، والمبادئ التى تقوم عليها .. وهى جماعات تغايرت آراؤها فى بعض المفاهيم الدينية، وأشهرها مسألة الخلافة، كما أنه لما كثرت الفتوحات، ودخل فى الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرى، أخذت تظهر أفكار جديدة لم تكن مألوفة من قبل، وأشهر الفرق الإسلامية التى تناولها البحث : الخوارج - الشيعة - المرجئة - الجبرية - المعتزلة - أهل السنة (الأشاعرة والماتريدية).

٣- حرية المعتقد الدينى لغير المسلمين وعدم الإكراه على العقيدة:

❖ كفل الإسلام للناس جميعًا حرية العقيدة، قبل أن تهب الثورة الفرنسية بنحو اثنى عشر قرنًا.

❖ لغير المسلمين الحرية فى ممارسة طقوس وشعائر دينهم، والمحافظة على أموالهم، ولا يجبر أحد منهم على ترك دينه واعتناق الإسلام .

❖ فالحرية الدينية كفلها الإسلام لأهل الكتاب (اليهود والنصارى)؛ فهم أحرار فى عقيدتهم وعبادتهم، وإقامة شعائرهم فى كنائسهم، ولهم أن يجددوا ما تهدم منها، وأن يبنوا جديدًا، ولهم الحق فى دق نواقيسهم إيذانا بصلاتهم، ولهم إخراج صلبانهم فى يوم عيدهم.

❖ قرر الإسلام مبدأ عدم الإكراه على الدين: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (سورة البقرة، الآية٢٥٦) وأمر بالرفق واللين فى الدعوة إليه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾(سورة النحل، الآية١٢٥) وأمر بمناقشة المخالفين فى العقيدة بالحسنى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾(سورة العنكبوت، الآية٤٦).

٤ـ التعايش السلمى والحضارى مع غير المسلمين:

أباح الإسلام للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة من بيع وشراء وتجارة .. ولهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم، وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية التى أساسها المودة والتآلف مثل: كفالة الأيتام والتزاور وحسن الجوار، وتبادل الأطعمة والهدايا؛ لذلك رأينا النبى ﷺ يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم ويواسيهم فى مصابهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات المباحة.

والإسلام بمبادئه السمحة فتح فى دياره لأهل الذمة، جميع وجوه التعايش المادى والحضارى من زراعة وصناعة وتجارة .. ورافق هذا التعايش المادى بين المسلمين وغير المسلمين تعايش فكرى قويم، نقل فيه الأخيرون إلى المسلمين كنوز العلوم والفلسفة، عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود ..

٥ـ المساواة فى الحقوق والواجبات:

القاعدة الأساسية المعروفة فى الشريعة الإسلامية، فى شأن التعامل مع أهل الكتاب: لهم مالنا وعليهم ماعلينا، أى لهم ما لنا من الحقوق، وعليهم ماعلينا من الواجبات، فلم يفرق الإسلام بين المسلم والذمى فى المعاملات العامة وتولى الوظائف

الرسمية، لأن الجميع سواسية أمام القانون، لا تفضيل ولا محاباة، بل عدل ومساواة حتى وإن كان أحد الخصمين مسلمًا رفيع المكانة، والآخر يهوديًا أو نصرانيًا ..

ولم يكن اختلاف الدين حائلاً بين العلماء والمتعلمين، فإن كثيرًا من أهل الكتاب درسوا على علماء المسلمين، وطالما درس المسلمون على المسيحيين واليهود في غير تحرج ولا استعلاء، وتاريخ المسلمين حافل بتلقيهم عن مخالفيهم في الدين وانتفاعهم بتجاربهم، وعلومهم ومؤلفاتهم.

٦ ـ احترام الإسلام للديانات السماوية الأخرى:

ـ لا يصح الإسلام بغير إيمان بالأنبياء السابقين، وبما أنزل عليهم من كتب

ـ ليس في الإسلام تعصب ضد اليهودية أو المسيحية، وليس فيه اتهام لنبي ولا تهجم على رسول .

ـ حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بدعوة المسلمين إلى التسامح مع أهل الكتاب، ولم يمنع الإسلام المسلمين من البر بغير المسلمين ماداموا في سلم مع المسلمين وحسن صلة .

ـ أباح الإسلام التزوج من الكتابية (يهودية أو نصرانية).

٧ ـ مظاهر العدالة والسماحة في فرض الجزية على غير المسلمين:

ـ فرضت الجزية يسيرة قليلة، لا إرهاق فيها ولا تعنت؛ فتجب مرة واحدة في السنة على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على العمل والكسب.

ـ إن الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة، كانت تعفيهم من الخدمة العسكرية.

ـ كما أن الإسلام أعفى من الجزية عدة طوائف، هم غير قادرين على العمل: كالعجزة والصبيان والفقراء، والرهبان المنقطعين للعبادة.

ـ على أن المسلمين راعوا التيسير على الناس في تحصيل الجزية؛ فلم يشترطوا عليهم أن تكون الجزية نقدًا، بل أباحوا لهم أن يقدموا عروضًا ومتاعًا وسلعًا، حتى الإبر كانت تؤخذ منهم بدل النقود.

٨ـ الإسلام يقرر مبدأ الضمان الاجتماعى لغير المسلمين :

ـ عامل الإسلام أهل الذمة بمبدأ التضامن الاجتماعى، فلم يقصر عمر بن الخطاب ﷺ العطاء من بيت المال على المسلمين، بل فرض للعجزة والمحتاجين من أهل الذمة عطاء يكفيهم ومن يعولون.

ـ للمسلم أن يعطى صدقة الفطر والتطوع للفقير الذمى من أهل بلده.

ـ تجوز الصدقة على الذمي والحربى، ويثاب المسلم على ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(سورة الإنسان، الآية٨). والأسير حربى.

٩ـ الأحكام الخاصة بغير المسلمين :

ـ تجرى أحكام الإسلام على أهل الذمة (اليهود والنصارى)، فيكون لهم مالنا وعليهم ماعلينا، وذلك شريطة أن يلتزموا بأحكام الإسلام في الجملة وأن يؤدوا الجزية.

ـ أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره؛ فلا يقتل لهم خنزير ولا يراق لهم خمر، مادام ذلك جائزًا عندهم.

ـ في الأحوال الشخصية أبيح للذمي كل زواج يقره دينه، وإن خالف الدين الإسلامي، وأبيح له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام. وليس للإسلام أن يتعرض للذميين في شيء من هذا، إلا إذا احتكموا إليه.

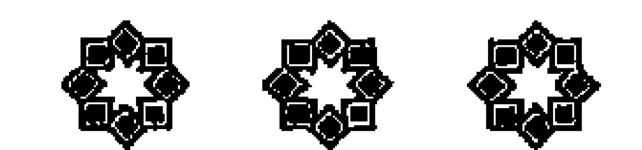
ـ شرع الإسلام عدة عقود تنظم دائرة التعاون بين المسلمين وغيرهم، وهذه العقود هى: المعاهدات وعقد الذمة وعقد الأمان.

١٠ـ نماذج من شهادات غير المسلمين على سماحة الإسلام مع غير أهله :

إن شهادات غير المسلمين حول سماحة هذا الدين الحنيف مع غير أهله، هى بلا شك أدلة دامغة واضحة، لا تحتمل التأويل أو التشكيك؛ لأنها ما نبعت من لدن المسلمين أنفسهم، ولكن قالها غيرهم ممن أعجبوا بهذا الدين وعظمته وسماحته على مر العصور والقرون. والفضل ما شهدت به الأعداء .

والشهادات حول هذا الموضوع وافرة كثيرة؛ بحيث يضيق المقام عن ذكرها لذا اكتفينا بذكر نزر يسير منها فى هذا الكتاب، وهذه الشهادات جاءت من الغرب وإليه ترجع، فتلك بضاعتهم ردت إليهم .

تلك عشرة كاملة، وأسس سمحة عادلة؛ تكفل للذميين أن يعيشوا أحرار العقيدة والنفس فى بلاد المسلمين، وأن يطمئنوا على أرواحهم وأموالهم، بل إنها تكفل للذميين والمسلمين أن يعيشوا فى الوطن الواحد إخوة متعاونين متحدين.



الفصل الأول
فى
التعريف بالديانات الإلهية

إن الدين أمر فطرى فطر الله الناس عليه، وهو ضرورة مهمة في حياة الناس كضرورة الضوء للعينين، والهواء للرئتين، والروح للجسد.

والدين يمثل أكرم صلة بين الخالق والمخلوق، وينظم أوثق علاقة بين السماء والأرض؛ لهذا لم يكن للناس بدٌّ من تشريع إلهي، يربى فيهم قوة العقيدة التى تهيمن على المرء فى قوله وعمله، ويُحيط بكل ما يتعلق بحياتهم فى دنياهم وأخراهم، ويحدد لهم علاقتهم بخالقهم، وفيما بينهم وبين بعضهم الآخر؛ ولهذا جرت سنة الله فى خلقه أن يضع لهم الشرائع، ويبعث فيهم رسلا من أنفسهم لهدايتهم وإرشادهم: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ .. ﴾.

(سورة النساء، الآية١٦٥)

والمتصفح لدعوات الأنبياء والمرسلين يلحظ أن كل رسول كان يعلِّم قومه من الدين ما يلائم أحوالهم وعقولهم، ومضت على ذلك أزمنة أرسل الله فيها كثيرًا من الرسل؛ لجماعة معينة بشريعة محددة حتى تهيأ الناس لشريعة عامة تناسبهم جميعا فى العقيدة، والأخلاق، والمعاملات. وتصلح لهم فى كل زمان ومكان، فبعث الله محمدًا ﷺ بشريعة شاملة عامة للناس جميعًا:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..﴾

(سورة الأعراف، الآية١٥٨)



الفصل الأول
فى التعريف بالديانات الإلهية

تمهيد فى الحاجة إلى الدين :

الإنسان - دائمًا وأبدًا - فى حاجة إلى هداية الله - سبحانه وتعالى ؛ لأنه دائمًا ينسى وينساق إلى المظاهر التى تستولى على لبه وفؤاده وتثير دهشته وإعجابه ؛ فيؤدى به ذلك إلى الانحراف عن فطرته التى فطر الله الناس عليها .

ومن هنا عرف تاريخ البشرية الكثير من ألوان الانحراف، وقدس الإنسان الشمس والقمر والكواكب، بل والحيوانات والأشجار ... التى هى آية من آيات الله، غير أن الإنسان ظن - خطأ - أن لها تأثيرًا فى جلب النّفع ودفع الضر، مع أن النافع الضار هو الله وحده لا شىء سواه؛ وحاجة الناس إلى الاعتقاد (التدين)، كحاجته إلى الطعام والشراب سواء بسواء، وهذا حق؛ لأن العقيدة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان، والإنسان لا يستقر - فى وسط العوالم المختلفة - بغير إيمان، بل إن ضعف الإيمان يدل على خلل فى الكيان الإنسانى، فلم يعش الإنسان قط بغير قانون ولا قيم أخلاقية، وإلا كانت حياة الناس فوضى بغير نظام .

والله - سبحانه وتعالى - لم يترك الخلق، بغير هداة يهدونهم ويقودونهم إليه، ويبصرونهم بطريق الرشاد والفلاح ؛ فأرسل إليهم الرسل والأنبياء ؛ ليحولوا بينهم وبين الغواية والضلال .قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾(سورة النساء، الآية١٦٥)(١).

والدين اسم لجميع ما يعبد به الله، والدين الملة والإسلام، والاعتقاد بالجنان، والإقرار باللسان، وعمل الجوارح بالأركان، من الطاعة والعبادة، والمذهب

(١) انظر: أضواء على مقارنة الأديان، د. محمد طلعت أبو صير، دار الطباعة المحمدية، بالأزهر، القاهرة ١٤٠٨هـ.

والشريعة. و(الديان) اسم من أسماء الله عز وجل وفى الحديث: «الْبِرّ لَا يَبْلَى وَالْإِثْم لَا يُنْسَى وَالدَّيَّان لَا يَمُوت فَكُنْ كَمَا شِئْت كَمَا تَدِين تُدَان»[1].

والمقصود بالديانات الإلهية: الإسلام ـ اليهودية ـ المسيحية

هذا، وسنلقى الضوء على هذه الأديان الإلهية الثلاثة على سبيل التعريف بها، مع الإيجاز الشديد، فنقول وبالله التوفيق:

١ ـ اليهودية

كلمة اليهودية مأخوذة من الهود بمعنى التوبة، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ (سورة الأعراف، الآية١٥٦) أى تبنا إليك.

ويمكن أن يكون لفظ اليهودية منسوبًا إلى (يهوذا) أكبر أولادْ يعقوب عليه السلام[2] ومع أن التوراة كتاب إلهي، أنزله الله على رسوله موسى عليه السلام، إلا أنه قد وقع فيه تحريف وتغيير وتبديل، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية٧٩).

والأمة اليهودية كأى أمة من الأمم الإنسانية، التى ظهرت وانتشرت فى ربوع المعمورة أُمة لها عقيدتها، وشريعتها، ومبادئ أخلاقها. وهذه العقيدة والشريعة ـ أعنى اليهودية ـ جاءت من السماء صافية لا يعكرها ولا ينقصها شيء، ولكن بنى إسرائيل لم يرضوا لها ذلك فقاموا بطمس معالمها، وتحريف أصولها، وزلزلوا أركانها.

(١) فتح البارى ج٨ ص٦، دار الريان للتراث.

(٢) ورد في العهد القديم أنه الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وهو الذى حال دون قتل أخيه يوسف، واقترح بدل ذلك بيعه عبدًا للإسماعيليين. الموسوعة العربية العالمية (٢٧/٣٤٠).

ملامح الشخصية اليهودية :

نشير هنا إلى بعض النماذج من سماتهم السيئة، التي توضح ملامح الشخصية اليهودية، والتي أشار إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع :

١ - ادعاؤهم بأنهم شعب الله المختار، وأن من يعاديهم فهو يعادي السامية، وأن غيرهم من البشر خلقوا من طينة أخرى أدنى من طينتهم، وأن الله أوجد الشعوب غير اليهودية؛ ليكونوا عبيدًا وخدمًا لهم، يستبيحون أموالهم، ويستحلون سفك دمائهم، والاعتداء على أعراضهم.

٢- قولهم لنبيهم موسى عليه السلام (أرنا الله جهرة) وكانت نتيجة هذا الطلب القبيح إنزال صاعقة عليهم أهلكتهم، قال تعالى (وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)(سورة البقرة، الآية٥٥).

٣ - عبادتهم للعجل بعدما تركهم موسى عليه السلام لذهابه إلى مناجاة ربه قال تعالى : ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾(سورة البقرة، الآية٥١).

٤ - طلبهم من نبيهم موسى أن يتخذ لهم إلها بعد نجاتهم من الغرق، ومن ظلم فرعون وتعذيبه لهم، قال تعالى : (وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ..)

(سورة الأعراف، الآية١٣٨)

٥ - ادعاؤهم بأن عزيرا ابن الله، وهو - سبحانه - منزه عن الصاحبة والولد

٦ - قولهم : إن الله فقير ونحن أغنياء، وأن يد الله مغلولة، روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً..﴾ (سورة البقرة، الآية٢٤٥) قالوا من احتاج إلى القرض فهو فقير، فرد الله عليهم هذه الجرأة بالطرد من رحمته، وأنه سبحانه صاحب الجود والعطاء الشامل،

قـال تعالـى : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ .. ﴾(سورة المائدة، الآية٦٤).

٧ ـ تكذيبهم وقتلهم لرسلهم، إذا ما أتوهم بما يخالف أهواءهم، فقتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ولم يسلم من كيدهم نبيهم موسى عليه السلام قال تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾(سورة البقرة، الآية٨٧).

٨ ـ التعامل بالربا : قال تعالى : ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ .. ﴾(سورة النساء، الآية١٦١).

إن هناك بنوكًا ربوية خاصة باليهود منتشرة فى أنحاء أوربا وغيرها، يقومون على إدارتها، والتحكم فى أعمالها، عن طريق رفع الفائدة أو خفضها، حسب متطلبات السوق العالمية والعرض والطلب .. وذلك بسبب سيطرتهم على المصارف والبورصات الاقتصادية العالمية .

٩ ـ التعنت فى الأسئلة والجدل العقيم: وقد اكتسبوا هذه الصفة من بعضهم البعض جيلا بعد جيل، ومما يدل على تعنت اليهود مع الرسول الخاتم محمد ﷺ ما أخرجه البخارى فى صحيحه قال: جاء أناس من اليهود إلى محمد ﷺ فقالوا: يا محمد إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ..﴾(سورة النساء، الآية١٥٢)[1].

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب ويسألونك عن الروح.

كذلك لا ننسى موقفهم العقيم، بشأن البقرة التى أمرهم الله عز وجل أن يذبحوها؛ لكى يعرفوا القاتل الحقيقى للرجل اليهودى، الذى قتله ابن أخيه استعجالاً لميراثه، وقام بوضعه فى مكان بعيد؛ حتى ينفى التهمة عن نفسه، ولكنه لم ينجح فى ذلك، وكاد بنو إسرائيل أن يقتتلوا بشأن هذا الأمر الخطير، وأخيرًا قرر بعض حكمائهم الذهاب إلى موسى عليه السلام لكى يحل لهم هذه المشكلة، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فقابلوا كلامه بسخرية واستهزاء، وصاروا يجادلونه فى ماهية البقرة المطلوب ذبحها هل هى صغيرة أم كبيرة، وما لونها؟ وهل هى تسقى الحرث أم لا؟ إلى غير ذلك من أسئلة عقيمة، واستفهامات لا تقدم شيئًا ولا تؤخره.

١٠ ـ الغدر ونقض العهد: صفة أساسية من صفات اليهود القدامى والمحدثين، وأنه يجرى منهم مجرى الدم فى العروق، أو الروح فى الجسد، بحيث لا يمكن أن يستغنوا عنه ولا يستغنى عنهم، فهما قرينان ومتلازمان؛ لأنهم جبلوا على الخيانة والغدر ونقض العهود، وقد نقضوا مواثيقهم مع الله رب العالمين، ومع نبيه محمد ﷺ، وقد أشار الكتاب المبين إلى هذه الخصلة الذميمة لدى اليهود فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنفال، الآية٥٦)[1].

أهم الفرق والمذاهب اليهودية

ينقسم اليهود إلى فرق دينية كثيرة، تدعى كل واحدة منها أنها أمثل طريقة، وأكثر تمسكا بأصول الدين اليهودى من غيرها، وأهم هذه الفرق :

١ ــ السامريون:

وسموا بذلك لأن نحلتهم ظهرت فى إقليم السامرة، أحد أقاليم فلسطين، أو هى نسبة إلى (السامرى)، ذلك الرجل الذى صنع عجلاً ذهبيًا لبنى إسرائيل، بعد ما ذهب كليم الله موسى عليه السلام لمناجاة ربه فى أمر يخص بنى إسرائيل أو هم غير بنى إسرائيل،

(١) انظر: محاسن الأقوال فى مكارم الأخلاق للمؤلف، ص٤٥، ٤٦.

اعتنقوا اليهودية وامتــزجوا باليهود، وإن كان اليهود ينظــرون إليهم على أنهم أحط قدرًا ومنزلة من بنى إسرائيل، أما عن عقائدهم ومذاهبهم التى يتمذهبون بها فهى كثيرة من بينها:

١ـ لا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه .

٢ـ للسامرية توراة غير التوارة التى بأيدى سائر اليهود .

٣ـ يبطلون كل نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

٤ـ لا يقرون بالبعث الأخروى البتة، ولا بيوم القيامة .

٢ ـ الصدوقية أو الصديقيون:

وهى من الفرق اليهودية التى بادت وانقرضت، وظهرت هذه الفرقة فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد، وأخذت مكانتها الدينية فى القرن الأول الميلادى، وهذه الفرقة كانت تعيش بجهة اليمن، وهى لا تعترف إلا بالعهد القديم، وترفض الأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى، وكذلك التلمود، أما عقائد الصدوقية فهى كثيرةٌ كثرةِ زعمائها، ومن بينها:

١ـ ينكرون البعث والحساب والنشور والثواب والعقاب وقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(سورة الصافات، الآيتين٥٨، ٥٩)

٢ـ يقولون ـ من بين سائر اليهود ـ إن عزيرًا ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

٣ـ ينكرون وجود الملائكة والشياطين.

٤ـ ينكرون القضاء والقدر.

٥ـ يقولون إن الإنسان خالق أفعال نفسه، حر التصرف، وبذلك فهو مسئول.

٣ ـ القراءون:

وكلمة القرائين تدل على الكتاب أو المكتوب، فهم المتمسكون بأسفار العهد القديم وحده، ولا يزال لها فى الوقت الحاضر أتباع كثيرون بالعراق ومصر والشام والأندلس.

ومما ذهبت إليه: التسوية بين الابن والبنت فى الميراث، وحرمان الزوج من تركة زوجته، وفتحوا باب الاجتهاد فى فهم النصوص، دون الوقوف عند ماذهب إليه الأحبار والربانيون، والخلاف شديد بين القرائين والربانيين وهما أهم فرق اليهود فى العصر الحديث، وكل واحدة منهما تكفر الأخرى.

٤ ـ الربانيون:

هم جمهور اليهود المعروفون أكثر من غيرهم، وربانيون جمع ربان بمعنى الحبر الفقيه، وكان الربان الحبر يرأس قومه ويشرف عليهم، ولا يلبس غير الأبيض من الثياب، ولم تكن له إتارة على منصبه فيرتزق بالتجارة أو الفلاحة، فإذا لم يكن له مرتزق جعلوا له رزقًا، ولو على غير مراده.

وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم الأخرى، فينظرون إلى الناس بعين النقص والازدراء إلى أبعد غاية، بل إن الحبر من هذه الطائفة، ينظر إلى من ليس على ملته كما ينظر إلى بعض الحيوانات العجماوات. هذا، والمحققون من علماء الأديان: على أن هذه الطائفة من أخطر الطوائف اليهودية؛ نظرًا لما تمثله من ثقل دينى وعددى، وقدرة فائقة على تطويع النصوص التوراتية، وتفسيرها حسب الأهداف التى تريد أن تصبو إليها، واللافت للأنظار أن القرآن العظيم قد أولى هذه الطائفة جزءًا من اهتماماته، محذرًا من خطورتها على الإنسانية بوجه عام، وعلى الشعب اليهودى بوجه خاص؛ لأنها تدعى العلم والدين معًا، وهى ليست كذلك، وإنما حقيقة أمرها أنها تجردت من كل دين صحيح، ومن كل خلق قويم، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (سورة المائدة، الآية٦٢).

٥ ـ العيسوية:

هم أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، رجل من اليهود كان بأصبهان. ابتدأ دعوته فى زمن آخر ملوك بنى أمية، فاتبعه بشر كثير من اليهود، وادعوا له آيات

ومعجزات تشبه الخرافات وعلى هذا فسيرة زعيم العيسوية الذاتية، تنبئ عن حقده وعداوته للإسلام وأهله، وتنبئ عن الأوهام والأباطيل التى كان يعيشها، ويريد لغيره أن يعيش معه فيها، أو هكذا أراد له أصحابه الذين التفوا حوله حينا من الدهر، زاعمين أنه أيِّد بمعجزات وآيات من قبل الله العلى القدير، وهو ليس كذلك .

من عقائد العيسوية:

١ ـ يقولون بنبوة عيسى ابن مريم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ .

٢ ـ زعم عيسى ـ زعيم العيسوية ـ أنه نبى، وأنه رسول المسيح المنتظر .

٣ ـ زعم أن للمسيح عليه السلام خمسة من الرسل، يأتون قبله واحدًا بعد واحد .

٤ ـ زعم أن المسيح أفضل ولد آدم، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضين، وإذا كان ـ عيسى زعيم العيسوية ـ رسوله فهو أفضل الكل أيضًا .

٥ ـ حرّم فى كتابه الذبائح كلها، ونهى عن أكل كل ذى روح طيرًا كان أوبهيمة.

٦ ـ أوجب عشر صلوات، وأمر أصحابه بإقامتها، وذكر أوقاتها[1]

٢ ـ النصرانية

النصارى جمع واحده نصرانى، يقال: رجل نصرانى وامرأة نصرانية، سموا بذلك نسبة لقرية تسمى (ناصرة)، كان ينزلها عيسى عليه السلام وقيل: سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا، كما يحكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ... ﴾

(سورة الصف، الآية١٤)

وقد يطلق عليهم لفظ المسيحيين نسبة إلى المسيح عليه السلام، وقد سماهم القرآن أهل الإنجيل، كما سماهم أهل الكتاب بالاشتراك مع اليهود، ورسول المسيحية هو عيسى ابن مريم، وقد ولد عليه السلام من غير أب، وأنزل الله عليه كتابًا هو الإنجيل.

(١) للاستزادة انظر: مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، ج٢، العدد الثامن، ١٤٢٣هـ، صـ ١١٤٧ـ١١٧١، وكتاب أضواء على مقارنة الأديان، مرجع سابق، صـ ٥٩ـ٦٢.

طبيعة الدعوة المسيحية:

كانت دعوة عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل مبنية على الحب والتسامح والعفو والصفح - طبقًا لما فى أناجيلهم التى بين أيديهم - فإن الشريعة المسيحية لا شأن لها باكتشاف القواعد الأخلاقية، أو الأحكام التشريعية، وعلى الإنسان أن يتجه نحو النصوص المقدسة، يقرأها ويتدبرها ليقف على مواطن النصح فيها، فقد ورد فى إنجيل متى فى الإصحاح الخامس ما نصه: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك، ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا ومن الأمور التى تدعو إليها المسيحية الرهبنة، ومن أسس الرهبنة عدم الزواج، والتقشف والفقر وتعذيب الأبدان بالجوع والعطش ولباس الخشن من الثياب، والأصل فى المسيحية أن يترهب الناس رجالاً ونساءً، لكن لما كان ذلك غير ممكن أجيز الزواج من واحدة فقط - خوفا من الزنا - فالزواج فى المسيحية مجرد ضرورة لصيانة المرء من الفاحشة، بل لقد غالت بعض الفرق فحرمت الزواج تحريما باتًا على جميع الأفراد[1].

وجاء فى العهد الجديد أن جماعة من فقراء اليهود، جاءوا بامرأة قد قبض عليها متلبسة بجريمة الزنا، وطلبوا من المسيح أن يرجمها، لأن شريعة موسى تقرر حد الرجم على الزانية، فأطرق المسيح برأسه قليلاً وقال لهم: من لم يرتكب منكم خطيئة فليرمها بحجر، ثم نظر فلم يجد أحدًا، فقال للمرأة اذهبى لسبيلك، ولا تعودى لما اقترفت، وبذلك ألغى المسيح حد الزنا، اكتفاء بأخذ العهد على المرأة بألا تعود إليه مرة أخرى.

ومن المسلّم به أن مدة قيَام عيسى عليه السلام بالدعوة كانت محدودة، ذلك أنه واجه معارضة شديدة من اليهود وأباطرة الدولة الرومانية، فقد حاربوا المسيح جميعًا على حد سواء، وحاولوا قتله بواسطة أحد الحواريين، (يهوذا الأسخريوطى)، الذى خان المسيح وأرشد أعداءه إلى مقره، وسهل لهم أمر صلبه، فى مقابل أجر تقاضاه على ذلك، ولكن الله تعالى نجاه من كيدهم ومكرهم فألقى

---

(١) انظر: محاسن الأقوال فى مكارم لأخلاق للمؤلف، ص٤٨.

شبهه على (يهوذا الأسخريوطى) الذى قام بالفتة عليه فأخذه الجند وصلبوه، ومات شر ميتة[1].

العقيدة الدينية للمسيحية:

تقوم العقيدة المسيحية على القول بألوهية المسيح، وبنوته للأب فالإله - عند النصارى - عبارة عن ثلاثة أقانيم - أى ثلاثة أصول - الأب والابن والروح القدس. وعندهم أن المسيح قد صلب، ليكفر بصلبه الخطيئة الأزلية التى ارتكبها أبو البشر، - آدم عليه السلام - حين عصى ربه، وأكل من الشجرة، وانتقلت هذه الخطيئة بالوراثة، إلى جميع نسله، ولولا صلب المسيح لظلت عالقة بهم إلى يوم الدين.

وقد قام المسيح بعد صلبه من قبره بثلاثة أيام، وظل مع حوارييه وأنصاره أربعين يومًا، ثم رفع إلى السماء، حيث جلس هناك على يمين أبيه، يصرف معه شئون العالم، وسيتولى يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه فى الحياة الدنيا، وسيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ... إلخ هذه الخرافات تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[2].

تحريف الإنجيل:

الإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام، هو مثل التوراة التى نزلت على موسى، كلاهما كلام الله، وفيهما هدى ونور، إلا أن الإنجيل لحقه ما لحق التوراة من التحريف والتبديل، والتغيير، والزيادة والنقصان .. فهذه الأناجيل - التى بأيدى النصارى - كتبها أناس من البشر، ونسبوها إلى أنفسهم لا إلى عيسى عليه السلام، وأسماؤهم مكتوبة عليها، وقد فعلوا ذلك بعد رفع المسيح بمدة طويلة من الزمن .

وقد أجمع مؤرخو النصرانية، على أنه كانت فى العصور الغابرة أناجيل شتى قد أخذت بها فرق نصرانية قديمة، وكان لكل فرقة من هذه الفرق إنجيلها الخاص بها، الذى تتمسك به دون غيره .

---

(١) هو حوارى خان عيسى المسيح ــ حسب اعتقاد النصارى ــ وقد أورد إنجيل متى أنه تلقى ٣٠ قطعة من الفضة، مقابل خيانته لعيسى عليه السلام ، فقام بتقبيل عيسى ليعرفه الأعداء، الموسوعة العربية العالمية (٢٧/٣٤٠).

(٢) أضواء على مقارنة الأديان، د . محمد طلعت أبو صير، مرجع سابق.

وقد قامت الكنيسة بالإبقاء على أربعة أناجيل (متى، لوقا، يوحنا، مرقص)[1] وحرمت ما عداها من الأناجيل، ومن العلوم أن هذه الأناجيل تقوم على الشرك، وتعتقد بالتثليث.

هذا، وقد وجد فى مكتبة أمير من الأمراء فى باريس، نسخة من إنجيل (برنابا) وقد طبعته مطبعة المنار بعد ترجمته إلى العربية، وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة[2].

العهد القديم والجديد:

ويطلق على التوراة العهد القديم، وعلى الإنجيل العهد الجديد، وذلك باعتبار الميثاق الذى أكده الله على عباده؛ ليلتزموا بما عاهدهم عليه، ووصفه بالقديم أو الجديد باعتبار بعثة عيسى عليه السلام فما كان قبله يعرف بالقديم، وما جاء بعده يعرف بالجديد.

---

(١) متى: هو صاحب إنجيل متى، أول الأناجيل الأربعة، الذى تحدث فيه عن حياة المسيح عليه السلام ووفاته، قال متى: إنه أحد رسل المسيح الإثنى عشر، كان متى جابيًا للضرائب، وقد قام ــ طبقاً لما هو معروف ــ بالتنصير في أفريقيا وبلاد فارس حيث مات، وتحتفل كنيسة الروم الكاثوليك بعيد القديس متى في ٢١ سبتمبر (الموسوعة العربية العالمية ٢٢/١٧٩).
لوقا: من النصارى الأوائل، وصديق للقديس بولس، وهو صاحب الإنجيل الثالث والمجلد التابع له (من أعمال الرسل)، تلقى تعليمه في الإسكندرية وروما ومات في آسيا الصغرى، عيده يوم ١٨ أكتوبر (الموسوعة العربية العالمية ٢١/٢٠٣).
يوحنا: أحد الحواريين الإثنى عشر، يعد يوحنا مؤلف الإنجيل الرابع من العهد الجديد. ومؤلف رسائل يوحنا الإنجيلية الثلاث، مات في روما حيث وضع في زيت يغلى، ويحتفل في الكنيسة الكاثوليكية بذكراه يوم ٢٧ ديسمبر (الموسوعة العربية العالمية ٢٧/٣٤٦).
مرقص: من النصارى الأوائل الذين رافقوا القديس بولس في رحلته التنصيرية الأولى، كان مرقص مؤلف الإنجيل الثاني، ويقال أيضًا إن مرقص كان مترجمًا للقديس بطرس في روما، وقد أنشأ كنيسة في الإسكندرية بمصر (الموسوعة العربية العالمية ٢٣/١٢٢).

(٢) العقائد الإسلامية، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٤١٢هـ ص١٤٦، ١٤٧.

أهم الفرق المسيحية

توجد فى النصارى ـ فى العصر الحاضر ـ ثلاث طوائف كبيرة هى :

«الكاثوليك ـ الأرثوذكس ـ البروتستانت» وهى متفقة على القول «بألوهية المسيح» ، وعلى القول «بالتثليث» ، وعلى القول «بالصلب» إلا أن هناك مجالات فرعية اختلفوا فيها ، وإليك كلمة موجزة حول هذه الفرق الثلاث :

١ـ الكاثوليك:

وهم فرقة من فرق المسيحية تؤمن بأن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد : إحداهما لاهوتية، والأخرى ناسوتية، كما تؤمن الكنيسة الكاثوليكية بإله واحد مثلث الأقانيم : الأب، الابن، الروح القدس.

والكنيسة الرومانية الكاثوليكية تمثل أكبر تجمع نصرانى فى العالم، ويقدر أتباعها بنحو بليون يمثلون خمس سكان العالم، وهى تدعى أنها أم الكنائس ومعلمتها ، وأنها هى التى تنشر المسيحية فى العالم وتسمى الكنيسة الغربية واللاتينية، ولها السيطرة فى إيطاليا وبلجيكا وأسبانيا وفرنسا والبرتغال وغيرها[١].

والمذهب الكاثوليكي يحرّم الطلاق تحريمًا باتًا ، ولا يبيح فصل الزواج لأى سبب، وحتى الخيانة الزوجية لا تعد مبررًا للطلاق عنده ـ ولكن يفترقان فقط ـ ولا يجوز لواحد منهما فى أثناء هذه الفرقة أن يعقد زواجا على شخص آخر، معتمدا هذا المذهب على ما جاء فى إنجيل متى إذ يقول المسيح : (لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله).

٢ ـ الأرثوذكس:

وهم فرقة من فرق النصارى تؤمن بربوبية وألوهية الرب والمسيح في آن واحد على أنهما من جوهر واحد ، ومشيئة واحدة، ومتساويين في الأزلية.

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف د. مانع بن حماد الجهني، المجلد الثاني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط٣، الرياض، ١٤١٨هـ (٦١٠ ـ ٦١٧) بتصرف.

وتؤمن الكنيسة الأرثوذكسية مثل باقى الكنائس، بإله واحد مثلث الأقانيم: الآب، الابن، الروح القدس[1].

ويمثل الأرثوذكسية كنيستان رئيسيتان:

- ❖ كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقية، وأكثر أتباعها من الروم الشرقيين، وأوربا الشرقية والبلقان واليونان وروسيا، ومقرها الأصلى القسطنطينية، وكانت فى الأصل تابعة للكنيسة الكاثوليكية، ثم انفصلت عنها سنة ١٥٥٤م.
- ❖ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية المعروفة باسم كنيسة الإسكندرية، وتضم كنائس الحبشة والسودان.

والمذهب الأرثوذكسى يبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة، مع تحريمه الزواج على المطلق والمطلقة بعد ذلك، ويعتمد فى ذلك على ما ورد فى إنجيل متى إذ يقول المسيح: (من طلق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى).

٣ ـ البروتستانت:

فرقة من النصرافية احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتية؛ حيث يعترضون على كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم.

وهم أتباع مارتن لوثر[2]، الذى ظهر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، ومعنى كلمة البروتستانت ـ أى المحتجين ـ وتسمى كنيستهم الإنجيلية؛ لدعواهم أنهم يتبعون الإنجيل دون غيره، ويفهمونه بأنفسهم دون الحاجة إلى البابوات.

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مرجع سابق (٦٠٣ــ٦٠٤) بتصرف.

(٢) مصلح ديني مسيحى ألماني شهير، يعد الأب الروحى للإصلاح البروتستانتى، ولد في عام ١٤٨٣م، وفي سنة ١٥٤٦م دعى لفض نزاع في بلدته، وبعد أن أفلح في فض النزاع أصيب بنوبة برد ما لبث أن توفى في أثرها.

وهـذا المـذهب ينتشـر فـى ألمانيـا ، وإنجلـترا ، والـدانمارك ، وهولنـــدا ، وسويسـرا ، والنرويج ، وأمريكا الشمالية ، وقد جعلوا الإنجيل هو المصدر الوحيد للنصرانية ، وأن الكنيسة ليس لها الحق فى غفران الذنوب ، ولا يرون ضرورة للرهبنـــة ، وأبـاحـوا الـزواج لرجـال الـدين ، وحرمـوا اتخاذ الصور والتماثـيل فـى الكنـائس للسجود لهـا ، مستدلين بأن هذا عمل وثنى ، وهم كالأرثوذكس ليس لهم رئيس عام[1] .

٣ ـ الإســلام

الإسلام معناه استسلام الوجه لله ، ويراد به مجموعة التعاليم ، التى أوحاها الله إلى سيدنا محمد ﷺ ، وهـى داعيــة إلى توحيـد الله ، والخضـوع لأحكامــه ، والانقيـــاد للأصول العامة التى جاء بها الأنبياء من قبــل . يقـول الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ .. ﴾(سورة الشورى ، الآية١٣) .

ومن ثم فقد أطلق لفظ مسلم ، على كل من اتبع هـذه التعـاليم ، فيقــال إن نوحـا مسلم ، وإبراهيم مسلم ، وموسى مسلم ، وعيسى مسلم ، وكذلك يسمى بهـذا الاسم كـل من تـبعهم وانقـاد لتعـاليمهم ، ولمـا كـان سيدنا محمـد ﷺ آخـر مـن حمـل هـذه التعاليم ، ودعا إليها أطلق عليه اسم مسلم ، وأطلق على أتباعه المسلمين ، وسمـــى الدين الذى دعا إليه «بالإسلام» .

فالإســلام هـو الـدين الحق ؛ لأنــه ديــن الله الـذى أوحـاه إلى محمـــد صلوات الله وسلامه عليه ، وهو المنهج الـذى ارتضاه الله للناس جميعًا ، مـن أول الرسـل إلى خـاتم الأنبيـاء يقـول الله تعالـــى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ ﴾(سـورة آل عمـران ، الآية١٩) وكل ما خالف هـذا المـنهج ، فليس بـدين عنـد الله ، والله لا يقبـل أ ى عمـل من

(١) انظر : أضواء على مقارنة الأديان ، مرجع سابق ، صــ٩٥ ــ ٩٧ .

الأعمال التى لا تتفق معه يقول الله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(سورة آل عمران، الآية٨٥).

دعوة الإسلام:

الإسلام هو دين التوحيد، الذى أنزله الله على رسوله محمد بن عبد الله القرشى الهاشمى ﷺ، وكلفه بأن يبلغه البشر كافة، وقد انتشر فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى، ثم انتشر عبر العصور فى جميع أقطار المعمورة، والإسلام هو الرسالة السماوية الأخيرة للبشرية، وقد جاء بعد اليهودية والنصرانية مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، مبينًا لكثير مما بد ل أهل الكتاب وحرّفوا مما أنزل عليهم، متضمنًا كل أسباب السعادة فى الدنيا والآخرة .

جاء الإسلام فدعا بعقيدة واضحة بسيطة، لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق ربًا واحدًا، خلقه ونظمه، وقدر كل شىء فيه تقديرا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه، ولا صاحبة ولا ولد : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾(سورة الأنعام، الآية١٠١).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾(سورة الإخلاص).

هذه عقيدة الإسلام والمسلمين، ليس فيها ما فى الديانات السابقة - من عقائد التثليث أو المثنوية - من الغموض والتعقيد، الذى شعاره: (اعتقد وأنت أعمى).

إنما هو الإسلام طريق الله المستقيم، لا التواء فيه ولا اعوجاج، جاء لمعالجة كل ما يتعلق بالفرد والمجتمع؛ لأنه نظام متكامل، ويشكل الإسلام فى عالم اليوم إحدى أكبر الديانات، وأكثرها انتشارًا، فالمسلمون اليوم حوالى البليون وربع البليون نسمة، مفرقون بين أجناس وقوميات وثقافات عدة، فى جميع أنحاء الدنيا .

عموم رسالة الإسلام:

ولم تكن رسالة الإسلام رسالة موضعية محددة، يختص بها جيل من الناس دون جيل، أو قبيل دون قبيل، كما هو شأن الرسالات السابقة، بل كانت رسالة عامة للناس جميعا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

(سورة سبأ، الآية٢٨)

وفى الحديث الصحيح: «كَانَ كُلُّ نَبِيٌّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ»(رواه مسلم)[١].

وأجمعت الأمة على أن الشريعة الإسلامية، ناسخة لما يخالفها من الأحكام التى كانت سائدة فى الشرائع السابقة، مصداق ذلك ما جاء فى الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٢].

الإسلام دين ودولة

لا يوجد فى الإسلام رجال دين بالمفهوم الكهنوتى عند النصارى ـ يجعل من رجال الدين سيفًا مسلطًا على ضمائر الناس وعقائدهم ـ وإنما يوجد فى الإسلام رجال اختصاص فى الفقه، وعلوم الشريعة، والسيرة والتاريخ ... وهذا الاختصاص لا يمنع العالم أن يشارك فى قضايا الحكم وشئون السياسة، ما دام كفؤا لحمل الأمانة، وجديرا بتحمل المسئولية.

وهو بهذا الاعتبار بشر يخطئ ويصيب، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء، ورحم الله الإمام مالكًا، حين وقف أمام قبر الرسول ﷺ وقال قولته الخالدة «كل رجل

(١) الحديث جزء من حديث طويل رواه الإمام مسلم في كتاب المساجد وموضع الصلاة (٨١٠).

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان رقم (٢١٨).

يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى قبر الرسول ﷺ وهو بهذا المفهوم لا يعطى لنفسه حق القداسة والتعظيم إلا بقدر ما يسمح به الشرع، وتأذن به تعاليم الإسلام، لأن شريعة الإسلام تحمل فى طيات مبادئها وأنظمتها وأحكامها فكرة الجمع بين الدين والدولة، وإن شئت قل فكرة الجمع بين الإسلام ونظم الحياة .

أما إن الإسلام دين فلأنه يقوم على الأسس التالية:

١- يقوم على العقيدة الربانية: التى تحرر العقل من الخرافة، وتدعو إلى التوحيد الخالص، وتنزه الله - عز وجل - من الشريك والشبيه والمماثلة.

٢- ويقوم على العبادة الخالصة: التى تسمو بالروح، وتهذب الخلق، وتصلح العمل.

٣- ويقوم على مبادئ الأخلاق الثابتة: التى تنمى شخصية الإنسان، وترفعه إلى ذروة الفضيلة والكرامة، كالشجاعة والأمانة والعفة والصدق والوفاء والمروءة ..

وأما أن الإسلام دولة: فلأن الدولة فى الإسلام تقوم على الأسس التالية:

١- رئيس أو أمير أو خليفة ... يختاره الشعب بمحض اختياره وإرادته لقوله تعالى (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)(سورة الشورى، الآية٣٨). ولما روى البخاري عن الرسول ﷺ أنه قال: «مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ»[1].

٢- جهاز حكومي: ينتقى فيه الأكفاء من غير نظر إلى أى اعتبار آخر، من جاه أو نسب أو غنى ... لما رُوِىَ في مسند الإمام أحمد أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ»[2].

٣- قوانين مدنية وسياسية واقتصادية ... وضع الإسلام قواعدها الكلية، ومبادئها العامة، وترك للمجتهدين فى كل زمان، الاجتهاد فى تفاصيلها بما يحقق

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٣٢٨) كتاب الحدود.
(٢) مسند أحمد، حديث رقم (٢١) كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة.

للناس المصلحة العامة، على ألا تصطدم بنص صريح، من قرآن أو سنة أو قياس أو إجماع.

٤ـ قوانين للعقوبات الجزائية والجنائية : تعرف في الشريعة باسم (الحدود والتعزيرات) فالحدود تشمل: حد الردة، والقتل، والسرقة، والقذف، والزنا، وشرب الخمر، وحد الإفساد في الأرض، والإسلام وضع لكل حد من هذه الحدود، عقوبة مقدرة، مبينة في القرآن الكريم والسنة المطهرة. أما التعزيرات فهي عقوبة غير مقدرة، تجب حقا لله أو لآدمي ليس فيها حد ولا كفارة، قد تكون توبيخًا أو ضربًا، أو حبسًا أو نفيًا أو غرامة ... على ألا تبلغ حدا من حدود الله.

٥ـ جيش قوي يرهب الأعداء : ويحمي الديار، ويدفع عن أرض الإسلام العدوان وشعاره في ذلك : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(سورة الأنفال، الآية٦٠).

٦ـ قضاء مستقل عن أية سلطة في الدولة يقوم على العدل والمساواة بين الجميع وشعاره في ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(سورة النساء، الآية١٣٥).

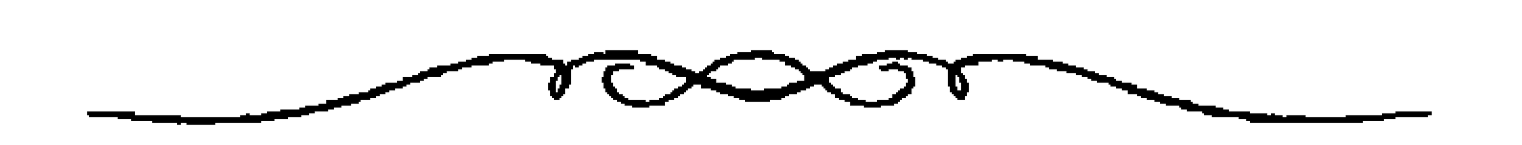
٧ـ علاقات دولية تقوم على حسن الجوار ... وشعاره في ذلك : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(سورة الممتحنة، الآية٨).

٨ـ دعوة إلى تعلم العلوم النافعة: سواء أكان العلم شرعيًا، أو كونيًا، ما دام لمصلحة الدين والدنيا، وشعاره في ذلك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

(سورة طه، الآية١١٤)

٩ـ تطلع دائم نحو العزة والكرامة : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة المنافقون، الآية٨).

١٠ ـ حراسة دائمة للرأى العام تتمثل فى (نظام الحسبة) الذى يقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحقيق مصالح الأمة، ودفع الأذى والشر عن الناس .. قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(سورة آل عمران، الآية١٠٤).



الشريعة الإسلامية

خصائصها ـ أهدافها ـ مبادئها

لقد جاءت الشريعة الإسلامية خالدة على الدهر، باقية على الزمن، وافية بحاجات الأمة فى نظامها : الفردى والجماعى والخلقى، والاقتصادى، والسياسى، كما اشتملت على أسمى ما عرفته البشرية من أحكام ومبادئ: كالمساواة، والعدالة، والشورى ... وطبقت فسعدت بها الأمة، وكانت خير أمة أخرجت للناس.

أولا: خصائص الشريعة ومميزاتها:

أظهر ما فى الشريعة الإسلامية من خصائص ومزايا، نوجزه فى هذه العناصر :

- تمتاز بالربانية، والعالمية، والشمول .
- وتمتاز بالتجدد ، والعطاء ، والاستمرار .
- وتمتاز بالتوازن بين المادة والروح .
- وتمتاز بالتعادل بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.
- وتمتاز باليسر، والبساطة، والمعقولية.
- وتمتاز بكونها مكملة، وخاتمة، ومهيمنة.
- وتمتاز بالأصالة، والثبات، والخلود .
- وتمتاز بالعدل المطلق لبنى الإنسان(١) .

(١) انظر هذه العناصر موضحة فى كتاب صور من أسرار الشريعة ومقاصدها للمؤلف، (٥١ـ٦٤).

فإذا كانت شريعة الإسلام تمتاز بكل هذا، فهى شريعة تستحق البقاء والخلود لأنها تدفع الإنسان نحو العزة والرفعة والكمال، فأنعم بها وأكرم.

ثانيا: من أهداف الشريعة:

١- إعداد الفرد بدنيًا، وعقليًا، وخلقيًا، بواسطة التربية والتعليم.

٢- تستهدف الشريعة تحقيق مصالح الناس؛ بإقامة العدل المطلق بينهم، والعدل واجب، ولو كان ضد النفس، وضد الأقربين.

٣- تستهدف الشريعة المحافظة على الدين، والمحافظة على النفس، والمحافظة على العقل، والمحافظة على العرض، والمحافظة على المال.

والمحافظة على هذه الأمور الخمسة فيها الحفاظ على المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية العامة التى هى قوام الأمة.

ثالثا : مبادئ الشريعة:

المبدأ الأول: مبدأ المساواة: فتقرر الشريعة أن الناس جميعا متساوون فى القيمة الإنسانية، فلا امتياز لجنس على جنس، ولا لعنصر على عنصر وهم متساوون فى الحقوق والواجبات، فلا امتياز لأحد على أحد فى الخضوع لأحكام الشريعة.

المبدأ الثانى: مبدأ العدالة: لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ .. ﴾

(سورة النساء، الآية٥٨)

المبدأ الثالث: مبدأ الرحمة: لقوله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(رواه أبو داود)(١).

ونهى عن القسوة والغلظة، فقال: «لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إلاَّ مِنْ شَقِيٍّ» (رواه الترمذى)(٢).

---

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٢٩٠) كتاب الأدب.
(٢) سنن الترمذى، حديث رقم (١٨٤٦) كتاب البر والصلة.

المبدأ الرابع: مبدأ التعاون: ويشمل تعاون الفرد مع الفرد ، وتعاون أعضاء الأسرة، وتعاون طوائف الأمة، وتعاون الحاكم والمحكوم، وفى التعاون إسعاد الفرد ، ورقى الجماعة، والوصول بالحياة إلى المستوى الرفيع.

المبدأ الخامس: مبدأ التكافل الاجتماعى: وغايته توفير الحاجات الأساسية للعجزة والضعفاء والفقراء ، وهى : الغذاء والكساء ، والمسكن ، والتعليم والعلاج وأساسه:

١ـ توفير العمل لكل قادر عليه.

٢ـ نفقة المعسر على قريبه الموسر.

٣ـ جمع الزكاة وتوزيعها على المستحقين .

المبدأ السادس: مبدأ التسامح: وفى ظله يعيش الناس إخوانا متحابين، وخلانا متناصرين ، يقول الله سبحانه ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(سورة الأعراف، الآية١٩٩)، ويقول الرسول ﷺ «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى»(رواه ابن ماجه)[1].

المبدأ السابع: مبدأ الحرية: وهى حق طبيعى لكل فرد ، وهى مقتضى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(سورة الإسراء ، الآية٧٠).

والحرية هى السبب الحقيقى فى التقدم العلمى ، والنماء الاقتصادى ، والازدهار الحضارى والحرية أنواع :

❖ **منها الحرية الشخصية** ، ومقتضاها عدم الاعتداء على النفس أو العرض أو المال أو السكن ، وألا يضيق على الفرد فى تنقلاته أو إقامته ، أو أى تصرف من تصرفاته المباحة.

❖ **ومنها حرية التفكير** ؛ فلكل فرد حق التعبير عن رأيه بأى وسيلة من وسائل التعبير ، ما دام التعبير يقصد به مناصرة الحق ، والدعوة إلى الخير.

---

(١) سنن ابن ماجة، حديث رقم (٢١٩٤) كتاب التجارات.

ولكل فرد حق النقد ما دام القصد وجه الله، وما التزم الحق والصواب.

ولكل فرد حق الكشف عن وسائل الإصلاح، والدعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.

❖ ومنها الحرية الاقتصادية، مع ضوابطها الشرعية؛ لأنها فطرة وحافز وعدالة.

❖ ومنها الحرية السياسية؛ فلكل فرد حق التصويت، وحق الترشيح، وحق المناقشة، وحق النصيحة، وحق تولى الوظائف العامة .. .[1].

هذه تعاليم الشريعة ومبادئها السامية الرفيعة، وفيها تقدم البشر ورفعة شأنه، وهى الطريق إلى الحضارة الصحيحة.

معجزة الإسلام القرآن الكريم

القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية نزولا، أنزله الله على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وللقرآن الكريم مزايا تميز بها عن الكتب السماوية التى تقدمته، ومن أهمها:

١- أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، التى تضمنتها التوراة والإنجيل وسائر ما أنزل الله من وصايا، وأنه مؤيد للحق الذى جاء بها: من عبادة الله وحده والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ووجوب إقامة الحق، والتحلى بمكارم الأخلاق.

٢- وتعاليم القرآن هى كلمة الله الأخيرة لهداية البشر، أراد الله لها أن تبقى، فصانها من أن تمتد إليها يد التحريف، أو التغيير أو التبديل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (سورة فصلت، الآيتين ٤١، ٤٢).

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (سورة الحجر، الآية ٩)

---

(١) خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٩هـ (١٨-٢٩) بتصرف.

والغاية من ذلك أن تبقى حجة الله على الناس قائمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ـ وهو كتاب خالد لا ينضب معينه، جمع علوما ومعارف لا تنقضي عجائبها، ولا تنتهي فوائدها.

والقرآن بهذا لا يساميه أو يقاربه كتاب آخر في تأثيره وهدايته، ولا في موضوعه وسمو أغراضه، ومن ثم كان خير الكتب وأفضلها على الإطلاق(١).

الإسلام انتشر بالسلم وليس بالسيف

إن الميزة العظمى للإسلام أنه لم ينتشر بالسيف والحرب والقوة ـ كما يدعى بعض أعدائه ـ لأنه دين تسامح وعدالة، لا يفرق بين إنسان وإنسان للاختلاف في الدين أو اللون، أو الجنس أو الثقافة، أو الغنى والفقر.. وإنما انتشر بقوة البرهان والدليل والإقناع والحكمة والموعظة الحسنة ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾(سورة النحل، الآية١٢٥).

لقد بعث رسول الهدى والنور محمد ﷺ إلى العالم كافة بالشريعة السمحة الواضحة، والملة القويمة والحنيفية المتسامحة مع كل الملل، جاء بدين الفطرة الذى تهفو إليه الألباب، وتطمئن له القلوب؛ لأن فيه رشدها من الغيّ وهدايتها من الضلال وشفاءها من العمى.

إن الإسلام لم ينتشر بالسيف؛ لأنه لا يبيح عداء من خالف المسلمين في الدين، ولا يبيح قتال غير المسلمين بسبب الاختلاف في الدين، إلا إذا اضطر المسلمون إلى حرب لا مفرٌ منها، دفاعًا عن النفس، والوطن الإسلامى، إذا هاجمهم الأعداء من الكفار؛ فالدفاع الآن يعد واجبا بالقدر الذى يسمح لهم بأن يدفعوا الأذى عن أنفسهم ووطنهم قال الله تعالى:

(١) انظر: العقائد الإسلامية، السيد سابق صـ ١٤٢ ـ ١٤٤.

- ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

(سورة الحج ، الآية٣٩)

- ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(سورة البقرة، الآية ١٩٠).

- ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

(سورة الأنفال، الآية٦١)

وإن دينًا كهذا شأنه من التسامح والإنسانية ليس محتاجًا إلى القوة تسنده، ولا إلى السيف يعزز مركزه، ويشيعه فى القلوب، فهو بقوانينه العادلة ونظمه السمحة، وتعاليمه المحببة إلى النفوس، الكافلة بسعادة البشر فى معاشهم ومعادهم، غنى عن مظاهرة الحديد والنار .

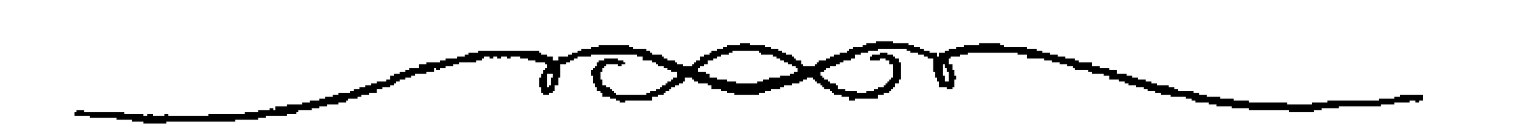
أما قتاله وجهاده ﷺ والمسلمون من بعده ـ الكفار والمنافقين ـ فلم يكن للإكراه على الدين، وحمل الناس على الدخول فيه بالقوة والقهر، وإنما كان لدرء الفتنة وصد هجمات المعتدين، كان لحماية الملة وصيانة الدولة من عبث العابثين وكيد الأشرار والحاقدين، وهذا أمر لا بد منه فى كل زمان ومكان ؛ فهو ضرورى لكل أمة لها كرامة تحتفظ بها، ودين تغار عليه، ونظام تحرص على تنفيذه .. لم يخل من ذلك دين سماوى ولا قانون وضعى.

انظر أخى المسلم إلى عدد المسلمين اليوم، فى الهند وباكستان والصين وإندونيسيا والسودان ونيجيريا، وتونس والجزائر وليبيا، تجد أنهم يمثلون نصف المسلمين فى الأمة الإسلامية تقريبًا، وقد أسلموا جميعًا لاقتناعهم بأن الإسلام هو دين الفطرة السليمة، والعقل المنطقى، والخلق الكامل، والعدالة الاجتماعية، دين الحرية والإخاء والمساواة.

ومن هنا يُعلم سقوط ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين وأشباههم، من أن الدين الإسلامى، دين غلبة وقهر، لم يقم إلا على القوة والعنف، ولم يترعرع، إلا تحت بارقة السيوف: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

(سورة الكهف، الآية٥)

إن الإسلام بما أوتى من قوة روحية، ومبادئ مثالية من عند الله، تصلح لكل زمان ومكان، وكل شعب م ن الشعوب، قد انتشر وسينتشر حتى يعم كل بلاد العالم.



المذاهب الفقهية

لقد وجدت مذاهب كثيرة فى صدر الإسلام وما يليه، ولكن أكثر هذه المذاهب تلاشى وانقرض، وبقى منها أربعة مذاهب فقهية هى التى يتبعها إلى اليوم معظم المسلمين. وهى:

١ــ المذهب الحنفى: وإمامه أبو حنيفة النعمان (توفى سنة ١٥٠هــ)

وهو إمام أهل الرأى، أفتى فيما لم يقع وما يستبعد وقوعه، وكانت طريقته فى الإفتاء تعتمد على القرآن والحديث المعتمد، الذى كان يتشدد فى فحصه فحصًا جيدًا، ثم إعمال الرأى والاجتهاد والقياس، وقد منح الإمام أبو حنيفة تلاميذه قدرًا كبيرًا من الحرية فى العلم والبحث، فلم يتركوا مسألة - ولو افتراضية - دون نقاش، لذا يعتبر المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى، وقد نسب إلى الإمام أبى حنيفة كتاب الفقه الكبير، وتوفى في بغداد.

٢ــ المذهب المالكى: وإمامه مالك بن أنس (توفى سنة ١٧٩هــ)

ويعتبر إمام أهل الحديث، وكان لا يحب أن يفتى فى مسألة إلا إذا وقعت، ويكره الافتراض، وكان مذهبه يعتمد على الحديث تماما، ولم يعمل بالرأى مخالفا فى ذلك منهج الإمام أبى حنيفة، واشتهر عنه تقديمه لعمل هل المدينة على حديث الآحاد؛ وحجته أن أهل المدينة ظلوا يتوارثون ما أخذوه عن رسول الله ﷺ، فهو أشبه بالسنة المتواترة.

وألف الإمام مالك كتاب الموطأ ورتبه على أبواب الفقه، وكان غرضه من وضعه الإتيان بالتشريع مستدلاً عليه بالحديث، وقد أورد فى هذا الكتاب خمسمائة حديث، خلصت عنده من أصل عشرة آلاف حديث .

٣ـ المذهب الشافعى: وإمامه محمد بن إدريس الشافعى (توفى ودفن بمصر سنة ٢٠٤هـ)

كان تلميذًا للإمام مالك، تتلمذ على يديه وحفظ عنه الموطأ، ثم أخذ فى الرحلة لتحصيل العلم، ونزل الكوفة ودرس فقه الإمام أبى حنيفة على يد تلاميذه هناك، ولذلك جاء مذهب الإمام الشافعى فى الفقه والتشريع، وسطا بين مذهبى أهل الحديث (المالكى والحنبلى) وأهل الرأى (المذهب الحنفى).

٤ـ المذهب الحنبلى: وإمامه أحمد بن حنبل الشيبانى (توفى سنة ٢٤١هـ)

ولقد سار على نهج مدرسة الإمام مالك؛ ولذلك صار إمام أهل الحديث فى عهده، وكان ابن حنبل تلميذا للإمام الشافعى أخذ عنه وتأثر بمذهبه، إلا أنه أنكر عليه أخذه بالرأى، ولقد جمع ابن حنبل فقهه والأحاديث التى توصل إليها، وثبتت صحتها عنده فى كتابه (المسند) الذى حوى أكثر من أربعين ألف حديث[1].

الفرق الإسلامية

الفرق الإسلامية هى جماعات تغايرت آراؤها فى بعض المفاهيم، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»(رواه الترمذى)[2].

(١) الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث للثانوية العامة، د. عطية القوصى، دار دار التوفيقية للطباعة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٨م (٣٧) بتصرف.
(٢) سنن الترمذى، حديث رقم (٢٥٦٤) باب ما جاء في افتراق هذه الأمة.

أسباب نشأة الفرق :

١ـ كانت الخلافة هى المسألة التى اشتد نزاع المسلمين فيها ، وكان من أثر هذا النزاع تكون ثلاث فرق ، من أكبر الفرق الإسلامية هى : الخوارج والشيعة والمرجئة .

٢ـ لما كثرت الفتوح ودخل فى الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرى ، وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى لباس دينهم الجديد ، فأخذت تظهر أفكار جديدة لم تكن مألوفة من قبل ، كالجبرية والقدرية .

٣ـ وسط هذا الاضطراب الفكرى ، قام جماعة من المخلصين ، يشرحون عقائد المسلمين على طريقة القرآن الكريم ، وكان من أشهرهم الحسن البصرى[1] ، إمام أهل السنة (الأشاعرة والماتريدية) ، بينما اعتزله تلميذه واصل بن عطاء ، وكون مذهب المعتزلة ، وأشهر الفرق الإسلامية الشيعة ، والخوارج ، والجبرية ، والمعتزلة ، وأهل السنة .

الخــــوارج

وقد نشأت هذه الفرقة بسبب الخلاف بين علىٍّ ومعاوية رضى الله عنهما ذلك أنه عندما نشب القتال بينهما فى موقعة صفين ، وطلب معاوية وصحبه تحكيم كتاب الله خوفًا من الهزيمة ، فاختلف أصحاب علىٍّ فى إجابة طلب معاوية ، ثم كانت نهاية الجدال قبول التحكيم ، فاختار علىٌّ ـ كرّم الله وجهه ـ أبا موسى الأشعرى ليكون ممثلاً له ولقومه ، واختار معاوية عمرو بن العاص نائبًا عنه وعن صحبه .

ثم قام فريق من جند علىٍّ وقالوا التحكيم خطأ ؛ لأن معنى هذا الشك فيما قمنا بالحرب لأجله ، وقالوا : (لا حكم إلا لله) ، وطلبوا من الإمام علىٍّ الإقرار على نفسه بالخطأ ، بل بالكفر لقبوله التحكيم ، فلما لم يستجب لهم أجمعوا أمرهم على الخروج من الكوفة إلى قرية (حروراء) وسموا حينئذ بالحرورية ، وأطلق عليهم اسم الخوارج لخروجهم على الإمام علىٍّ وصحبه .

(١) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، إمام أهل البصرة، ولد ٢١هـ، وتوفى ١١٠هـ. تهذيب التهذيب (٢/٢٣١).

مبادئ الخوارج :

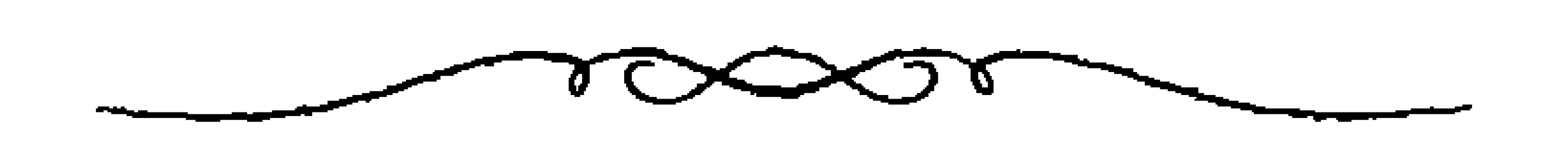
١ـ صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان فى أول ولايته، وكان يجب عزله عندما غير طريقة أبي بكر وعين أقاربه، وصحة خلافة على إلى وقت التحكيم، ولما أخطأ كفروه مع الحكمين.

٢ـ وجوب الخروج على الإمام الجائر، ولا يقولون بالتقية(١) مثل الشيعة .

٣ـ الخلافة يجب أن تكون باختيار حربين المسلمين سواء أكان المختار قرشيًا أو عبدًا حبشيًا، وعليه أن يخضع خضوعًا تامًا لأوامر الدين وإلا وجب عزله.

٤ـ العمل جزء من الإيمان، لأن الإيمان تصديق وعمل، وكل من عصى الله يكون كافرًا، والذنوب كلها كبائر.

وقد حاربهم الإمام عليّ وهزمهم، وكانت نهايتهم فى منتصف القرن الثالث الهجرى، ولم يبق منهم إلا طائفة الأباضية بالمغرب، وهى أعدل فرق الخوارج، وأقربهم إلى الإسلام.



الشيعة

الشيعة أقدم الفرق الإسلامية، وأصلهم أصحاب الرأى القائل بأولوية آل بيت النبى ﷺ بالخلافة، وأحق آل البيت عليّ بن أبى طالب، ولما لعليّ من المكانة الممتازة فى الإسلام. أخذوا ينشرون نحلتهم بين الناس.

مبادئ الشيعة :

١ـ أن الإمامة ليست من المصالح العامة، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفالها، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر.

---

(١) ويراد بها اتخاذ الحيطة والحذر، حفاظاً على الدين والنس ... وذلك بأن يظهر الإنسان غير ما يضمر، والتقية مبدأ أساسي في حياة الكثير من الشيعة، وركنا من أركان مذهبهم، ونسبوا إلى أئمتهم قولهم «لا دين لمن لا تقية له»، ويسوقون دليلاً على التقية قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾(سورة آل عمران، الآية٢٨).

٢ـ عين الرسول ﷺ عليًّا للخلافة، بنصوص يروونها ويؤولونها. لا يعرفها أحد غيرهم. ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب عليٌّ بالوصي، فهو إمام بالنص لا بالانتخاب، وقد أوصى عليٌّ لمن بعده، وهكذا كل إمام وِصيٌّ مَن قبله.

٣ـ عليٌّ أفضل الخلق على الإطلاق بعد الرسول ﷺ، فمن عاداه أو حاربه فهو عدو لله، إلا إذا ثبتت توبته ومات على حبه.

ولم يكن الشيعة على درجة واحدة، بل كان منهم المتطرفون الذين لم يكتفوا بتفضيله على الخلفاء وعصمته، بل رفعوه إلى مرتبة النبوة، ومنهم من ألّهه(١).

المرجئة

لما انقسم أتباع عليٍّ ﷺ بسبب قبوله التحكيم إلى خوارج وشيعة، وكانت الخوارج يكفرون عليًّا، والشيعة منهم من يقول بكفر أبي بكر وعمر وعثمان ومَن ناصرهم، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم، والأمويون يزعمون أن المسلمين هم الذين انضموا تحت لوائهم، وخضعوا طائعين أو مكرهين.

كان هذا سببًا في أن جماعة من الصحابة، كرهوا هذا النزاع وسلكوا طريقًا وسطًا حتى تنجلي الفتنة، وأرجئوا الحكم في شأنهم إلى الله، فلهذا سموا بالمرجئة.

مبادئ المرجئة :

١ـ الإيمان تصديق ومعرفة، والعمل لا أثر له مطلقًا، وقالوا: (لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة).

٢ـ ثم تشدد بعضهم فزعم أن الإيمان اعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأصنام، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار السلام، ومات على ذلك فهو مؤمن.

وقد وجد الفسّاق فيما آل إليه هذا المذهب بابًا مفتوحًا لكل مفسد واتخذوه ذريعة لمآثمهم، وكان هذا مثار نقمة على المرجئة.

(١) للاستزادة انظر: قطوف من جواهر الكلم للمؤلف (١٧٢ ــ ١٧٧).

الجبرية (الجهمية)

معنى الجبر نفى الفعل عن العبد، وإضافته لله تعالى، وتنسب فرقة الجبرية إلى جهم بن صفوان[1]، لأنه يعتبر أكبر الدعاة لهذه النحلة، ولهذا سميت بالجهمية.

مبادئ الجبرية:

١ـ الإنسان مجبور فى فعله، فلا يوصف بالاستطاعة ولا قدرة له ولا اختيار، ويخلق الله فيه الأفعال كما يخلقها فى الجمادات.

٢ـ لا يوصف الله بصفة يوصف بها خلقه، لأن هذا يقتضى التشبيه، ولهذا نفوا صفات المعانى عن الله تعالى.

٣ـ القول بخلق القرآن لإنكارهم صفة الكلام لله تعالى.

٤ـ إنكار رؤية الله لما تقتضيه من التشبيه.

٥ـ القول بفناء الجنة والنار.

المعتزلة

أساس نشأتهم اختلاف واصل بن عطاء[2] مع أستاذه الحسن البصرى، فى حكم مرتكب الكبيرة، وإليه تنسب طائفة المعتزلة.

ذلك أنه كان ممن يجلس فى درس الحسن البصرى، فدخل رجل على الحسن البصرى وقال: يا إمام الدين ظهر فى زماننا جماعة يكفرون مرتكب الكبيرة وهم الخوارج، وجماعة يرجئون الحكم عليه ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا

(١) هو أبو جهم بن صفوان السمرقندى أبو محرز، من موالى بنى راسب، أنشأ فرقة فرقة الجهمية، توفى عام (١٢٨هـ ـ ٧٤٥م)(الموسوعة العربية العالمية ٥٣٤/٨).

(٢) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء البصري، شيخ المعتزلة، ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة، كان تلميذًا للحسن البصري، فلما ظهر الاختلاف وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا هو مؤمن ولا كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين، اعتزل أستاذه، فقال الحسن البصري: اعتزلنا واصل، توفى عام ١٣١هـ (الموسوعة العربية العالمية ٢٧/٢٤).

تنفع مع الكفر طاعة وهم المرجئة، فتفكر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو فى منزلة بين المنزلتين، ثم انتحى ناحية من المسجد وأخذ يقرر هذا المذهب، فقال الحسن اعتزلنا واصل، فكان هذا سببا فى تسميتهم بالمعتزلة.

مبادئ المعتزلة:

١ـ وجوب معرفة الله تعالى بالعقل.

٢ـ إنكار صفات المعانى والقول بخلق القرآن.

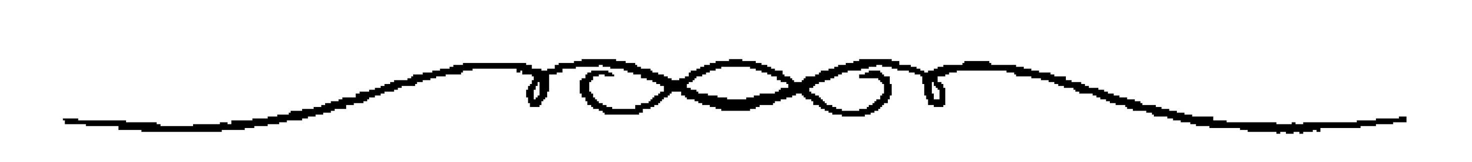
٣ـ نفى رؤية الله تعالى لما تقتضيه من التجسيم والجهة.

٤ـ القول بالحسن والقبح العقليين.

٥ـ الله يريد الخير ولا يريد الشر، ويجب عليه فعل الصلاح والأصلح لعباده.

٦ـ العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه.

٧ـ مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين ولا شفاعة له.



أهل السنة

تتكون جماعة أهل السنة من فريقى الأشاعرة والماتريدية، وقد نشأت تلك الجماعة عندما رفع (المتوكل)[1] المحنة عن الفقهاء والمحدثين وأبعد المعتزلة وقد أيدها الخاصة والعامة، وردت على المعتزلة، وقامت مقامهم فى الدفاع عن الدين.

كانت طريقة أهل السنة فى فهم العقائد، كما كان عليه السلف الصالح، بمعنى أنهم كانوا يفهمون عقائدهم من الآيات القرآنية، وما اشتبه عليهم منها حاولوا فهمه بما توحيه أساليب اللغة، ولا تنكره العقول، فإن تعذر عليهم توقفوا وفوضوا، وبهذا يكون أهل السنة سلكوا طريقًا وسطًا بين العقل والنقل، لا تطرف فيها من

(١) أحد خلفاء الدولة العباسية، بويع بالخلافة بعد أخيه الواثق، وكان عهده مفتتح عهد جديد في الدولة العباسية عرف بالعصر العباسى الثاني، تآمر على قتله قادة الأتراك وابنه المنتصر (الموسوعة العربية العالمية ٢٢/٢٤٧).

ناحية العقل كالمعتزلة، ولا وقوف عند النص كرأى الفقهاء والمحدثين، ولم يكن بين الأشاعرة، والماتريدية خلاف إلا فى أمور يسيرة، مثل كون المعرفة بالعقل أو بالشرع، ومفهوم الإيمان والإسلام، ومعنى القضاء والقدر، وغير ذلك مما يقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة، ولا يعد تخالفًا فى المذهب.

مبادئ أهل السنة:

١- طريق وجوب المعرفة الشرع.

٢- إثبات صفات المعانى لله تعالى.

٣- الإيمان هو التصديق والعمل كمال له.

٤- القول بقدم القرآن الكريم وحدوث العالم.

٥- الله يريد الخير والشر، ولا يجب على الله تعالى شيء.

٦- من الجائز فى حقه تعالى الثواب والعقاب، وإرسال الرسل، ورؤية الله تعالى.

٧- الله خالق لأفعال العباد الاختيارية.

٨- لا عصمة إلا للأنبياء.

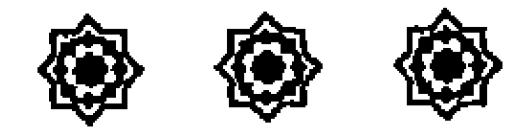
٩- ثبوت سؤال القبر ونعيمه وعذابه.

١٠- البعث للجسم والروح.

١١- الشفاعة لأهل الكبائر.

١٢- وجود الجنة والنار وخلودهما.

١٣- الإمامة العظمى ليست ركنًا من الدين[١].



(١) مذكرة الفرق للصف الأول الثانوى الأزهرى، حسن السيد متولى ـ قطاع المعاهد الأزهرية بالقاهرة، ١٤١٩هـ (٥ ـ ١٦) بتصرف.

الفصل الثانى

احترام الإسلام للديانات الإلهية الأخرى

تمتاز الشريعة الإسلامية بأنها جاءت مكملة للشرائع السابقة : لكونها جمعت فى طياتها دعوات الأنبياء والرسل السابقين، وزادت عليها بالتشريع الأبدى الكامل، الذى فيه سعادة البشرية جمعاء فى الدنيا والآخرة، على أن الإسلام يعتبر الرسالات كلها كالبيت الواحد ، يضع فيه كل رسول لبنة من لبناته، واكتملت أركانه وأسسه وقواعده وبنيانه كله فى صورته النهائية، بشريعة سيدنا محمد ﷺ فلا يمكن أن ينفصل عنها .

وقد امتدت رقعة الدولة الإسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وكانت تضم أمما مختلفة الأجناس، متباينة الأديان، متناقضة العادات والتقاليد والمصالح، وكان فيها العرب والفرس واليهود والنصارى والمجوس وغير هؤلاء . والشريعة الإسلامية لم تمنع أحدا من غير المسلمين من ممارسة شعائر دينه، عملا بالقاعدة الفقهية المقررة : اتركوهم وما يدينون .

وقد أباحت لهم الشريعة كل ما أباحته شريعتهم، وإن كان ذلك محظورا فى الإسلام، وجعلت أساس معاملتهم البر والقسط وكف الأذى، ومنع الغدر: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الممتحنة،٨).

الفصل الثانى

احترام الإسلام للديانات الإلهية الأخرى

نادى القرآن الكريم المسلمين باحترام أصحاب الرسالات الأخرى والإيمان برسلها، وجعل ذلك واجباً، بل وشرطاً من شروط الإيمان قال تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية١٣٦) **وفى موضع آخر يقول تعالى داعيًا إلى الإيمان بكل الرسل، دون أدنى تفرقة بينهم:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ..﴾ (سورة البقرة، الآية ٢٨٥) **قال ابن كثير: « فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديُّون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشريعة محمد ﷺ[1].**

ولا أدل على احترام الإسلام لأصحاب الديانات الإلهية السابقة بصفة عامة ولأهل الكتاب (اليهود والنصارى) بصفة خاصة، من أنه: أحلّ للمسلم أن يتزوج نصرانية أو يهودية وتبقى على دينها، كما أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم، بشرط أن يكون المذبوح مما يحل للمسلمين أكله، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

(سورة المائدة، الآية٥)

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ بن كثير، دار الكتب العلمية، ط بيروت، (٣٤٢).

هذا، وسيتبين فى هذه الدراسة سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين وبراءته من التعصب، وقسر الناس على اعتناقه .

وسنرى أنه قد كفل للناس حرية العقيدة، قبل أن تهب الثورة الفرنسية بنحو اثنى عشر قرنا وغير ذلك كثير وسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .



- ١ -

نظرة الإسلام إلى الأديان السابقة

إن الحديث عن نظرة الإسلام إلى الأديان السابقة، إنما هو الحديث عن الإسلام بصفته الدين الحق، الذى ارتضاه الله، ولا يقبل من أحد دينا سواه، وهو رسالة سيدنا محمد ﷺ والأنبياء من قبله.

لكن قبل الشروع فى توضيح هذه المسألة، فإن الأمر يستوجب التنويه بذكر ثلاث مقدمات - غاية فى الأهمية - وهذه المقدمات الثلاث هى بمثابة التمهيد لهذا الموضوع (نظرة الإسلام إلى الأديان السابقة) فنقول :

المقدمة الأولى: (وحدة الرسالات الإلهية)

من المعلوم أن رسالات الأنبياء جميعا متفقة على الأسس التالية :

❖ متفقة على وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك والشبيه والمماثلة.

❖ متفقة على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر.

❖ متفقة على تهذيب النفس الإنسانية، وإصلاحها وتحليها بمكارم الأخلاق.

❖ متفقة على عبادة الله عز وجل، وتحرير الإنسان من اتخاذ المخلوقين أربابًا من دون الله.

❖ متفقة على توطيد السلام والأمن والمحبة والرحمة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. بين أبناء الشعوب والأمم . وإلى هذه المعانى الرائعة أشار القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(سورة آل عمران، الآية٦٤).

وبقوله تعالى أيضاً: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(سورة آل عمران، الآيتين ١١٣، ١١٤)[١].

المقدمة الثانية : (وجوب الإيمان بالرسالات السابقة)

أرسل الله محمدًا ﷺ خاتما للنبيين، ومصدقا للرسل من قبله، وأنزل عليه القرآن الكريم مؤيدا للكتب السماوية المنزلة، ولا يصح الإسلام بغير إيمان بالأنبياء السابقين، وبما أنزل عليهم من كتب يتجلى ذلك في قوله تعالى :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاط وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(سورة البقرة، الآية١٣٦)

والأديان الإلهية جميعها تعد - في نظر الإسلام - حلقات متصلة لرسالة واحدة، جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنساني، ومن هنا فإن من أصول الإيمان في (الشريعة الإسلامية): الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي، مصداق ذلك في قوله تعالى :

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا

(١) صور من أسرار الشريعة ومقاصدها للمؤلف (٥٩).

﴿وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(سورة البقرة، الآية٢٨٥)[١]

وفي قوله تعالى - عن موسى عليه السلام - :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

(سورة لمائدة، الآية٤٤)

وفي قوله تعالى عن عيسى عليه السلام :

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

(سورة المائدة، الآيتين٤٦، ٤٧)

وفي قوله تعالى عن أهل الكتاب من يهود ونصارى :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (سورة المائدة، الآية٦٨)

(١) التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٤٢٥هـ (١٥).

لذلك يقرّ المسلمون بنبوة موسى وعيسى - عليهما السلام - ويجلونهما، وينزهون نسب عيسى - عليه السلام - ويكفّرون من ينكر رسالتيهما.

إذن ليس في الإسلام تعصب على اليهودية أو المسيحية، وليس فيه اتهام لنبي ولا تهجم على رسول، وهو لا يحارب اليهودية ولا النصرانية، ولا يحقد عليهما؛ لأنه دين السماحة والتسامح، كما سنرى في دعواته وفي تطبيقها وتنفيذها[1].

أرأيت كيف ينظر الإسلام إلى اليهودية وإلى النصرانية؟ ثم أرأيت كيف يجلهما؟

المقدمة الثالثة: (حكمة اختلاف الناس في عقائدهم)

وقد دان المسلمون بما علمهم الله تعالى، أنه قضى - لحكمة يعلمها - بأن يكون الناس مختلفين في عقائدهم وأهدافهم وقدراتهم العقلية؛ فالذي يريد من الناس الاتفاق على كل شيء، مخالف لقضاء الله سبحانه، قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ .. ﴾(سورة هود، الآيتين ١١٨، ١١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس، الآية٩٩).

ودانوا أيضًا بأن السعيد هو من شرح الله صدره للإسلام، فأدرك سره، وأشرب قلبُه حبَّه ... إذن فلا سبيل إلى الإكراه على اعتناق الإسلام، ولا سبيل لبغضة مخالفيه؛ لأن أمرهم موكول إلى خالقهم. قال تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القصص، الآية٥٦).

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ (١٠-١٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

(سورة الأنعام، الآية ١٢٥)

لهذا أمرالله المسلمين بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدل الذى لا يعقب فرقة ولا خصومة، قال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ .. ﴾.

(سورة الكهف، الآية٢٩)

وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ...﴾

(سورة البقرة، الآية٢٥٦)

وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾

(سورة العنكبوت، الآية٤٦)

ولقد صدع المسلمون بما أمرهم ربهم به، فلم يسلكوا ما سلكهُ غيرهم من رجال الدين، الذين كانوا ينادون فى أتباعهم : إن الله قد أمر بأن يكون البشر كلهم على دين واحد ، فيجب أن تعملوا على توحيد الدين ، ما وجدتم إلى توحيده سبيلاً[1].

عود إلى بدء :

نعود بك - أيها القارئ الكريم - إلى موضوعنا الأصلى (نظرة الإسلام إلى الأديان السابقة) فنقول:

إن مفهوم كلمة (الإسلام) لها إطلاقان: عام وخاص.

فالإسلام بمعناه العام الشامل، يعنى الاستسلام والانقياد للخالق جل وعلا، فهو

(١) انظر باستفاضة: مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفى (١٢-١٤).

بهذا المفهوم اسم للدين المشترك، الذى جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ، وقد نطق القرآن بذلك:

فنوح عليه السلام - يقول لقومه: ﴿...وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

(سورة يونس، الآية٧٢)

وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يدعو أن الله أن يجعلهما من المسلمين ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾

(سورة البقرة، الآية١٢٨)

ويعقوب عليه السلام يوصى بنيه بألا يموتوا إلا على الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(سورة البقرة، الآية١٣٢).

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿... قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

(سورة البقرة، الآية١٣٣)

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿... أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(سورة يوسف، الآية١٠١).

وموسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(سورة يونس، الآية٨٤).

وكذلك تستمر الدعوات إلى الإسلام، حتى تصل إلى الرسالة الخاتمة إلى محمد ﷺ الذى يقول: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة الزمر، الآية١٢)[1]

---

(١) وكما اتحدت دعوة الأنبياء فى الدعوة إلى الإسلام كدين، اتحدت كذلك دعواتهم

المعنى الخاص للإسلام :

أما المفهوم الخاص لكلمة الإسلام : فهو الشريعة التى بعث بها سيدنا محمد ﷺ وعلى هذا المعنى الخاص جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة : قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ .. ﴾(سورة المائدة، الآية٣).

وجاء فى الحديث الذى رواه مسلم من حديث جبريل عليه السلام الذى سأل فيه رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال : «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّـهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّـهِ، وَتُقِيمَ

فى= =أصولها العامة وقواعدها الكلية، ومن ثم فإن كل نبى من الأنبياء افتتح دعوته بالدعوة إلى عبادة الله وحده، والبعد عما سواه من الشريك والشبيه والصاحبة والولد: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(سورة الأنبياء٢٥).

۞ فنوح عليه السلام حكى عنه القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(سورة المؤمنون، الآية٢٣).

۞ وإبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ...﴾(سورة الممتحنة، الآية٤).

۞ وهود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ..﴾(سورة الأعراف، الآية٦٥)

۞ وصالح عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(سورة الأعراف، الآية٧٣)

۞ وشعيب عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾(سورة هود، الآية٨٤)

۞ والمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾(سورة المائدة، الآية٧٢)

۞ ومحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ ﴾(سورة الرعد، الآية٣٦)

الصَّلاَةَ، وَتُـؤْتِيَ الزَّكَـاةَ، وَتَصُـومَ رَمَضَـانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْـتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً» فإجابة الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام عن معنى الإسلام بهذه الإجابة توضح أن المراد من الإسلام؛ إنما هو تلك الشريعة المحمدية.

ومن هذا المنطلق نتحدث عن علاقة الإسلام، ونظرته إلى الشرائع السابقة فنقول: إن الإسلام ينظر إلى ما سبقه من رسالات على مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة نزولها وبقائها بين أتباعها على ما هي عليه، من غير تحريف ولا تبديل (أى فترة أصالتها).

والإسلام - فى هذه المرحلة - ينظر إلى الرسالات السابقة بكل الإجلال والاحترام، ويقف منها موقف التصديق، فإن الإسلام يؤكد أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل قد جاء مصدقًا ومؤكدًا لما قبله؛ فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة، والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب.

فالتصديق هو موقف الإسلام فى المرحلة الأولى، قبل التبديل والتحريف الذى أصاب تلك الرسالات.

أما المرحلة الثانية: بعد أن طال عليها الأمد، وحرفت كتبها، وبدلت تعاليمها. فموقف الإسلام فى هذه المرحلة التصحيح والتوضيح والبيان؛ حيث أوضح القرآن أن هذه الكتب السابقة على القرآن (التوراة والإنجيل) التى بأيدى أهل الكتاب ليست هى الكتب المنزلة من عند الله، وإنما دخلها التغيير والتبديل والتحريف.

وخلاصة القول فى هذه المسألة: أن علاقة الإسلام بالشرائع السماوية فى صورتها الأولى (فترة أصالتها) هى علاقة تصديق وتأييد.

وأن علاقته بها فى صورتها الأخيرة (بعد التحريف والتبديل) علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها[1].

(١) منهج الإسلام في تنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، خالد الديب عبد العزيز القاضى، جامعة الأزهر، القاهرة (٢١-٢٣).

معنى تصديق القرآن للكتب السابقة :

أنزل الله القرآن الكريم على النبى ﷺ مقترنًا بالحق فى كل ما جاء به، ومصدقًا لما تقدمه من الكتب الإلهية التى أنزلها الله على الأنبياء السابقين ورقيبًا عليها .

وإذا كان التحريف فى التوراة والإنجيل ثابتًا ثبوتًا حقيقيًا - لا ريب فيه - بنص القرآن من جهة، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى، فما معنى أن القرآن جاء مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية ؟

معنى ذلك أن القرآن جاء مؤيدًا للحق الذى ورد فيها، من عبادة الله وحده، والإيمان برسله، والتصديق بالجزاء، ورعاية الحق والعدل، والتخلق بالأخلاق الصالحة .. وهو فى الوقت ذاته مهيمنا - أى أمينا ومؤتمنا - عليها، ومبينا لما وقع فيها من أخطاء وأغلاط، وتحريف وتصحيف، وتغيير وتبديل.

وإذا انتفت هذه الأخطاء التى أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية، وزوروها على الناس باسم الله، ظهر الحق واستبان، والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾(سورة المائدة، الآية٦٨).

وإقامتها - أى التوراة والإنجيل - لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف(١) .

- ٢ -

موقف الإسلام من الشرك

يقول الدكتور أحمد شلبى: أما عن موقف الإسلام من الشرك وجميع النحل الوضعية الأخرى، والتى شوهت حقيقة الألوهية، وتاهت فى حقيقة الأوهام والخرافات، فإن الإسلام يسارع إلى إقامة الحجة على بطلا ن هذه العقائد، ويعمل على محوها وهدمها، ويبين حقائق الألوهية فى صراحة واضحة: (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ)(سورة الأنفال، الآية٤٢).

(١) العقائد الإسلامية، السيد سابق (١٤٧).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾(سورة الإخلاص).

ويعلن البراءة من كل أنواع الكفر والشرك، والمفاصلة التامة - أى الفصل - بين عقيدة التوحيد وغيرها من العقائد الأخرى فيقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

(سورة الكافرون)

- ٣ -
الأخوة الإنسانية

جعل الدين الإسلامى غير المسلمين شركاء مع المسلمين فى الوطن منذ كانت للإسلام دولة .. دولته الأولى فى المدينة المنورة، ودوله التى توالت أيامها بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحتى يومنا هذا.

ومن حكمة الله - سبحانه وتعالى - فى الاجتماع البشرى: أن يتجاور فيه جماعات من الناس مختلفين فى الألسنة والألوان. قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾(سورة الروم، الآية٢٢).

فالبشر جميعًا إخوة لأب واحد وأم واحدة، وإن تباعد بمعانى هذه الإخوة الإنسانية طول الأمد بين الأصول والفروع[1].

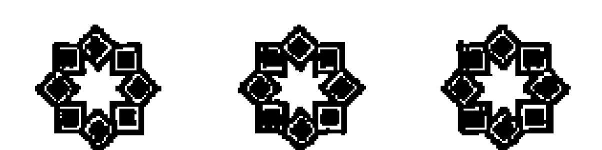
---

(١) محمد سليم العوا: كتاب الأقباط والإسلام، نشر دار الشروق بالقاهرة، ط عام ١٩٨٧م، بتصرف.

ولقد قرر الإسلام هذه الحقيقة في أول نداء إنساني من نوعه، قبل أن تعرف ذلك المنظمات التي تنادي بحقوق الإنسان، وقبل أن تعلنها المنظمات العالمية والهيئات الدولية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(سورة الحجرات، الآية١٣).

ولقد أكد النبي ﷺ هذه الأخوة الإنسانية في خطبة الوداع؛ حيث قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى..»(١).

ومما يؤكد حرص الإسلام على مبدأ (الأخوة الإنسانية بين البشر جميعًا)، تمتع غير المسلمين بحقوقهم وحريتهم في ظل الإسلام على نحو ما وضحناه في هذا الكتاب.



(١) راجع: الشيخ محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة، ١٤١٥هـ، ص٢٢٢.

الفصل الثالث
حقوق وواجبات غير المسلمين فى الإسلام

طبيعة هذا الفصل أن يأتى فى أمرين اثنين لا ثالث لهما:

الأول: حقوق غير المسلمين

الثانى: واجبات غير المسلمين

أولا: حقوق غير المسلمين فى الإسلام:

١ـ حق عدم الإكراه

٢ـ حرية ممارسة الشعائر الدينية

٣ـ حقهم فى التزام أحكام دينهم

٤ـ حرية الجدل والمناقشة

٥ـ حقهم فى تعلم أمور دينهم

٦ـ حق الحماية فى الداخل والخارج

٧ـ حق تولى الوظائف العامة

ثانيا: الواجبات المقابلة للحقوق:

١ـ احترام أحكام الإسلام

٢ـ عدم إيذاء المسلمين

٣ـ مراعاة مشاعر المسلمين

٤ـ أداء التكاليف المالية

وسنلقى الضوء على عناصر هذا الفصل، بشىء من التوضيح فيما يلى:

أولا: حقوق غير المسلمين فى الإسلام

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى اعترف بخصومه، وجعل لهم حقوقاً - دينية وغير دينية - يتمتعون بها، على الرغم من عدم اعترافهم به وبرسوله ﷺ؛ فجاء الإسلام بأول وثيقة تحقق للإنسان إنسانيته، وتمنحه حريته؛ وذلك حينما أقر النبى ﷺ الحرية الدينية فى أول دستور للمدينة، واعترف لليهود بأنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة.

وقد ثبت لأهل الكتاب حقوق تقوم كلها على قاعدة أصلية: أن لهم مثل ما للمسلمين، وعليهم مثل ما على المسلمين إلا ما استثنى بنص أو إجماع، وذلك هو مقتضى الشركة فى الوطن الواحد.

وهذه الحقوق نجملها فى الآتى:

١- عدم إكرَاه أحدٍ منهم على ترك دينه، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام: ولم يحدث فى تاريخ الدولة الإسلامية أن هدم المسلمون كنائس أهل الكتاب، أو حملوهم على الإسلام، أو اضطهدوهم اضطهاداً دينيًا أو سياسيًا، يرغمهم على أن يعتنقوا الإسلام وسيلة للنجاة، ولم ترو كتب التاريخ الإسلامى عن أى شخص يدين بدين إلهى أو وثنى فى الديار الإسلامية، أنه أجبر على الدخول فى الإسلام، وكان من يسلم - فى العصور الإسلامية - ينبغى أن يعلن إسلامه، أمام قاض وشهود ليثبت أنه أسلم حرًا طواعية مختارًا لدين الإسلام(١).

وقد ورد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية، كثير من الآيات والأحاديث التى تنهى عن إكراه أحد على اعتناق الإسلام، فمن أسلم فى صدر الإسلام، أسلم عن رضا واقتناع، ولا شك أن الإسلام أسس على المنطق والحجة، والبرهان والاقتناع، لا على الإجبار والإكراه.

قال العزيز الحكيم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة، الآية٢٥٦).

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفى (١٧).

وقال عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(سورة الكهف، الآية٢٩).

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(سورة يونس، الآية٩٩).

وقد ورد فى السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ، أمر بألا يُجبر أحد من اليهود والنصارى على ترك دينه، فقد كتب ﷺ إلى عامل له فى اليمن: «من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عليها».

وحق غير المسلمين فى عدم الإكراه على اعتناق الإسلام، أساسه قوله تعالى ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾(سورة البقرة، الآية٢٥٦). ففى هذه الآية ينفى المولى - سبحانه وتعالى - أن يكون الإكراه على الإسلام، وسيلة لدخول الناس فى دين الله، أى «لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام؛ فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بيّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهاً مقسورًا.

قيل: نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار يقال له (الحصينى)، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما، فقال للنبى ﷺ: ألا أستكرههم؛ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك»[1].

٢ـ حرية ممارسة الشعائر الدينية:

وهذا الحق ينبع من الحرية الدينية التى كفلها الإسلام لغير المسلمين، فإذا كان الإسلام لم يكره غير المسلمين على اعتناقه، وتركهم أحرارا على دينهم فلا بد من حماية معابدهم، وإتاحة حرية ممارسة شعائرهم فى كنائسهم مهما كانت مخالفة للإسلام، وإلا فلا معنى لعدم إكراههم على الإسلام، بل من حق زوجة المسلم اليهودية ، أو النصرانية أن تذهب إلى الكنيسة أو المعبد، ولا حق لزوجها فى منعها

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٤/١).

من ذلك، ومن ثم فقد حمى الإسلام لغير المسلمين معابدهم، وأتاح لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية في الدولة الإسلامية، والأدلة على ذلك كثيرة من تاريخ المسلمين، ومن واقعهم الحافل بالسماحة والتيسير منها :

❖ أن الرسول ﷺ لم يمنع وفد نصارى نجران من صلاتهم، حين قدموا عليه من اليمن، وعليهم ثياب الحبرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال الرسول لأصحابه: «دعوهم» ودعاهم إلى الإسلام فأبوا، فصالحهم على الجزية، واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا، وأمنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم ..[1].

❖ في خلافة أبي بكر ﷺ عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة، على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يُمنعوا من ضرب نواقيسهم أو إخراج الصلبان في يوم عيدهم[2].

❖ وفي خلافة عمر ﷺ أعطى أهل إيلياء أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانيتهم، ولا يضار أحد منهم .

❖ كذلك رحب القبط في مصر بالفتح الإسلامي، ولقوا من عمرو بن العاص أعظم التسامح لأنه أنقذهم من الاضطهاد الديني، ومن عسف الروم وتنكيلهم بالأقباط المصريين، ولا يزال التاريخ يقص علينا أن عمرًا كتب بيده عهدًا لهم - بعد استيلائه على حصن بابليون - بحماية كنيستهم، ولعن أى مسلم يخرجهم منها، وكتب أمانًا للبطريق بنيامين، ورده إلى كرسيه، بعد أن تغيب عنه ثلاثة عشر عاما، وأمر باستقباله بالحفاوة عندما سار إلى الإسكندرية[3].

❖ ويدل على ذلك أيضا أن معابد النار في القرن العاشر الميلادى - بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون - كانت تملأ العراق وفارس وكرمان وخراسان، حتى أنه لم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبدة النار .

ولا شك أن بقاء معابد النار بهذه الكثرة بعد الفتح الإسلامى، دليل على أن المسلمين لم يجبروا أحدا على اعتناق (الإسلام)، ودليل على أن الذين أسلموا من

---

(١) التسامح في الفكر الإسلامى، د. جعفر عبد السلام (١٨٢).
(٢) مختارات من سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفى (٢٢).
(٣) مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفى، مرجع سابق، (٤٠، ٤١) بتصرف.

الفرس، إنما أسلموا عن رغبة صادقة وحرية فى الاختيار، بعد أن وازنوا بين دينهم القديم وبين الإسلام[1].

٣ـ حقهم فى التزام أحكام دينهم:

ومن حقوق غير المسلمين حريتهم فى فعل ما أباحه لهم دينهم من الأطعمة والأحوال الشخصية والأمور الدينية، ومن ذلك:

(أ) حريتهم فى أكل أو شرب ما أباحه لهم دينهم، وإن كان ذلك محرماً فى الإسلام مثل أكل لحم الخنزير وشرب الخمر.

(ب) ترك لهم الإسلام الحرية فى أمورهم الشخصية من زواج وطلاق يفعلون ما أباحه لهم دينهم.

(ج) ومن ذلك أيضا التحاكم إلى رؤسائهم الدينيين، فيما يخص أحوالهم الشخصية والاجتماعية، ذلك أنه من تتمة الحرية الدينية التى كانت مكفولة لأهل الذمة، من النصارى واليهود وغيرهم أنهم لم يكونوا يتقاضون أمام محاكم الدولة، التى تصدر فى أحكامها عن الشريعة الإسلامية، وإنما كانوا يتقاضون أمام محاكمهم الملية الخاصة بهم كَنَسيّة أو غير كنسيّة، وكان رؤساء تلك المحاكم الملية يقومون فيها مقام كبار القضاة فى محاكم الدولة[2].

٤ ـ حرية الجدل والمناقشة:

أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله وعباده المؤمنين بالإحسان فى معاملة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالتى هى أحسن، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ... ﴾

(سورة النحل، الآية١٢٥)

ويقول: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ .. ﴾(سورة العنكبوت، الآية٤٦).

---

(١) المرجع السابق ص٤٣.

(٢) عالمية الإسلام، د. شقوى ضيف، مرجع سابق (٢٠، ٢١).

قال ابن جرير: أى من احتاج فيهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب.

فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾(سورة طه، الآية٤٤)[1].

ولقد عاش غير المسلمين متمتعين بهذا الحق فى الدولة الإسلامية؛ مما سجله التاريخ على صفحاته بحروف من نور، «فلم يكونوا يعيشون بحرية تامة فى أداء الشعائر التى فرضتها عليهم عقائدهم فحسب، بل كانوا أيضا يعيشون نفس هذه المعيشة فى الدفاع عنها فى مناظراتهم العقيدية للمسلمين، فلقد ازدهرت هذه المناظرات والمجادلات فى العصر الأموى حتى استطاع أحد المسيحيين فى ظل كفالة هذه الحقوق، أن يؤلف كتابًا لإرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين، وكتابًا آخر سماه (محاورة مع مسلم)»[2].

مما سبق يتبين مدى ما أتاحه الإسلام لغير المسلمين من حرية فى الجدال والمناقشة، لدرجة أنهم كانوا يعلمون أبناءهم أسلوب المجادلة والمناظرة.

٥ـ حقهم فى تعلم أمور دينهم:

كذلك من حقوق غير المسلمين حرية تلقى التعليم الدينى، يقول أبو الأعلى المودودى عن هذا الحق: «لهم الحق كله فى أن ينظموا أمور تعليمهم الدينى فى المعاهد العامة فى البلاد، أو فى المعاهد المخصوصة لهم»[3].

ولقد تمتعوا بهذا الحق تاريخيًا فى ظل الدولة الإسلامية، حتى إنه فى القرن الثالث الهجرى وفى ظل الدولة العباسية «ازدهرت مدارسهم ازدهارًا لا مثيل له ...» كذلك كانت لديهم مدارس الديارات، التى ضمت آلافًا من الدارسين والمعلمين[4] وفى الدولة العثمانية تم تطبيق مبدأ الحرية المذهبية، الذى منحته الدولة فى التعامل

(١) كتاب التسامح فى الفكر الإسلامى، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، ط جامعة الأزهر، ص ١٩٩.
(٢) عالمية الإسلام، د. شوقى ضيف، (٣٦).
(٣) نظرية الإسلام وهديه، ص ٣٠٠ بتصرف.
(٤) معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، د. ناريمان عبد الكريم ص ١٧٦ .

مع الطوائف غير المسلمة المقيمة فى الدولة، حيث منحتهم حرية إقامة مدارس خاصة بهم، وسمحت لهم بحرية تدريس ما يرونه من مناهج دون تدخل أو رقابة من الدولة؛ فانتشرت المدارس اليهودية انتشارًا كبيرًا، حتى وصل عددها إلى ٣٠٠ مدرسة يهودية للبنين والبنات.

وكانت مدارس الطوائف الأرثوذكسية تحت حماية الروس، ومدارس الفرنسيين والألمان تحت حماية الأرمن والكاثوليك.

وفى عام ١٩١١م كانت لدى الأجانب بالدولة العثمانية عشر مدارس عالية و٤٦ مدرسة إعدادية و١٤٥٠ مدرسة ابتدائية يدرس فيها ٦١٦٧٨ طالب، وكان للروم اليونانيين ٣٥٠٠ مدرسة، وللأرمن ٢٥٠٠ مدرسة، وجميع هذه المدارس لم يتحقق فيها أى نوع من الرقابة[1].

٦ـ حق الحماية فى الداخل والخارج:

أما الحماية من العدوان الخارجى فيجب لهم ما يجب للمسلمين، ويجب على الحاكم المسلم أن يوفر لهم هذه الحماية ولو كانوا منفردين ببلد ؛ لأن أحكام الإسلام جرت عليهم وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين. بل لقد نص الفقهاء ـ بلسان ابن حزم الظاهرى ـ على أن «من كان فى الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلدنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونا لمن هو فى ذمة الله ورسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة».

ويعلق القرافى ـ من المالكية ـ على هذا النص فيقول: «فعقد يؤدى إلى إتلاف نفوس المسلمين وأموالهم فى سبيل الدفاع عن أهل الكتاب إنه لعظيم».

ولضيق المقام نشير هنا إلى موقف يذكره التاريخ بالجلال والفخر، ألا وهو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية حينما سيطر التتار على الشام، وذهب الإمام ليكلم قائد التتر (قطلو شاه)، فى إطلاق سراح الأسرى، فسمح القائد للشيخ فى إطلاق سراح الأسرى المسلمين، وأبى أن يسمح له بإطلاق سراح أهل الذمة، فقال الشيخ العالم: (لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا،

---

(١) أكمل الدين إحسان: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إستانبول ١٩٩٩م، ص ٥٩٧ بتصرف.

ولا ندع أسيرًا لا من أهل الذمــة ولا من أهل ملتــنا)، فلما رأى إصــراره وتــشدده فى أمر أهل الذمة من اليهود والنصارى أطلقهم له.

وأما الظلم فى العلاقات الداخلية: فقـد تكاثرت على تحريمـه نــصوص القــرآن والسـنة، ونطقــت باسـتنكاره ـ فى خصوص أهـل الذمـة ـ أحاديـث رسـول الله ﷺ والآثار عن الصحابة حتى صرح غير واحد من الفقهاء: بأن قواعد الإســلام تقتضى أن ظلم الذمى أشد إثمًا من ظلم المسلم(١).

وحق الحماية يشمل الدماء والأنفس والأموال والأعراض؛ حتى قال الإمام على ﷺ: «من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا».

وفى الفقه الإسلامى آراء تختلف وتتفق. يتخير منها الناظر ما وافق هذه الأصول فيقبله. ويرد مالا يوافقها فلا يعمله، والأمثلة على ذلك كثيرة.

❖ حرمة الأنفس والأموال:

والأصح حرمة ما لهم ولو لم يكـن متقوّمًا فـى نظـر الإسـلام كالخمـر والخنزيـر. وجواز إقامة دور العبادة التى يتعبدون فيها. وقبـول شـهادتهم إلا فـى الأمـور الدينيـة للمسلمين مـن نحـو الـزواج والطـلاق ومـا يجـرى مجراهمـا، وجـواز أمــان الفــرد منـهم موقوف على إجازة الإمام، فإن لم يجزه وجب عليه رد المؤمن إلى مأمنه.

٧ ـــ حق تولى الوظائف العامة:

ويجب ضمان الحياة الكريمة لهم عند الكبر، بل إن ذلك من فروض الكفايــات: إذا عجز عن القيام به بيت المال وجب على المسلمين كافة، لا يسقط إلا بأدائه.

ومما هو معلوم أن العلماء قد أجازوا لإمام المسلمين، أن يستعين بغير المسلمين - وبخاصة أهل الكتاب - فى بعض الشئون السياسية والحربية، ماداموا أهل ثقـة وأهـل عهد لا يقاتلوننا، ولا يقفوا حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية.

فقـد اصطنع عمر بـن الخطـاب بعض أسـارى قيسـارية كتّابًا لـه، ووظفهــم فــى الدولـة. وإذا كـان قـد رفض أن يوظـف مسيحيًا مـن أهـل الحيرة؛ فإن ذلـك لم يكـن لاختلاف الدين؛ وإنما كان لأنه لم يطمـئن إليـه كمـا اطمــئن إلى غيره، ولا تثــريب عليه فى هذا الرفض؛ فقد كان يرفض تولية المسلم إذا توجس منه ظلمًا للنـاس، أو خيانة للمال.

---

(١) التسامح فى الفكر الإسلامى، نقلا عن: حقوق غير المسلمين، ص ١٠.

ثم اتخذ أبوموسى الأشعرى كاتبًا نصرانيًا[1].

ثم توسع معاوية فى إلحاق النصارى بخدمته، وحاكاه آخرون من البيت الأموى، فكان لمعاوية طبيب نصرانى هو ابن أثال وقدكافأه معاوية بوضع الخراج عنه، وولاه خراج حمص، كما اشتهر عن معاوية أيضًا بأنه اتخذ سرجون النصرانى مستشاره المالى، وكان يوحنا الدمشقى يلى الشئون المالية لابنه يزيد[2].

وقد ظل كتاب الدواوين حتى زمن عبد الملك بن مروان من غير المسلمين، فكان كاتب الخراج فى الشام سوريا، وفى إيران فارسيا، وفى مصر قبطيا، وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة فى مصر من النصارى[3].

ثم استمر هذا التسامح يتمشى مع العصور، فإن (جورجيس بن جبريل) رئيس أطباء جند يسابور عالج الخليفة المنصور، وعرض عليه الخليفة أن يسلم، فرد عليه بقوله: أنا على دين آبائى أموت، وحيث يكون آبائى أحب أن أكون، إما فى الجنة وإما فى جهنم. فلم ينكر المنصور عليه ذلك ولم يبعده عن مكانه[4].

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) أخوان مسيحيان، بلغا منزلة سامية عنده، أحدهما يسمى (سلمَوَيْه) والآخر يدعى (إبراهيم)، وكان سلمويه يشغل منصبًا قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تنفذ إلا بعد توقيعه عليها.

أما إبراهيم فكان حافظًا لخاتم الخليفة، وأمينًا على خزانة بيوت الأموال فى البلاد، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم، أنه عاده فى مرضه الأخير، وغمره الحزن عند وفاته، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر، حيث أقيمت له الطقوس الدينية فى خشوع مهيب[5].

---

(١) عيون الأخبار (٤٣/٢) .
(٢) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف، ص٢٥.
(٣) خطط المقريزى (٩٨/١).
(٤) طبقات الأطباء (١٢٥/١).
(٥) طبقات الأطباء (١٦٤/١)، وانتشار الإسلام (٦٠).

كل ذلك شاهد واضح على أنه لم يغلق أمام أهل الذمة باب من أبواب الأعمال المعيشية لا فى الزراعة والتجارة والصناعة فحسب، بل أيضًا فى دواوين الدولة وشئون الخراج والمال، وكانوا يأخذون من الدولة رواتب تكفل لهم ولأسرهم معيشة طيبة، وكان كبارهم - وخاصة الوزراء - يأخذو ن رواتب كبيرة تتيح لهم حياة مترفة.

هذا، ولم يكن الكتاب من النصارى وحدهم الذين يعملون فى دواوين الدولة، فكان يشاركهم فيها البعض من الديانات الأخرى من الصابئة وغيرهم، فتولى ديوان الرسائل فى بغداد أبو إسحق الصابئ، من منتصف القرن الرابع الهجرى إلى وفاته سنة ٣٨٤ للهجرة(١).

يقول الفيلسوف (داربر) أحد المؤرخين الأمريكان : " إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود وغيرهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرًا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى المناصب المختلفة فى الدولة(٢).

وعمومًا : لم يكن اختلاف الدين مانعا للذميين من أن يوظفوا فى الدولة، والحق جواز تولى القادر منهم الوظائف العامة فى الدولة، إلا ما كان ذا صبغة دينية : كالإمامة ورئاسة الدولة، وقيادة الجيوش فى الجهاد، والولاية على الصدقات ونحوها(٣).

فهل عرفت الدنيا أو وعت ذاكرة التاريخ، مثل هذا الأفق الرحيب فى التسامح، ورعاية حقوق الأقليات غير المسلمة فى مجتمع المسلمين ؟

ثانيا : الواجبات المقابلة للحقوق

وإذا كان الإسلام قد جعل لغير المسلمين حقوقًا، تتعلق بأديانهم ألزم بها أتباعه حتى يأمن غير المسلمين على دينهم وعلى حريتهم، فإنه من العدل أن يقابل هذه الحقوق بعض الواجبات، حتى يعيش الجميع فى أمن وسلام.

(١) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف (٢٦).
(٢) التسامح فى الفكر الإسلامى، د. جعفر عبد السلام، ص ١٣٦ .
(٣) المرجع السابق نقلا عن : الأقباط والإسلام، د. محمد سليم العوا .

وأهم هذه الواجبات:

١ـ احترام أحكام الإسلام:

إن الإسلام وقد كفل لغير المسلمين الحرية الدينية، لابد له من المحافظة على الطابع الإسلامى، ومن ثم يتحتم على غير المسلمين الالتزام بما أقره الإسلام من نظم وأحكام؛ لتنظيم مجتمعه والحفاظ على أمنه وسلامته .

والأحكام التى يلتزم بها غير المسلمين فى الدولة الإسلامية ما يأتى:

١ـ الأحكام المدنية الخاصة بالمعاملات : كالبيع والشراء والرهن .. إلخ .

٢ـ الأحكام الخاصة بالتعدى على الأنفس والأعراض والأموال، والمراد بخضوعهم لأحكام الإسلام فى هذه الأحوال «أن تقام عليهم الحدود فيما يعتقدون تحريمه عليهم دون ما يعتقدون حله، ومما يعتقدون تحريمه الزنا والسرقة والقتل والقذف، فهذه الأمور وأمثالها يجب خضوعهم لأحكام الإسلام فيها»[١] .

وقد ورد فى السنة أن النبى ﷺ أقام عليهم الحدود، فقد روى البخارى عن عبد الله ابن عمر قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له رجلاً منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون فى التوراة؟» .

فقالوا نفضحهم ويجلدون .

قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة»[٢] .

أما أمور دينهم وأحوالهم الشخصية فلا يطبق عليهم فيها أحكام الإسلام.

٢ـ عدم إيذاء المسلمين:

وهذا الواجب يشمل أمورًا ستة وهي:

---

(١) الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام، د. محمد رأفت عثمان، ص١٤٤.

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحدود. باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام (فتح البارى ١٢/١٩٣) .

(أ) ألا يذكروا كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف.

(ب) ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب ولا ازدراء.

(جـ) الا يذكروا دين الإسلام بذم له أو قدح فيه.

(د) ألا يعينوا أهل الحرب ولا يؤووا محدثًا.

(هـ) ألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا نكاح.

(و) ألا يفتنوا مسلمًا عن دينه أو يتعرضوا لما له أو دمه.

٣ــ مراعاة مشاعر المسلمين:

لقد أعطى الإسلام لغير المسلمين حرية ممارسة شعائرهم - كما سبق - ولم يضيق عليهم في شيء يتصل بمقدساتهم وحريتهم الدينية، فالواجب إذن على غير المسلمين مراعاة مشاعر المسلمين وشعائرهم، ومن ثم فمراعاة للموازنة بين استخدام الحق وعدم الاعتداء على حرية الآخرين، فإن «كل ما يراه المسلمون منكرًا وهو مباح عندهم فعليهم إن فعلوه ألا يعلنوا به، ولا يظهروا في صورة المتحدى لجمهور المسلمين؛ حتى تعيش عناصر المجتمع كلها في سلام ووئام»[١].

وفي ذلك يقول العلماء في الخمر والخنزير على سبيل المثال: «إن أهل الذمة يمنعون من إظهار بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين، ومن إدخال ذلك في الأمصار على وجه الشهره والظهور ..». ولكن إذا فعلوه خفية في بيوتهم فلا نتعرض لهم وإذا انفردوا في قرية من قراهم، فهم أحرار يفعلون فيها ما يشاءون[٢].

ولا يجوز لهم أن يسبوا الله ولا رسوله ولا دينه ولا كتابه جهرة، ولا أن يروجوا من الأفكار ما يُنَافِي عقيدة الدولة ما لم يكن ذلك جزءًا من دينهم، كالتثليث والصليب عند النصارى، وعلى أن يقتصروا في ذلك على أبناء ملتهم. ولا يذيعونه في أبناء المسلمين ليفتنوهم عن دينهم[٣].

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، ص٤٦.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٦٢/٢٨).
(٣) التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، ص ١٥٣ .

٤ـ أداء التكاليف المالية:

فيجب عليهم أداء الجزية المفروضة على أهل الذمة، فى نظير عصمة دمائهم وأموالهم وحمايتهم من عدوهم، وتمتعهم بالإقامة فى أرض الإسلام فى أمن ورخاء، وهى ضريبة مخفضة لا يجد من يدفعها كبير عناء فى الحصول عليها، ولا سيما أنها تفرض على الرجال القادرين على الكسب، ولا جزية على النساء والعاجزين والمرضى والمعدمين[١] كما يجب عليهم أداء التكاليف المالية الأخرى من خراج وضرائب، وهم فى تكليفهم بالخراج والضرائب هم والمسلمون سواء، فليس فيها شىء يجب باختلاف الدين. وإنما تجب على أنواع الأموال والتجارات والأراضى المزروعة، دون نظر إلى صاحب أى منها: مسلمًا كان أو غير مسلم[٢].

وواجب المسلمين فى كل دولة إسلامية مراعاة حقوق إخوانهم من غير المسلمين، وعلى الجميع أن يعلموا أن حقوق المواطنين وواجباتهم التى يتبادلونها فريضة محتومة لا ينبغى التغاضى عنها، ولا يجوز أن يحوم حولها إفراط ولا تفريط .. فما من أمة شاع فيها احترام الحقوق وأداء الواجبات إلا استمسك عودها، وقويت شوكتها، وعز أمرها، وعجز عدوها عن النيل منها.



(١) الفقه الواضح (٣/٢٣٥) .

(٢) التسامح فى الفكر الإسلامى، ص ١٥٢ .

الفصل الرابع
التعايش الحضارى مع غير المسلمين

الإسلام هو الدين الوحيد الذى عاش فى دياره كل أصحاب الملل : إلهية ووثنية، مع صيانة معابدهم وأموالهم .. بل كانت لهم محاكم ملية خاصة بهم والإسلام بمبادئه السمحة فتح فى دياره لأهل الذمة جميع وجوه التعايش المادى من زراعة وصناعة وتجارة ... وأثرى بعضهم ثراء واسعا ، وحتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية كانت لا توصد فى وجوههم، ورافق هذا التعايش المادى بين المسلمين وغير المسلمين، تعايش فكرى قويم، نقل فيه الأخيرون إلى المسلمين كنوز العلوم والفلسفة، عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود .. .

ومن تتمة هذا التعايش الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين، مشاركتهم الوجدانية لهم فى أعيادهم، بل ومواساتهم فى أحزانهم ومصائبهم .

إن موقف التشريع الإسلامى فى رعاية حقوق غير المسلمين، هو موقف أملته أصالة هذا التشريع، ونظرته المتسامحة نحوهم ومودته بهم، وهو معاملة المخالف فى العقيدة المعاملة الإنسانية المتحضرة، من منطق أنه بشر محترم يتمتع بحق الكرامة الإنسانية، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (سورة الإسراء ، الآية ٧٠) فكما أن للمسلم حرمة فى ذاته وماله وعرضه، فإن لغير المسلم هذه الحرمة كذلك، ولا يجوز الاعتداء على أى منهما إلا بالحق والعدل .

وفى مجال العقيدة : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(سورة الكافرون، الآية٦).

الفصل الرابع
التعايش الحضارى مع غير المسلمين

تمهيد:

ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين سماحة الإسلام، وهو معاملته لأهل الذمة (اليهود والنصارى) وغيرهم ممن خضعوا لحكم المسلمين، لتظهر لنا أسمى أنواع السماحة فى معاملة خصوم العقيدة وخصوم الدولة .

إن الدولة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، عاشت وتنوعت على أرضها مختلف الطوائف والملل غير الإسلامية، وتمتعت فيها تلك الطوائف بالمعاملة الكريمة، وفقا للمبدأ الإسلامى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (سورة البقرة، الآية٢٥٦) فعاش النصارى واليهود والمجوس والأرمن وكافة الملل والطوائف إلى جانب المسلمين، مستظلين بالحماية والرعاية، مع صيانة معابدهم وأموالهم، وحماية دمائهم وأعراضهم، وحريتهم فى ممارسة شعائرهم الدينية وشئونهم المعيشية، وحقهم فى تولى الوظائف والمناصب العامة، إلا ما غلب عليه الطابع الدينى، كالإمامة وقيادة الجيش والقضاء ... وحقهم فى كفالة الدولة لهم عند العجز والمرض والفقر، وحقهم فى مقاضاة المسلم أيًا كان وضعه فى المجتمع.

والأصل فى هذه الحقوق قوله ﷺ : «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(البخارى)[1].

وقول عمر بن الخطاب ﷺ: «أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم»[2].

---

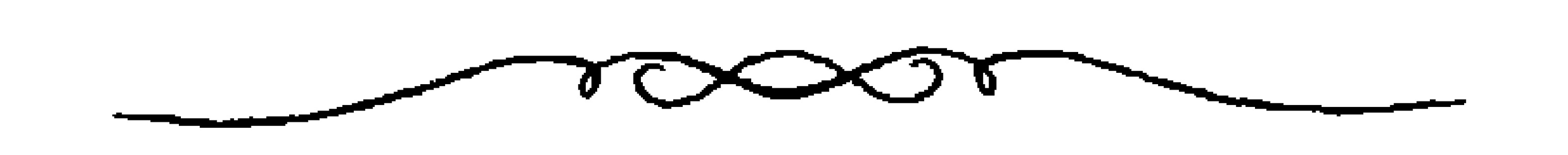
(١) صحيح البخارى، حديث رقم (٢٩٣٠)، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير بغير جرم.

(٢) الخراج للقرشى، ص٧٥.

ولعل من أهم مظاهر السماحة نحوهم، أن فتح فى دياره - لأهل الذمة وغيرهم - جميع وجوه التعايش المادى: من زراعة وصناعة وتجارة وحتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية كانت لا توصد فى وجوههم منذ عهد معاوية وابنه يزيد. وارتفع بعضهم إلى مرتبة الوزارة فى العراق وإيران، وفى عهد الدولتين: الطولونية والفاطمية بمصر.

ورافق هذا التعايش المادى بين المسلمين وغير المسلمين، تعايش فكرى نقل فيه الأخيرون إلى المسلمين كنوز العلوم، فى الفلسفة والكيمياء والرياضيات والطب ...عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود ... وسرعان ما استوعبها المسلمون وبرعوا فيها، مما يصور تعايشا فكريا إلى أبعد الحدود، بفضل سماحة الإسلام الذى تعامل معهم فى كل شىء، على قدم المساواة مع المسلمين.

وبذلك استطاع الإسلام أن يحدث امتزاجا قويا بين المسلمين وغيرهم، فإذا الكثرة الغالبة من شعوب الأمم المفتوحة يعتنقون الإسلام عن رضا وطواعية، وإذا من ظلوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم، بأخوة كريمة تسودها المودة والتعاون والاحترام المتبادل بين الجميع[1].



- ١ -
علاقة المسلمين بغيرهم من الديانات الأخرى

لو نظرنا إلى المجتمع الإسلامى منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، لوجدنا أنه قد منى بالاختلاط بطوائف متعددة، تخالفه فى العقيدة، وتتباين معه فى الأحكام؛ لأنها لا تدين بدين الإسلام.

---

(١) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف، مرجع سابق، ص ٣٠.

إن الإسلام لا يمنع أتباعه من التعايش السلمى، مع مخالفيهم فى الدين والعقيدة؛ لأنه ليس من أصول الإسلام رفض الآخر ومحوه من الوجود، ورفض التعايش السلمى معه.

جاء الإسلام بمبادئ سمحة تنظم هذه العلاقة تنظيماً دقيقاً مثالياً. لم ولن تصل إليه نظم وتشريعات وضعية بشرية، أو إلهية محرفة، أو فلسفة مادية زائفة - فوضع الأسس التى تقوم عليها العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، ولقد أقر الإسلام هذه النظم فى وقت لم يكن يعترف فيه للإنسان بحق فى عيش مشترك مع جماعة مخالفة له فى الدين، ولا يعترف له بحق فى حرية عقيدته ودينه، بل وكرامته الإنسانية.

فما هى هذه النظم التى جاء بها الإسلام؟

قرر الإسلام مبدأ الكرامة الإنسانية لكل بنى آدم، فهم جميعا إخوة فى الإنسانية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(سورة الإسراء، الآية ٧٠) فإن العنصر الإنسانى - الذى هو أساس الكرامة الإنسانية - يظل أساسا للإخاء بين جميع الناس، بصرف النظر عن الديانة أو الجنس أو اللون .. .

ولهذا قام الرسول ﷺ وأصحابه لجنازة يهودى حتى توارت، فلما قيل له: إنها جنازة يهودى، قال «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»(مسلم)[١].

وحتى يكون هذا التكريم حقيقة قائمة لكل بنى آدم، أوجب الله حفظ حقوقه وصيانتها، فلا يجوز إهدار دم الإنسان - أى إنسان - ولا سلب ماله، ولا انتهاك عرضه، ولا مصادرة حريته، ولا إهدار كرامته بأى وجه من الوجوه.

ثم أعلن الإسلام حرية العقيدة، وأرسى مبدأ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾

(سورة البقرة، الآية٢٥٦)

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٥٩٥)، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة.

وأرسل شرارة الحرية الإنسانية التى عبر عنها سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بقوله لعمرو بن العاص وابنه - رضى الله عنهما - «مُذْكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» .

وعندما جاء النبى ﷺ إلى المدينة، وجد بها يهودا توطنوا ومشركين مستقرين، فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية فى المدينة، على أن لهم دينهم وله دينه. ثم قام بوضع أول دستور عالمى يرسى قواعد التعايش السلمى المشترك مع غير المسلمين، وذلك فى الصحيفة التى وضعها ﷺ لتنظيم الحياة فى المدينة المنورة(١).

وسماحة الإسلام فى العلاقة مع غير المسلمين، تتمثل مع شريحتين من شرائح المجتمع، وهما : أهل الكتاب (من اليهود والنصارى)، وغيرهم من الكافرين.

١- علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى: يحرص الإسلام على أن يسود السلام العالمى بين المسلمين وبين الشعوب كلها ، ويحرص بشكل أشد على السلام بين المسلمين وبين من يؤمنون برسالة الله ولا ينكرون الوحى، وإن اختلفت صور إيمانهم عن إيمان المسلمين، ولقد ضرب الرسول ﷺ وصحابته - رضى الله عنهم - أروع الأمثلة للسماحة فى علاقة المسلمين باليهود والنصارى ومن هذه الأمثلة :

❖ ماروى عن أنس ﷺ أن غلامًا من اليهود كان مَرِضَ، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه فقال له أبوه : أطع أبا القاسم، فأسلم فقام النبى ﷺ وهو يقول : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْقَذَهُ بِى مِنَ النَّارِ»

(أبو داود)(٢)

❖ كان النبى ﷺ يحضر ولائم أهل الكتاب، ويغشى مجالسهم، ويواسيهم فى مصابهم، ويعود مرضاهم، ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى

---

(١) انظر مقتطفات من نصوص هذه الصحيفة فى فقه السيرة للشيخ الغزالى (١٩٦، ١٩٧).

(٢) أبو داود، حديث رقم (٢٦٩١)، كتاب الجنائز، باب فى عيادة الذمى.

جماعة يحكمها قانون واحد، وتشغل مكانا مشتركا، فقد كان ﷺ يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعًا، ولم يكن ذلك عجزًا من أصحابه - رضوان الله عليهم - عن إقراضه، فإن بعضهم كان ثريًا، وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله ﷺ بل كان يفعل ذلك تعليمًا للأمة، وتثبيتًا عمليًا لما يدعو إليه من سلام ووئام، وتدليلاً على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم[1].

ولقد فهم الصحابة - رضى الله عنهم - هذا المنهج المتسامح مع اليهود والنصارى فساروا على هذا النهج الحكيم. ففى خلافة أبى بكر الصديق ﷺ عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولاقصرًا يتحصنون فيه، وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان فى يوم عيدهم، ولا يتجسسوا لحساب الكفار على المسلمين.

ونص فى المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذى عجز عن العمل أو أصابته فاقة، أو كان غنيًا فافتقر، وليس ذلك فحسب، بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام، وفى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ المزيد من الصور المشرقة للتسامح الإسلامى مع أهل الكتاب، سيأتى ذكرها فى الفصل الخامس إن شاء الله.

وهذا المسلك المتسامح ليس بمستغرب عن الإسلام، فهو دين الرحمة، ونبيه رسول الرحمة، وكل من يتبع منهجه تقوده الرحمة إلى صراط الله المستقيم، فى كل المجالات وسائر المعاملات.

٢- علاقة المسلمين مع المشركين: الإسلام دين الرحمة الشاملة للعالمين، فلا فرق فى رحمته بين خلق الله، فهو يدعو أتباعه أن يعاملوا كل من لا يعتدى عليهم ولا على دينهم بالبر والقسط، يتضح ذلك من قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الممتحنة، الآية٨)

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، مرجع سابق (٣٦).

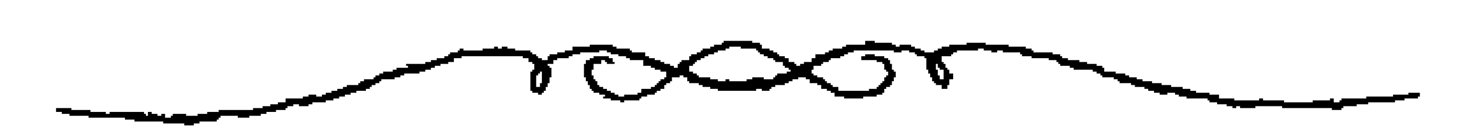
ومن حديث رسول الله ﷺ الذى رواه البخارى عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ - رضى الله عنهما - قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَىَّ أُمِّى وَهْىَ مُشْرِكَةٌ، فِى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ (إِنَّ أُمِّى قَدِمَتْ) وَهْىَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّى؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِى أُمَّكِ»[1].

ومما يدل على العلاقة المتسامحة مع المشركين صلح الحديبية حيث اشترطت قريش على النبى ﷺ شروطًا قاسية، منها أن من جاء من محمد إلى قريش لا ترده إلى محمد، ومن جاء من قريش إلى محمد بغير إذن وليه رده محمد ... إلخ هذه الشروط القاسية، وتبرم بعض الصحابة من هذه الشروط، لكن الرسول ﷺ قبل شروطهم الجائرة لحكمة رآها، وكانت الخيرة فيما اختار الرسول ﷺ.

فعلاقة المسلمين مع الكافرين تتسم فى جوهرها بالسماحة والسلام، طالما لم يحدث منهم اعتداء على العقيدة أو الوطن، كما نصت على ذلك آية الممتحنة.

والصلح مع العدو أصل عام مقرر فى الإسلام، أما الحرب فهى أمر طارئ على أصل العلاقات السلمية مع غير المسلمين، والقرآن الكريم يقرر هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(سورة الأنفال، الآية ٦١).

فسماحة الإسلام مع كل فئات المجتمع - بدرجة من الوضوح - لا يستطيع أحد إنكارها إلا إذا كان مغرضا أو صاحب هوى[2].



(١) صحيح البخارى، حديث رقم (٢٤٢٧)، كتاب الهبة وفضلها، كتاب الهدية للمشركين.
(٢) انظر: التسامح فى الفكر الإسلامى، مرجع سابق، صـ٤٠ ـ ٤٤.

- ٢ -

التعايش المادى مع كل الملل

فرض الإسلام على المسلمين أن يتعايشوا مع كل أصحاب الملل - إلهية وغير إلهية - معيشة كريمة، تقوم على رعايتهم رعاية تامة، وحماية أموالهم ومعابدهم، ومشاركتهم فى أفراحهم ومواساتهم فى أحزانهم.

ونظرة إلى الأعداد الكثيرة فى الديار الإسلامية من النصارى واليهود والمجوس والصابئة، تجعلنا نؤمن بأن المسلمين ظلوا يتعاملون - فى العصور الماضية - معاملة حسنة معهم جميعا، وكفلت لهم محاكم كنسية وغير كنسية تفصل فى خصوماتهم - وأنهم كانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده .

وكانت أبواب جميع الأعمال المعيشية مفتوحة لأهل الذمة (اليهود والنصارى) فى العصور الماضية، وأثرى كثير منهم ثراء واسعا، تمثله المرأة القبطية (مارية)، التى استضافت الخليفة المأمون وحاشيته وجنده، حين مر بضيعتها فى زيارته لمصر . وسيأتى سرد هذه القصة فى حينه إن شاء الله تعالى.

يقول الجاحظ: إن العامة فى العراق كانت تأنس للمسيحيين خاصة، وتؤثرهم على المجوس، ويرونهم أسلم صدورا من المجوس. ويقول: إنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة للنقود، ومنهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم، حتى استقر فى نفوس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيًا. وعلى هذا النحو لم يكن فى الديار الإسلامية عمل يتعيش منه المسلمون، تعيشًا مادّيا إلا أشركوا معهم أهل الذمة. وأشركوهم معهم فى الوظائف، ورفعوهم إلى أعلى المناصب فى دولهم. وكانت وظائفهم تدرّ على أصحابها أموالا هائلة، فضلا عن إنفاق الأموال الطائلة من قبل أثرياء المسلمين فى عمارة معابد ملتهم وعمارة الكنائس والأديرة ... وإطلاق الأموال فى عون فقرائهم، على نحو ما كان يصنع (نصر هرون) - كما سيأتى - بتشجيع من عضد الدولة (البويهى)[1].

(١) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف، مرجع سابق، ص٢٣ ــ ٢٧، بتصرف.

فهل حدث فى التاريخ لحكام غير حكام المسلمين، رفق بمن يعايش رعاياهم من غير أهل ملتهم، مثل هذا الرفق الرائع ؟ ... كلا .

ـ ٣ ـ
مخالطة أهل الذمة ومشاركتهم فى الوظائف والمعاملات العامة

من مبادئ الإسلام السمحة حسن معاملته لأهل الذمة ـ وغيرهم ممن خضعوا لحكم المسلمين ـ ومعايشتهم معيشة حضارية راقية، فإن الإسلام فتح فى دياره لأهل الذمة جميع وجوه التعايش المادى والحضارى، حتى أبواب الدواوين والأعمال الحكومية، كانت لا توصد فى وجوههم منذ عهد معاوية وابنه يزيد .

هذا ، وسأقسم الحديث عن سماحة الإسلام، فى مخالطة أهل الذمة ومشاركتهم فى الوظائف والتعليم والسياسة إلى أربعة جوانب هى :

- ❖ مشاركة أهل الذمة فى وظائف الدولة.
- ❖ التعَايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة.
- ❖ المساواة بين المسلم والذمى فى القضاء والحقوق.
- ❖ المشاركة فى الواجبات الاجتماعية.

ونوضح هذه الجوانب فيما يلى:

١ـ مشاركة أهل الذمة فى وظائف الدولة:

لم يكن اختلاف الدين مانعا للذميين، من أن يوظفوا فى الدولة الإسلامية، بل إنه لم يغلق أمام أهل الذمة باب من أبواب المعيشة، وكانوا يقومون بمهام الوظائف الرسمية في دواوين الدولة وشئون الخراج والمال، حتى وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ... على نحو ما ذكرنا سلفاً في الفصل الثالث.

٢ـ التعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة:

لم يكن اختلاف الدين حائلا بين العلماء والمتعلمين، فإن كثيرًا من أهل الكتاب درسوا على علماء من المسلمين ومنهم :

- حنين بن إسحاق درس على الخليل بن أحمد وعلى سيبويه.
- ويحيى بن عدى بن حميد العالم المنطقى تتلمذ على الفارابى.
- وابن جزلة تلقى على عَلِيّ بن الوليد العالم المعتزلى، ثم أسلم فيما بعد .
- وثابت بن قرة درس على محمد بن موسى .

وطالما درس المسلمون على المسيحيين واليهود فى غير تحرج ولا استعلاء وتاريخ المسلمين حافل بتلقيهم الدروس عن مخالفيهم فى الدين وانتفاعهم بتجاربهم وعلومهم ومؤلفاتهم.

فقد اشتهر عن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى سنة ٨٥ هـ) أنه كان مشتغلاً بالكيمياء بإرشاد راهب مسيحى، إذ يقول الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) : هو أول من ترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء ، وكان بصيرا بهذه العلوم متقنا لها[1].

وفى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ)، ترجم (ماسرجويه) كتاب أهرون فى الطب.

وكانت البصرة والكوفة ملتقى العرب والفرس والمسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وكان المسلمون لا يأنفون أن يأخذوا العلم من هؤلاء .

كذلك نقل المسلمون عن الهنود كثيرا من حكمة الهنود فى عهد المنصور والرشيد ، ونقلوا الرياضيات الهندية والتنجيم، وعرفوا كتاب (السندهند لبرهموكيت). وهو كتاب مهم فى الفلك، إذ نقله إلى اللغة العربية الفزارى، بمعاونة علماء من الهنود فى عصر المنصور. وترجم يعقوب الرهاوى (٦٤٠ ـ ٧٠٨م) كتب

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، نقلاً عن وفيات الأعيان ٢١١/١.

اليونان فى الإلهيات والفلسفة، وهو الذى أفتى بأنه يجوز للقسس المسيحيين أن يقوموا بتعليم أبناء المسلمين عندما سئل عن ذلك(1).

وفى هذا دليل على أن المسلمين كانوا عطاشا إلى العلم، وكانوا لا يرفضون أن يتعلموا من المسيحيين.

وبفضل هذا التعايش الفكرى بين المسلمين والذميين، نقل الأخيرون إلى المسلمين كنوز العلوم والفلسفة عن اليونان وغيرهم من الفرس والهنود .. بعد ترجمتها إلى اللغة العربية، وقد أكب المسلمون على كل ما ترجمه ونقله لهم أهل الذمة من تراث أممهم العلمى، فسرعان ما استوعبوها، وأضافوا إليها إضافات باهرة أتاحت لهم الصدارة فى علوم الكيمياء والرياضيات والطب والفلك، فضلا عن الفلسفة الإسلامية التى قاموا بوضعها وظلوا - وحدهم - يقودون الحضارة العالمية العلمية والفلسفية طوال ستة قرون، وهو دور حضارى عالمى للإسلام، يكتب فيه الغربيون المجلدات الضخام.

وتكاثرت فى هذا الدور المناظرات والمجادلات العقلية بين المسلمين وأهل الذمة من أصحاب النحل المختلفة فى عقائدهم والعقيدة الإسلامية، وفتح لهم المتكلمون أبواب مجالسهم للحوار العقلى فيها؛ مما يصور تعايشًا فكريًا مع غير المسلمين إلى أبعد الحدود، وذلك بفضل سماحة الإسلام الذى تعامل معهم فى كل شىء على قدم المساواة(2).

وبهذه الثلاثة: ترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية، وتفوق العلماء المسلمين على العالم فى شتى الثقافات، وإقامة المناظرات العلمية والمجادلات العقلية بين مختلف الطوائف الدينية والملية، تكتمل أهم عناصر مظاهر التعايش الفكرى بين المسلمين والذميين، والتى سنتكلم عنها فيما يلى:

---

(1) تاريخ الفلسفة فى الإسلام، دى بور ١٣.
(2) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف، مرجع سابق، ص٣٠ ــ ٣٦، بتصرف.

مظاهر التعايش الفكرى بين المسلمين والذميين :

(أ) ترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية:

لم يلبث المسلمون فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى، أن طلبوا من بعض أهل الذمة المتقنين للعربية أن يترجموا لهم كتبًا تحمل بعض العلوم الأجنبية، على نحو ما صنعوا مع خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ هـ.

ومنذ هذا التاريخ عنى المترجمون من أهل الذمة بنقل بعض العلوم والمعارف فى لغاتهم إلى اللغة العربية، استجابة لطلب إخوانهم العرب.

ويلمع بين المترجمين اسم (ابن المقفع) فيترجم عن الفارسية منطق أرسطو وكتاب كليلة ودمنة الهندى الأصل، كما نقل بعض مستعربة الهند كتابًا مشهورًا عندهم فى علم الفلك سمي : السندهند كما سبق ذكره.

وينشط هذا التعايش الفكرى لأهل الذمة مع المسلمين، فى عهد هرون الرشيد ووزرائه البرامكة، إذ أنشأ لترجمة العلوم الأجنبية مؤسسة سماها (دار الحكمة). واختار لرياستها (يوحنا بن ماسويه) وكان طبيبا نسطوريا، ووضع بين يديه كتّابًا مهرة فى الترجمة، وجلب لهم الكتب اليونانية الطبية من أنقرة وعمورية وبلاد الروم، وكلفهم بترجمتها .

وبلغت هذه الموجة الحادة للتعايش الفكرى بين أهل الذمة والمسلمين، أقصى غاياتها فى عهد (المأمون بن الرشيد) إذ حول دار الحكمة لأهل بغداد إلى ما يشبه معهدًا علميا كبيرا يختلفون إليه، وألحق به مرصدًا فلكيًا مشهورًا.

وممن أخذ نجمه يتألق فى التعايش الفكرى السليم بين السريان المسيحيين والمسلمين منذ عهد المأمون (حنين بن إسحاق)، وكان دقيقا فى نقله إلى أبعد حد ؛ مما جعل المأمون يأمر بأن يأخذ - دائمًا - وزن ما يترجمه ذهبًا. ولإعجاب الخليفة المتوكل بروعة ما ينقله إلى العربية من اليونانية؛ أهداه ثلاث دور، وحمل إلى كل دار ما تحتاج إليه من الأثاث والفرش والكتب وأنواع الستائر الأنيقة، وجعل له راتبًا شهرياً خمسة عشر ألف درهم.

وبجانب هذه المدرسة الكبيرة لنقل الفكر اليونانى، كان هناك مترجمون يفوقون الحصر، منهم ثابت بن قرة، الذىكان يعنى بنقل كتب فلاسفة اليونان، وخاتمة النقلة العظام - فى الترجمة - من اليونانية إلى العربية متى بن يونس، وهو من أصل يونانى اشتهر بنقله إلى العربية جميع آثار أرسطو فى المنطق وغير المنطق[1].

ومن هذا يتضح للجميع مدى اهتمام الدين الإسلامى الحنيف بالعلماء والحكماء وسعة صدره للغريب والقريب على السواء، دون تميز ولا تفريق، فالكل يوزن بميزان واحد وهو: ميزان العلم والحكمة.

(ب) تفوق العلماء المسلمين فى مختلف العلوم والفنون:

وبفضل ما وضع أهل الذمة تحت أعين المسلمين من الثقافات المترجمة، وبفضل ما ترجم السريان، وعلّموا المسلمين الفلسفة اليونانية وعلوم الفلك والتنجيم وكتب أبقراط وجالينوس فى الطب وتركيب الأدوية (الصيدلة) ..... إلخ، كل ذلك أتاح للمسلمين قيام حضارة علمية ضخمة، ظلت تقود العالم وحدها، طوال ستة قرون، تتلمذ الغرب فيها على أساتذتها من العلماء المسلمين، وخاصة فى صقلية والأندلس ولمع فى سماء الدنيا علماء متفوقون، ملء سمع الدنيا وبصرها، لايكاد يحصيهم عد لكثرتهم، وهذه نماذج منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- ❖ جابر بن حيان الكيميائى، فى القرن الثانى الهجرى، وله فى الكيمياء أكثر من مائة رسالة، ترجم الغرب كثيرا منها إلى اللاتينية.
- ❖ الخوارزمى - ظهر فى عهد المأمون - وهو مكتشف علم الجبر، ومفتتح سلسلة الرياضيين العالميين.
- ❖ الكندى: أول من تكلم فى الفلسفة الإسلامية، وله كتب ورسائل تعد بالعشرات بل بالمئات، وتناول العلوم الرياضية والفلكية والهندسية والأخلاق والسياسة والمنطق والكلام والجدل والطب، وكان يشيد بالعقل ويقول: إن النفس من نور الله، وهى تتصل بالجسد.

(١) عالمية الإسلام، مرجع سابق (٣٢ ـ ٣٥).

❖ الفارابى : وظهر فى القرن الرابع الهجرى، وهو أكبر فلاسفة الإسلام، وعنده تمتزج الفلسفة اليونانية بالروح الإسلامية والحكمة العقلانية .

❖ ابن رشد : أكبر فلاسفة الإسلام، وله محاولات رائعة فى التوفيق بين الفلسفة والدين الحنيف[1] .

(ج) المناظرات العلمية بين المسلمين وأصحاب النحل المختلفة:

ومن ظواهر هذا التعايش الفكرى الخصب، قيام حركة واسعة من المناظرات والجدل بين المسلمين وأهل الذمة وغيرهم، من أصحاب النحل المختلفة؛ مما يوضح كيف أن أهل الذمة فى العالم الإسلامى، لم يكونوا يعيشون بحرية تامة فى أداء عباداتهم التى فرضتها عليهم عقائدهم فحسب، بل كانوا أيضا يعيشون نفس هذه المعيشة فى الدفاع عنها فى مناظراتهم العقيدية مع المسلمين.

وكانت هذه المناظرات فى عصر بنى أمية تحتدم - فى الشام - بين المسلمين وبعض رهبان الكنائس، ومن أهم النصارى الذين كانوا يشاركون فى هذه المناظرات بالشام (يوحنا الدمشقى)، الذى كان يكتب اليونانية، وله مؤلفات متعددة منها: (محاورة مع مسلم فى ألوهية المسيح) وكتاب (إرشاد النصارى فى جدالهم مع المسلمين).

وكان من أهم ما عمل على إشعال الحركة العلمية - عمومًا - فى العصر العباسى وإمدادها بوقود لا ينفد، قيام مناظرات للعلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء وسراة القوم، وكان الشباب يختلف إلى المساجد التى تقام فيها مناظرات الفقهاء واللغويين والمتكلمين؛ ليتعلم قرع البرهان بالبرهان، وكيف تكون غلبة الخصوم.

وفى هذا العصر (العباسى) يحتدم التعايش الفكرى بين المسلمين وأهل الذمة، وتحتدم المناظرات ويحتدم معها الجدل، فى شئون العقيدة بين علماء الكلام المسلمين وبي ن أصحاب الديانات الأخرى، فكان ليحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد مجلس للمناظرة، يجتمع فيه أهل الكلام من المسلمين وغيرهم من أهل الملل، وكانوا

(١) عالمية الإسلام، مرجع سابق، (٣٥ ــ ٣٦).

يتناظرون فى كثير من مسائل الفلسفة وعلم الكلام، وكان مجلس الخليفة المأمون ساحة كبيرة للحوار والمناظرة.

وكل تلك المناظرات والمحاورات والمجادلات، التى تصور تعايشا فكريا إلى أبعد الحدود، إنما تمت وازدهرت بفضل عالمية الإسلام؛ الذى وسع فى دياره كل الملل والنحل: إلهية وغير إلهية، متعاملاً معها على قدم المساواة[1].

٣ــ المساواة فى الحقوق والواجبات:

لم يفرق الإسلام بين المسلم والذمى فى المعاملات العامة، لأن الجميع سواسية أمام القانون، لا تفضيل ولا محاباة، بل عدل ومساواة، حتى وإن كان أحد الخصمين مسلمًا رفيع المكانة، والآخر يهوديًا أو نصرانيًا.

فقد شكا يهودى عليَّ بن أبى طالب للخليفة عمر، فقال عمر لعليٍّ: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، ففعل عليٌّ، وعلى وجهه علامات التأثر، فلما فصل عمر فى القضية قال لعليٍّ: أكرهت يا عليٌّ أن تساوى خصمك؟

قال: لا، ولكن تألمت لأنك ناديتنى بكنيتى، فلم تسو بيننا - ومعلوم أن الكنية للتعظيم - فخشيت أن يظن اليهودى أن العدل ضاع بين المسلمين.

فهل سجل التاريخ أو عرف الناس سماحة فى العدالة، ودقة فى المساواة تصل إلى هذا الحد؟

وتنازع الأمير العباسى إبراهيم بن المهدى هو وبختيشوع الطبيب بين يدى القاضى، فزرى - أى عاب - إبراهيم على بختيشوع وأغلظ له، فأحفظ ذلك القاضى وأغضبه، فقال القاضى:

يا إبراهيم إذا نازعت أحدًا فى مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك، ولا تشر إليه بيدك، وليكن قصدك أَمَمًا - معتدلاً - وطريقك نهجًا - أى واضحًا - وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، ووفِّ مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم.

(١) بتصرف كثير من عالمية الإسلام، مرجع سابق، (٣٦ ــ ٣٩).

فقال الأمير إبراهيم: أمرت بسَداد، وحضضت على رشاد، ولست بعائد إلى ما يثلم - يضيع - مروءتى عندك، ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار، وقد وهبت حقى من هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك يمحو ذلّتى، ولم يتلف مال أفاد موعظة.

أية عظمة هذه ؟القاضى يسوى بين الأمير المسلم ابن الخليفة المهدى وعم الخليفة المأمون، وبين طبيب نصرانى من موظفى الدولة، والأمير سرعان ما يستجيب لنصح القاضى، ويندم على ما فرط منه من الغلظة والتعالى، ثم يتنازل عن العقار الذى كانا يتنازعان عليه، لا لأنه حق للطبيب، بل ليعالج بمنحه الطبيب زلّته معه[1].

هذا، وسنقف على المزيد من الأحكام والمعاملات التى يتساوى فيها المسلم والذمى، وذلك فى مبحث مستقل، سيأتى فى حينه إن شاء الله.

٤ـ المشاركة فى الواجبات الاجتماعية:

ومن تتمة هذا التعايش المادى بين المسلمين وغيرهم، المشاركة فى الواجبات والعلاقات الاجتماعية، والتى من شأنها تقوية الصلات الإنسانية، والروابط الاجتماعية؛ لأن علاقة المسلمين بغيرهم مبنية على التعارف والتعاون - كما سبق ذكره - لذلك نرى الإسلام أباح للمسلم الزواج من الكتابية، كما أباح للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة: من بيع وشراء وقرض ورهن .. ويأكلوا من طعامهم وذبائحهم، ولهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم وأن يتبادلوا الهدايا والتزاور.. إلخ.

ومن القمة فى هذا التعايش المادى، المشاركة الوجدانية فى الأعياد والأيام الوطنية والمناسبات المختلفة، فإننا نجد المسلمين - كما يحتفلون بأعيادهم مثل عيد رأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، وليلة مولد الرسول ﷺ، وليلة النصف من شعبان، وعيد الفطر وعيد الأضحى - كانوا يحتفلون أيضًا بأعياد المجوس الفرس، ومنها عيد هرمزد إله الخير. وأهم أعيادهم عيد النيروز، وهو عيد الربيع، وكانوا

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفى، مرجع سابق، (٥٠ ـ ٥١).

يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حتى تدخل الشمس برج الحمل[1]. أما أعياد المسيحيين فسنرجئ الحديث عنها إلى الفصل الخاص بأقباط مصر فى ظل الفتح الإسلامى.

- ٤ -

الإسلام يقرر مبدأ التضامن الاجتماعى لأهل الذمة

. وقد عامل الإسلام أهل الذمة بمبدأ التضامن الاجتماعى، فلم يقصر عمر ﷺ العطاء من بيت المال على المسلمين؛ بل فرض للعجزة والمحتاجين من أهل الذمة عطاء يكفيهم ومن يعولون، حينما رأى رجلاً ضريرًا هرمًا من اليهود يسأل الناس، فقال له: ما حملك على هذا؟

قال اليهودى: الحاجة إلى دفع الجزية، وحاجة العيال.

فقال عمر: ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، وضيعناه عند الهرم، ثم أمر برفع الجزية عنه، وأن يعطى وعياله من بيت المال ما يكفيهم مدة إقامتهم بدار الإسلام.

وروى أنه مر وهو فى طريقه إلى الشام براهب نصرانى مريض بالجذام، فأمر بإعطائه من بيت المال ما يكفيه حاجته على الدوام[2].

هذا وغيره كثير من الأحكام التى امتازت بها الشريعة السمحة، التى وضعها القرآن ودرج عليها الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، رائدهم فى ذلك المصلحة العامة وما ترمى إليه الشريعة من أغراض سامية ومقاصد نبيلة، فى معالجة النفوس، وإقرار مبادئ العدل والسماحة والرحمة بين الإنسان وأخيه الإنسان.

جواز الصدقة على الذمى والحربى:

تجوز الصدقة على الذمى والحربى، ويثاب المسلم على ذلك، وقد أثنى الله على قوم فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(سورة

---

(١) بتصرف من: عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف، مرجع سابق، ٢٧، ٢٨.
(٢) الخراج لأبي يوسف (٧١).

الإنسان، الآية٨) والأسير حربي وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الممتحنة، الآية٨).

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت: قدمت علىّ أمى وهى مشركة فقلت: يا رسول الله، إن أمى قدمت علىّ وهى راغبة أفأصلها؟
قال: «نَعَمْ صِلِى أُمَّكِ»(البخارى)[1].

- ٥ -

نماذج من معاملة المسلمين لأهل الكتاب

لقد حفل التاريخ الإسلامى بنماذج رائعة من السلوكيات الفاضلة، التى قام بها أعلام الإسلام وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، وما يأتى ذكره فضلا عما سبق مجرد أمثلة كمظهر من مظاهر التعامل الكريم من قبل المسلمين لأهل الكتاب:

❖ لما جاء وفد نصارى الحبشة، أنزلهم رسول الله فى المسجد، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم، وكان مما قاله يومئذ: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين فأحب أن أكرمهم بنفسى»[2].

ولقد تأسى من بعده ﷺ بأخلاقه الكريمة فى معاملتهم لأهل الكتاب وشعورهم بالقرب منهم، صحابته الكرام وعامة المسلمين.

❖ فى عصر الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ شكا إليه أحد أقباط مصر من أن ابن والى مصر (عمرو بن العاص) قد لطم ابنه لما غلبه فى سباق وقال له: أتسبق ابن الأكرمين، فما كان من عمر إلا أن أمر بحضور والى مصر وابنه إلى مكة فى موسم

(١) الحديث سبق تخريجه كاملاً.
(٢) انظر: مصطفى السباعى، من روائع حضارتنا ٨٢.

الحج، وفى جمع كبير بين الناس أعطى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الدرة للقبطى، وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم اتجه إلى عمرو بن العاص ﷺ وقال له تلك الكلمة المأثورة: «ياعمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»[1].

❖ إن امرأة قبطية شكت عمرو بن العاص - والى مصر - إلى خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب؛ بسبب قراره بضم بيتها إلى المسجد؛ لحاجة المسلمين إلى توسيعه، فاستدعى الخليفة العادل عمرَو بن العاص لشرح القضية فبيَّن له أن ازدياد عدد المصلين فى المسجد يقتضى توسيعه، وأن بيت المرأة ملتصق بالمسجد، فعرض لها الثمن المرتفع لبيتها، لكنها رفضت، فكان القرار بهدم البيت، وحل محله جزء موسع من المسجد، أما الثمن المخصص لها فهو مدخر فى بيت المال، وبوسعها أخذه متى شاءت.

يبدو أن لقرار عمرو بن العاص ما يبرره، فهو مقبول حتى فى عرفنا اليوم، ولكن الخليفة العادل عمر بن الخطاب فضل إصدار أمر بهدم جزء من المسجد الذى حل محل بيت المرأة، كما أمر بإعادة بناء بيتها[2].

❖ المسلمون بعيدون كل البعد عن إكراه غيرهم على الدخول فى الإسلام، وإن كان تحت أيديهم وتصرفهم، فهذا عمر بن الخطاب كان له عبد يقال له (أسبق) شهد لعمر صنيعًا فى هذا الخصوص قال: كنت مملوكًا لعمر بن الخطاب وأنا نصرانى، فكان يعرض علىّ الإسلام ويقول: إنك لو أسلمت ا ستعنت بك على أمانتى، فأبيت ذلك فقال: لا إكراه فى الدين، فلما حضرته الوفاة أعتقنى وأنا نصرانى وقال لى: اذهب حيث شئت[3].

---

(١) التسامح فى الفكر الإسلامى، رابطة الجامعات الإسلامية، العدد (١٣) ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م، ص١٦٥.
(٢) انظر: من روائع حضارتنا، ص٨٢، ٨٣.
(٣) الجصاص، أحكام القرآن ج٣ ص٣٧ .

عمر بن عبد العزيز يأخذ لذمى حقه من أحد الأمراء :

قيل إنه جاء رجل ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله.

قال : وما ذاك ؟

قال الذمى : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى ، وكان العباس جالسًا.

فقال له عمر : يا عباس ما تقول ؟

قال العباس : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لى بها سجلاً.

فقال عمر : ما تقول يا ذمى ؟

قال الذمى : يا أمير المؤمنين، أسألك بما أمر كتاب الله عز وجل.

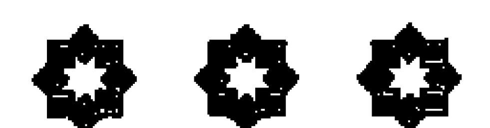
فقال عمر : نعم، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك .

يا عباس، اردد عليه ضيعته ، فردها عليه.

وبهذا نرى أن عمر بن عبد العزيز أنصف رجلاً ذميًا ضعيفًا ليس بمسلم، وأخذ له أرضه من أحد الأمراء الأقوياء ، وردها إليه، أى أخذ للضعيف حقه ممن ظلمه، وهذا هو العدل فى الإسلام(1).

والأخلاق الإسلامية لا تتمثل - فقط - فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب المعاملة الحسنة ، بل تمتد إلى إنصافهم من الظلم ، الذى وقع بين أهل الكتاب بعضهم لبعض .

مثال ذلك : أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ليسلبوا كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيرا إلى أصحابها، بعد أن أثبت الأرثوذكس ما يدل على ملكيتهم لها(2).



(1) عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشى، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، ١٤٢٢هـ، (٢/١١٠).
(2) فتوح الشام للأزدى ٩٧ .

الفصل الخامس

صور من سماحة الإسلام مع غير أهله

إن الإسلام هو الدين العظيم الذى اختاره الله؛ ليكون خاتمة دياناته السماوية؛ لتسعد به البشرية جمعاء عن طريق تعاليمه السمحة، سعادة كبرى فى الدنيا والآخرة .

كان المسلمون إذا فتحوا بلدا من البلدان، رحماء أمناء على النفوس والأرواح والأموال، بعيدين عن الظلم والنهب والسلب، وهذا أثر من آثار الإسلام؛ فقد هذب نفوسهم وغير عاداتهم، ووضع لهم مبادئ تتمثل فيها الإنسانية الرحيمة، والأخلاق الإسلامية الكريمة، فحافظوا على هذه المبادئ، وعملوا بالمثل العليا، التى أمر الله بها رسوله، من العدالة والتسامح والعفو، والوفاء بالعهد، والحلم وسعة الصدر ... فضُرب المثل بالمسلمين بين الأمم المختلفة، والكتاب والمؤرخين والناس أجمعين .

قال جوستاف لوبون: إن القوة لم تكن عاملاً فى نشر القرآن. وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارا فى أديانهم، وإذا كان بعض النصارى قد أسلموا، واتخذوا العربية لغة لهم؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل، الذى لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى، فقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم، وحفظ الأمن بينهم.

والحق .. أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب[1]

والفضل ما شهدت به الأعداء .

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٤٥.

الفصل الخامس

صور من سماحة الإسلام مع غير أهله

ما من شك فى أن الإسلام دين السماحة والرحمة والإخاء والإنسانية، يدعو إلى تبادل المودة والتعاون وتقوية الصلات، مع جميع بنى الإنسان - كائناً من كان - بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه. فالعالم بأسره لم يعرف السماحة إلا من خلال الإسلام، ومن أشهر ميادين سماحة الإسلام معاملته للنصارى واليهود وغيرهم ممن خضعوا الحكم المسلمين، وممن لم يفتح المسلمون ديارهم.

من ذلك نتبين أسمى أنواع السماحة فى معاملة خصوم العقيدة وخصوم الدولة؛ إذ كانت معاملات الخصوم - ولا تزال - أدق الموازين وأعدلها فى الحكم على الأفراد والجماعات والقوانين .

إن التسامح تجاه غير المسلمين، لم يكن قول فقيه أو وليد صدفة : وإنما كان تشريعًا إسلاميا، فرضته نصوص محكمة فى قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الممتحنة، الآية٨).

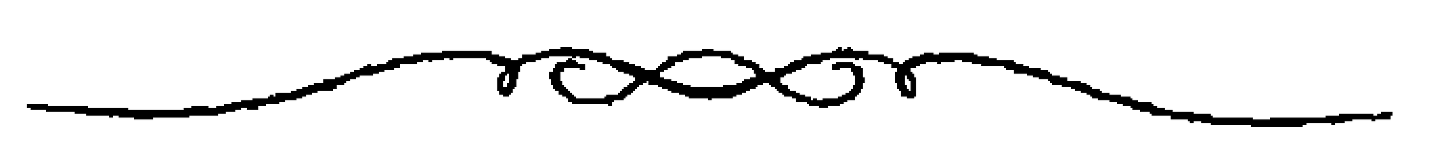
وقام على تطبيقه نظام الدولة، التى طبقت الإسلام فى صورته النموذجية، على منهج السياسة التى وضعها الرسول ﷺ ونفّذها الراشدون من بعده، والتى انطوت على المثل الآتية:

- ❖ الرفق بهم والإحسان إليهم.
- ❖ الوفاء لهم بعقد الذمة معهم.
- ❖ التكليف بقدر الاستطاعة فى الواجبات الاجتماعية.

❖ التيسير والتخفيف عليهم فى الضرائب المالية.

❖ وعدم فرض ضرائب على النساء والصبيان والرهبان المنقطعين للعبادة.

وفى السطور التالية نلقى الضوء على سماحة الإسلام مع غير المسلمين، فى الدولة الإسلامية عبر التاريخ فى هذه السطور المشرقة.



- ١ -

الدعوة إلى التسامح فى القرآن

حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح، فلم يمنع المسلمين من البر بغير المسلمين، ما داموا فى سلم مع المسلمين وحسن صلة :

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾(سورة الممتحنة،٨،٩).

وأمر الإسلام بالرفق فى الدعوة إليه، وأمر بمناقشة المخالفين بالحسنى.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾(سورة النحل، الآية ١٢٥).

وقال: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(سورة العنكبوت، الآية ٤٦).

وقـــال تعـــالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾(سورة الغاشية، الآيتين ٢١، ٢٢).

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾(سورة الإسراء، الآية٥٤).

وأمر الله النبى ﷺ أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى به، وهذه سماحة ـ يحمد عليها الإسلام ـ ما بعدها سماحة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية٦)

وأمر الله المسلمين بأن يوفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين. فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾(سورة الإسراء، الآية٣٤).

وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(سورة التوبة، الآية٤).

ـ ٢ ـ
الرسول المثل الأعلى فى التسامح

وحض النبى على التسامح ـ مع غير المسلمين ـ وحببه إلى المسلمين بقوله وفعله. قال ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

وأمر بألا يجبر أحد من النصارى أو اليهود على ترك دينه، فقد كتب ﷺ إلى عامل له فى اليمن[2]: «من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها».

(١) انظر: السنن الكبرى، البيهقى، جـ٥، ص٢٠٥.
(٢) هو معاذ بن جبل، والحديث سبق تخريجه.

وأظهر النبى ﷺ والمسلمون من بعده، سماحة سمْحة فيما عقدوا من صلح مع البلاد التى فتحوها. وسيأتى ذكر ذلك تفصيلا وتكرارًا إن شاء الله تعالى.

وعقد النبى معاهدة مع قبيلة (تغلب) سنة ٩ هـ - وكان الإسلام قد قوى ودانت به العرب - أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم.

وصالح نصارى نجران وتركهم أحرارا فى دينهم.

ووجه عما له إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته

وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعا فى بلاد العرب.

وكان المجوس منبثين فى بقاع شتى من جزيرة العرب، منهم مجوس نجران، وهجر، وعمان، والبحرين، وهؤلاء جميعا بقوا على دينهم ودفعوا الجزية[1].

موادعة النبى اليهود :

لقد كان العمل البارع حقا، الذى بلغ الغاية فى الحكمة والتدبير والسياسة. ما قام به الرسول ﷺ - حين نزل المدينة بعد الهجرة مباشرة - من موادعة اليهود ومحالفتهم، فقد كتب بين المهاجرين والأنصار كتابا، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم.

هذه الوثيقة التى وضعها نبينا محمد ﷺ، منذ أكثر من أربعة عشر قرنا - وهى وثيقة جديرة بالإعجاب حقا - قرر فيها حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرية الرأى، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وبذلك سبق النبى ﷺ إلى تقرير حقوق الإنسان من هذا الزمن البعيد، وقرر فيها أيضا تحريم الجريمة والإثم والغدر والخديعة.

وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرمًا آمنًا، وأصبح كل من المسلمين واليهود فى أمن من جانب الآخر، وأصبح اليهود ملزمين بمعاونة المسلمين، إذا ما داهم المدينة عدو، وبعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم ضدهم.

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام، مرجع سابق صـ ٣١-٣٢ .

ولقد وفى النبى والمسلمون بكل الالتزامات التى أوجبتها هذه الوثيقة عليهم، على حين لم يف بما فيها اليهود، ولما عادوا إلى طبيعتهم من الدس والوقيعة والخداع ـ فحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج، وهموا بقتل النبى، واستباحوا حرمات المسلمين ـ كانت عاقبة أمرهم خسرا[1].

نماذج من سماحته ﷺ

كان الرسول ﷺ النموذج الأمثل، والأسوة الحسنة للبشرية جمعاء فى سماحة النفس ولين الجانب، ورقة القلب، وبحسبه شرفا أن الله وصفه باسمين من أسمائه فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية١٢٨) وإن سماحة الرسول وسماحة الإسلام تتجلى فى الموقف المهتاج، الذى تطمئن فيه النفوس إلى الانتقام؛ فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض، فتقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم وتسخرهم فى أشق الأعمال. أما الرسول ﷺ فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة؛ وذلك بأنه وزع الأسرى السبعين على أصحابه، وأمرهم أ ن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم فى طعامهم وشرابهم ...، ثم استشار أصحابه فى شأنهم، فأشير عليه بقتلهم، وأشير عليه بفدائهم فوافق على الفداء، وجعل فداء الذين يكتبون أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة، وأشير عليه أن يمثل بسهيل بن عمرو ـ أحد المحرضين على محاربة المسلمين ـ بأن ينزع ثنيتيه السفليين، فلا يستطيع الخطابة فرفض النبى وقال: «لا أمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبيًا».

وكذلك أطلق أسرى بنى المصطلق.

ومنع المسلمين فى غزوة خيبر ـ بلد اليهود الذين نكثوا عهدهم مع المسلمين وحرضوا العرب على غزوهم وانضموا إليهم ـ من أن يدخلوا بيتا من بيوت اليهود إلا بإذنه، ومن أن يضربوا نساء اليهود، أو يعتدوا على ثمراتهم وأموالهم.

---

(١) بتصرف من السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ج٢ ص ٥٣ ــ ٥٦، د/محمد أبو شهبة.

وفى غزوة أحد شج وجهه وكسرت رباعيته .. فقال له أحد أصحابه: لو دعوت عليهم؟ فقال: إنى لم أبعث لعانا، ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون[1].

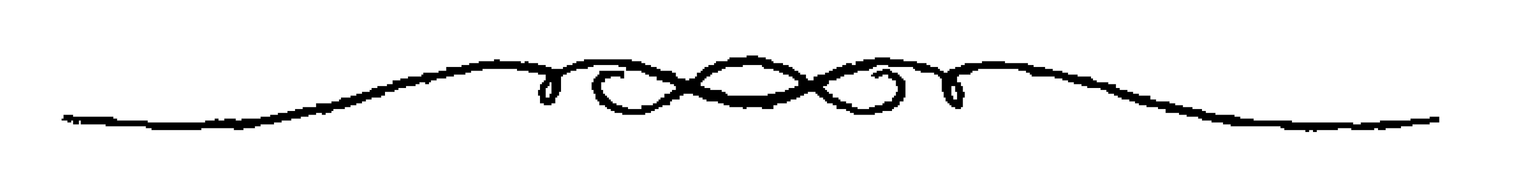
وسبقت الإشارة إلى أن الإسلام أباح زيارتهم وعيادة مرضاهم، وتقديم الهدايا لهم، ومبادلتهم البيع والشراء، ونحو ذلك من المعاملات، ومن الثابت فى السنة الصحيحة «أن الرسول ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى دين له عليه».

(البخارى)

قمة التسامح:

وقد كان من إحسان النبى إلى اليهود عامة، ومن سماحته مع يهود خيبر بالذات. أنه كان من بين ما غنم المسلمون منهم عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ مثل ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا ـ كذلك ـ صحف التوراة[2].

وياله من موقف جليل لا يتخذه غير المصطفى ﷺ وغير خلفائه وحاملى المشعل من بعده. ولا عجب فقد بلغ الرسول ﷺ فى التسامح مدى بعيدًا، لم يبلغه بشر سواه.



ـ ٣ ـ

قطوف من سماحة الخلفاء

واقتدى الخلفاء الراشدون بالرسول ﷺ، بل والمسلمون من بعدهم فى فتوحاتهم وانتصاراتهم عبر العصور المختلفة، ومن شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه، بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة، لكن المسلمين كانوا فى معاهداتهم

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٧ـ ٣٧٢) .
(٢) حياة محمد (٣٧٧) .

مع المغلوبين كراما؛ فأقروهم على عقائدهم وشعائرهم الدينية، وأوصوا برعايتهم والمحافظة على أموالهم.

(أ) فى عهد أبى بكر الصديق ﷺ:

أوصى أبو بكر الصديق أسامة بن زيد لما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم، وبالرحمة فى الحرب، وبالمحافظة على أموال الناس، وبترك الرهبان أحرارا فى ديارهم وصوامعهم، وقال له: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له

وفى خلافته عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً يتحصنون فيه، وعلى ألا يُمنعوا من ضرب نواقيسهم، أو إخراج الصلبان فى يوم عيدهم، وعلى ألا يُعينوا كافرا على مسلم، ولا يتجسسوا للكفار على المسلمين. ونص فى المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذى عجز عن العمل، أو أصابته آفة، أو كان غنيا فافتقر، وليس ذلك فحسب بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام[1].

(ب) فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ:

وكان عمر بن الخطاب - على شدته بالمسلمين - رقيقا بأهل الكتاب؛ فقد نصح سعد بن أبى وقاص لما أرسله إلى حرب الفرس بأن يبعد معسكره عن قُرى الصلح والذمة، وألا يسمح لأحد من أصحابه بدخولها، إلا إذا كان على ثقة من دينه وحسن خلقه، وأوصاه ألا يأخذ من أهلها شيئا، لأن لهم حرمة وذمة يجب على المسلمين الوفاء بها، وحذره من أن تضطره حرب أعدائه إلى ظلم الذين صالحوه.

ويكفينا من هذه الوصية الجامعة، أن عمر يأمر قائدهُ بألا يجعل بلاد الذميين ميدانا لحربه، حتى لا يصابوا بشرور الحرب، ونحن نرى فى العصر الحاضر أن الدول

(١) الناس بخير ما تناصحوا، عبد الحميد كشك، مرجع سابق، صـ ٣٢-٣٣.

تتحارب في غير أوطانها، وتنزل أفدح الأضرار بالمسلمين وغيرهم ممن لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل[1].

وأوصى أبا عبيدة بن الجراح بقوله: (وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها، ووفّ لهم بشرطهم الذى شُرِط لهم فى جميع ما أعطيتهم). فحقق أبو عبيدة ما أراد عمر، وعاهد أهل الشام معاهدة سمحة.

وقد أعطى عمر أهل (إيلياء) أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانيتهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا أمانهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

وفى عهده عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق على الأمان، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، ولا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء المؤمنين[2].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ بالشام، وقد حانت الصلاة وهو فى كنيسة القيامة، فطلب البطريق من عمر أن يصلى بها، وهمّ أن يفعل، ثم اعتذر بأنه يخشى أن يصلى بالكنيسة؛ فيدعى المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى. وكتب للمسلمين كتابا يوصيهم فيه، بألا يصلوا على الدرجة التى صلى عليها إلا واحدا واحدا، غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين[3].

---

(١) من ذلك الحرب التى دارت فى بلادنا: (موقعة العلمين) بين الألمان والإنجليز، ولا تزال دماء شعبنا فيها تنزف من جراء ألغامها.

(٢) مختارات من سماحة الإسلام، د/ محمد أحمد الحوفى، مرجع سابق، ص٢٢.

(٣) تاريخ الطبرى (١٦٧/٤).

إن هذه ليست سماحة فحسب، وإنما هي سماحة مضاعفة تتخطى الحاضر إلى المستقبل، سماحة مضاعفة تنبع من نفس طاهرة، وتعتمد على بصيرة نفاذة بعيدة المرمى، سماحة مضاعفة؛ لأن صاحبها لا يعتمد على سماحته وحده، ولا على تحلله من التبعة وحده، إنما يريد ممن يجيئون بعده - طال الزمن أو قصر - أن يكونوا سمحاء مثله، ويريد أن يتحلل من تبعة يومه وغده، وإن لم يكن له في المخالفة ضلع .

وبينما هو يسير بالشام لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون بالسيوف والرّيحان أمامه، كما تعودوا أن يفعلوا في الاحتفال بالعظماء، فقال: «ردوهم وامنعوهم»؛ لأنه كان يكره الأبهة ومظاهر الملك.

فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا أمير المؤمنين، هذه عادتهم، وإنك إن تمنعهم يروا أن في نفسك نقضا لعهدهم .

فقال عمر: «دعوهم. عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة» .

أعرفت لماذا استجاب عمر لرأى أبي عبيدة ؟

لقد خشي أن يظنوا أنه مبغض لهم، عازم على نقض عهده معهم، وبحسبه من السماحة أن احتمال هذا الظن وحده جعله يغير من عادته، فرضي أن يلعبوا أمامه بالسيوف والريحان[1] .

واشتهر عنه أنه كان ينصف من يشكو إليه من النصارى واليهود، فقد علم أن الوليد بن عقبة - واليه على بني تغلب النصارى - قد توعدهم، فخشي أن يوقع بهم شراً، فعزله وولى غيره .

ولم ينس عمر واجبه في رعاية أهل الكتاب، في وصيته لخليفته - وهو يجود بروحه - لأنه يعلم أنهم بعض شعبه، فهو مسئول عنهم أمام الله، فقد أوصى خليفته بأن يفي بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، فلا يجعل ديارهم ميدانا للحرب، وألا يكلفهم فوق طاقتهم .

(١) مختارات من سماحة الإسلام ٣٧ .

وكذلك كان ابنه (عبد الله) رحيما سمحا مع أهل الذمـة، حـدث مجاهـد قـال: كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شـاة، فقـال : يـا غـلام إذا سـلخت الـشاة فابدأ بجارنا اليهودى، قال ذلك مرارًا .

فقال له : لم تقول هذا ؟

فقال : إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

فعبد الله بن عمر يريد من غلامه أن يعطي جاره اليهودى أول الناس جميعـا، رعاية لحق الجار بصرف النظر عن دينه .

(ج) وكان عثمان بن عفان يعطف على شاعر نصرانى هو أبو زبيد[1].

(د) ورأى عليّ بن أبى طالب ﷺ - وهو خليفة - درعه على رجل غير مسلم، فشكاه إلى القاضى شريح، فسأل شريح الخصمين :

قال الرجل : الدرع درعي، وما أمير المؤمنين بكاذب والتفت شريح إلى أمير المؤمنين وسأله : ألك بينة (شهود) ؟

فضحك أمير المؤمنين وقال : أصاب شريح، مالى بينة .

فقضى شريح بالدرع للرجل. فأخذ درعه ومضى .

ثم عاد الرجل نفسه يقول : أما أنا فأشهد أنها أحكام أنبياء !

أمير المؤمنين يـدنينى إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. الدرع درعَكَ يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى (صفين) فأخرجت الدرع من بعيرك الأورق.

قال على : أما وقد أسلمت فالدرع لك[2].

(هـ) وعندما تولى الخليفة العادل(عمر بن عبد العزيـز) الخلافـة، شـهد مجتمع الإسلام فى أيامه إخاء وثيق التراحم والتواصل وأخـذ كـل ذى حـق حقـه،

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام عن الأغانى (١٩/١٠٢) .
(٢) الشريعة الإسلامية، عبد الحليم الجندى، دار المعارف، ص٨.

وعمل على وحدة كيان الأمة، ولم يقف تصور (عمر بن عبد العزيز) لوحدة الأمة عند هذه الحدود الأرضية ـ التى تحدها مع جيرانها من الدول الأخرى ـ بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى الاهتمام بالأقليات غير المسلمة، فأكّد دَمجها فى جسم المجتمع المسلم، وصان لها كل حقوقها وحرياتها .

ولقد كتب رسالة أرسلها إلى أحد ولاته بشأن بعض الخوارج يقول فيها :(إن ساروا فى الأرض دون إساءة لأهل الذمة، وللأمة، فدعهم ..) .

وفى كتب كثيرة يبعثها ـ رضى الله عنه ـ لولاته فى الأمصار ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة إذ كانوا إلى يوم استخلافه ـ رضى الله عنه ـ يلقون الكثير من العنت. ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الإسلام لقاء توفير الأمن لهم.

وإن موقفه من قضية (كنيسة يوحنا) بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الأمة كأمة، بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها. كان الوليد بن عبد الملك قد هدم جزءًا كبيرًا من كنيسة يوحنا ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد. وحين ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة . شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم.

ترى ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجداً. وأن أقصى ما يستطيع أن يفعله حاكم عادل فى مثل هذا الموقف، هو أن يعطى تعويضاً سخياً أو أرضاً بديلة، لكن (ابن عبد العزيز) يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا الوسطية.

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد، وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة .. !!

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره، ولكن أمير المؤمنين أصدر أمرا جديدًا حدد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم .. !!

ولم يجد العلماء المسلمون سبيلا لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق؛ ويعقدوا معهم اتفاقًا يرضونه، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم. ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق. فيحمد الله عليه، ثم يقره ويرضاه ..!!(١).

- ٤ -

فى الفتوحات الإسلامية

فإذا ما سايرنا الفتوحات الإسلامية بعد ذلك، وجدنا الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين؛ لتنجو من عسف الحكام المستبدين، وتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية، ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أمّلته، فسرعان ما دان أكثرهم بالإسلام عن رغبة واختيار، وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة موئلا للإسلام، وأهلها دعاته وحملة لوائه .

فى فتح مكة

كان سبب فتح مكة أن قريشا نقضت عهدها الذى أبرمته مع الرسول فى الحديبية مستغلة سماحة الإسلام وإيثاره السلم، فساعدت حلفاءها من بنى بكر على حلفاء النبى من خزاعة، وأمدت قريش حلفاءها البكريين بالسلاح والرجال، حتى التجأ الخزاعيون إلى الحرم فقاتلوهم فيه.

وكان من الطبيعى أن تستنصر خزاعة بحلفائها المسلمين، وكان من الطبيعى أيضا أن يناصر النبى حلفاءه من خزاعة، تحقيقا للمعاهدة والحلف وانتصافا للمظلوم، وصيانة لسمعة المسلمين ووفائهم بالعهود، فتجهز المسلمون لفتح مكة ... وسار الجيش الإسلامى حتى وصل إلى مشارف مكة، عندئذ أوصاهم النبى ﷺ أن يكفوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

ودخل رسول الله مكة وهو راكب ناقته، ومطأطئ رأسه، حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله، تواضعا لله وشكرًا. ثم قصد الكعبة، وكان عليها ثلثمائة

(١) الدولة فى الإسلام، خالد محمد خالد (١٤٩-١٥٠).

وستون صنمًا، فصار يطعنها بعود في يده، وهو يقول: «جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»، فجعلت الأصنام تتهاوى وتسقط إلى غير رجعة.

ووقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة، وقد تكاثر الناس في المسجد وأوجس المشركون خيفة، وكادت تغص حلوقهم بقلوبهم من شدة الخوف، وصارت أبصارهم مشدودة إلى الرسول، ولكن المظلوم المنتصر أبى إلا أن يضرب مثلاً نادرًا في العفو، فقام خطيبًا في أهل مكة وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

العظيم من يرحم الضعفاء:

وإن لنا هنا لوقفة، مع حسن صنيع صاحب القلب الكبير، وصاحب الخلق العظيم، وبالمؤمنين رءوف رحيم محمد ﷺ. لقد ضرب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها، وللأجيال المتعاقبة مثلاً رائعًا في البر والرحمة، والعدل والوفاء وسمو النفس، لم تعرفه الدنيا كلها ولن تعرفه في تاريخها الطويل. لقد تسامح الرسول ﷺ مع قريش بعد أن استسلم أهل مكة لجيشه، وهم في قبضة يده، وتحت تصرفه؛ وعدّوا بذلك أسرى حرب يسترقون ويفعل بهم ما يشاء، غير أنه عفا عنهم جميعا ورد إليهم حرياتهم، وقال: من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

ألا ما أجمل العفو عند المقدرة، وما أعظم النفوس التي تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام، بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة، ولكن تعفو وتصفح.

والعفو عن من؟ عن قوم طالما عذبوه وأصحابه، وهموا بقتله مرارًا، وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهليهم وأموالهم، ولم ينفكوا عن محاربته والكيد له، وتفننوا في ذلك كل الأفانين.

في فتوحات الشام

عندما فتح عمر بن الخطاب الشام صالح أهل (إيلياء) وأمّن أهلها على أنفسهم. وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وأعطاهم عهدا بذلك، وهو المعروف بالعهدة العمرية، وقد أوردها (محمد بن جرير الطبرى) فى تاريخه، والتى سبق ذكرها.

ومما ينبغى ملاحظته أن معاملة المسلمين الكريمة لأهل الكتاب ـ على نحو ما جاء فى العهدة العمرية ـ جعلت كثيرًا منهم يرحبون بالفتوحات الإسلامية ويعتبرونها مخرجًا لهم من الظلم والاستبداد من قبل أبناء دينهم، ويفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين، بل بعضهم اعتنق الإسلام، والشواهد التاريخية التالية تؤكد ذلك:

❖ لما بلغ الجيش الإسلامي وادى الأردن، كتب الأهالى المسيحيون إلى المسلمين يقولون: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على منازلنا(١).

❖ وأغلق سكان حمص أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل، وأعلموا المسلمين أن ولا يتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الرومان وتعسفهم(٢).

❖ وكانت فى الشام قبائل عربية دانت بالمسيحية زمنا طويلا، فلما بدأ الإسلام يصطرع مع الروم، سارع بعضها إلى اعتناق الإسلام، والانضمام إلى المسلمين، مثل بنى غسان(٣).

في فتح فارس

وكذلك صنعت بعض القبائل العربية التى كانت موالية للفرس، فقد وفد على قائد المسلمين بعد موقعة القادسية سنة ١٤هـ كثير من العرب المسيحيين المقيمين على ضفاف الفرات؛ وأسلموا كما أسلم إخوان لهم من قبل.

(١) فتوح الشام للأزدى ٩٧.
(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ١٣٧.
(٣) مختارات من سماحة الإسلام، ٣٩.

وفى موقعة الجسر سنة ١٣هـ كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة، وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسى؛ وإذا بزعيم مسيحى من قبيلة طيئ ينضم إلى المثنى القائد المسلم، ويساعده فى النجاة والارتداد المنظم. ثم لما استرد المسلمون قواهم وهجموا، تدفقت عليهم من كل فج جموع من العرب، منها قبيلة بنى النمر النصرانية التى كانت تقيم داخل النفوذ البيزنطى، وهكذا تتكرر الأمثال .

ولما تم للمسلمين فتح بلاد الفرس، لم يلقوا من الشعب مقاومة عنيفة؛ لأن حكامه كانوا قد استبدوا به وأعنتوه، لأنهم كانوا يناصرون ديانة زرادشت، ولما صارت الزراد شتية دين الدولة علا مكان كهنتها، واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد الفرق الدينية الأخرى، وكانت كثيرة .

على أن المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم، لم يسلموا من هذا الاضطهاد . ثم إن الشعب كان ينوء بالضرائب الباهظة، والنظام الطبقى الجائر والحكم الفردى الفاسد، ولهذا لم يكد يتم للمسلمين النصر حتى تنفس الفرس الصعداء، ورحبوا بهم، حبًا فى الخلاص من ظلم الحكام المستبدين، ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية، وأملا فى تمتعهم بالحرية الدينية .

ولم يخب أمل الفرس فى عدالة المسلمين وسماحتهم؛ لأنهم - أى المسلمون - عاملوا بالتسامح من بقى من الفرس على دينه، وكفلوا لهم الحرية الدينية فى عبادتهم ومعابدهم .

يدل على ذلك أن أحد قواد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ)، أمر بجلد إمام ومؤذن؛ لأنهما اشتركا فى هدم معبد من معابد المجوس، لتستخدم أحجاره فى بناء مسجد مكانه[١] .

فى فتح مصر

وكذلك رحب القبط بالفتح الإسلامى، ولقوا من عمرو بن العاص أعظم التسامح؛ لأنه أنقذهم من الاضطهاد الدينى، ومن عسف الروم وتنكيلهم بمخالفيهم

(١) مختارات من سماحة الإسلام (٣٩-٤٢) .

فى المذاهب. فقد قست فى التنكيل بهم قسوة لم ينسها أعقابهم حتى اليوم، إذ كان بعضهم يعذب ثم يلقى فى اليم، وقتل منهم نحو مائتى ألف فى مدينة الإسكندرية بأمر من الإمبراطور جستنيان .

ويذكر التاريخ أن اضطهاد جستنيان وخلفائه لقبط مصر حمل كثيرا منهم على الاتجاه إلى الصحراء؛ للاحتماء بها هربًا من التعذيب، كما تتبع كثيرا منهم أثناء فرارهم إلى المنفى، فرارا من التنكيل، واضطر عدد كبير منهم إلى إخفاء عقيدتهم الحقيقية، فليس عجبًا أن يرحبوا بعمرو بن العاص، وليس عجيبا أن يحقق لهم الحرية الدينية التى كانوا يبتغونها، نعم إن عمرًا كفل للقبط حريتهم الدينية، ولم يحدث فى عهده ولا من بعده أن ضغط المسلمون على واحد منهم؛ ليرتد عن دينه، بل إن بعضهم أسلم قبل أن يتم الفتح؛ لما رآه من سماحة المسلمين الفاتحين مع مخالفيهم فى العقيدة .

ولا يزال التاريخ يقص علينا أن عمرو بن العاص كتب بيده عهدا لهم - بعد استيلائه على حصن بابليون - بحماية كنيستهم، بل إنه لعن أى مسلم يخرجهم منها .

ولم يفرق المسلمون - فى مصر - بين المذاهب المسيحية (الملكانية واليعاقبة)، بل سووا بينهم، وأظلوهم بعدلهم، وكانوا يعاملون الجميع معاملة طيبة كريمة(١).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى علاقة المسلمين مع أهل الذمة فى بلدنا الحبيب مصر؛ فإن أهل الذمة لم يكونوا طبقة فى المجتمع المصرى، وإنما كانوا فى قلب وشرايين الجسم المصرى، فكان منهم الفنانون والصناع، والتجار والمزارعون والعلماء والأطباء، والشعراء والمؤرخون والمثقفون وأصحاب المهن، وكل هؤلاء كانوا يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة، دون اعتداء أو ضغط على أحد(٢).

هذا، وسنقف على المزيد من صور التسامح الإسلامى، من القادة العرب - أثناء الفتح الإسلامى لمصر - مع قبط مصر، بصفة خاصة فى الفصل السادس من هذا الكتاب (أقباط مصر فى ظل الفتح الإسلامى).

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام (٤٠-٤١).
(٢) التسامح فى الفكر الإسلامى، ص١٨٥.

فى فتح الأندلس

ثم فتح المسلمون أسبانيا فأنجدوا سكانها من العسف والمذلة؛ لأن القوط كانوا هم حكامها وسادتها، إذ أنهم لما دخلوها فاتحين طردوا منها الوندال والروم، واستقلوا بها من سنة ٤٨٤م، وبقيت فى قبضتهم أكثر من مائتى عام .

وكان حكمهم فاسدا بغيضا إلى الشعب؛ لأنهم ـ على الرغم من تنصرهم ـ ترفعوا عن السكان الأصليين، وعاشوا وحدهم فى أبراج من العاج، فكانوا هم الطبقة العليا، واستأثروا بالضياع الواسعة، وحرموا المصاهرة إلى الأهلين .

أما الشعب فكان طائفتين: **الطائفة الأولى:** هم أرقاء المزارع والعبيد، وكان هؤلاء ملكا لسادتهم، ولا يحميهم قانون ولا عرف من التعذيب أو القتل وكان أرقاء الأرض ـ القائمين على خدمتها ـ ملزمين بالإقامة فيها وزرعها، فإذا انتقلت الأرض من مالك إلى مالك آخر، انتقلت إليه ملكية أرقائها، ولم يكن من حقهم أن يتزوجوا إلا برضا السادة.

أما الطبقة الثانية: فهى الطبقة المتوسطة، وهم الأحرار من سكان المدن، وقد لاقى هؤلاء من التضييق والإرهاق مثل ما لاقى العبيد؛ لأن أثقال الضرائب ـ التى كان يتطلبها السادة للإنفاق على شهواتهم وترفهم ـ كانت تقع على عواتقهم .

ثم إن رجال الدين خيبوا الآمال المعلقة عليهم فى نصرة الضعفاء؛ لأنهم استغلوا تنصر القوط وانضمامهم إلى الكنيسة، فاستبدوا بشئون الحكم وبشئون الدين، وتنافسوا فى إحراز الثروات، وامتلاك الضياع الواسعة، وأعفوها من الضرائب، كما أعفى الأشراف ضياعهم، ولم يكونوا أرحم بأرقاء أرضهم من السادة الأشراف .

وحينما أحسوا بقوتهم ونفوذهم هيمنوا على سياسة الدولة والانفراد بحكمها، فعلا نفوذهم على نفوذ الأشراف، ثم دفعهم التعصب إلى اضطهاد اليهود وإجبارهم على التنصر، وخيرهم الملوك بين اثنين: إما أن يتنصروا وإما أن ينفوا وتصادر أملاكهم، فاضطر كثير منهم إلى التنصر رياءً لا عقيدة، وقد ظهر أثر هذا الرياء فى تآمرهم مع يهود العرب، وعزمهم على الثورة والتآمر ضد الحكم ـ وذلك قبل الفتح الإسلامى بسبع عشرة سنة ـ فلما عرفت الدولة مؤامرتهم سنة ٦٩٤م سلبتهم

أملاكهم وضمتها إلى الملك، وقضت بأن يمتلكهم ويهبهم عبيدا لمن يشاء، وأن يربَّى أبناءَهم على النصرانية، وألا تتزوج يهودية إلا بنصراني.

ولهذا رحب اليهود وسكان البلاد - فى الأندلس - بالعرب الفاتحين، لأنهم سيخلصونهم مما حَلّ بهم من مظالم لاتطاق(١).

من ثمرات التسامح الإسلامى مع أهل الذمة فى الأندلس

مرّ بنا فى حَديثنا عن التعايش المادى واالفكرى، بين المسلمين وأهل الذمة من النصارى واليهود فى العراق والشام ومصر، ما يدل على أنهم نعموا بحياة آمنة وتسامح عظيم، مما دفعهم فى تلك البلد ان إلى أن يتعربوا لسانًا وفكرا، وأن يترجموا كتبهم المقدسة إلى العربية، وأن يقيموا صلاتهم فى كثير من معابدهم وكنائسهم بالعربية، ولم نبسط الحديث عن النصارى واليهود فى الأندلس والديار المغربية، وما أظلهما فيهما من رغد العيش وطيب الحياة، وحرى بنا الآن أن نصور - فى إجمال - ما أظلهما فيهما من التسامح الإسلامى .

مع النصارى فى الأندلس:

أما النصارى فى الأندلس فقد كفل لهم المسلمون حريتهم الدينية، وأن يظلوا على نصرانيتهم التى اختاروها لأنفسهم، ولم يحدث أن أجبر أحد منهم على ترك نصرانيته واعتناق الإسلام، بل صان المسلمون كنائسهم وأموالهم، ولم يزعجوا قسيسا ولا راهبا ولا أسقفا، وظل المسلمون طوال وجودهم فى الأندلس يعاملون النصارى معاملة حسنة، لدرجة أنهم أشركوهم فى المناصب العالية فى وظائف الدولة، فالتاريخ يقص علينا أن حاكم الأندلس الأموى محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) يفسح للأسبان المستعربين فى مناصب الدولة، ويعين (قومس بن أنتنيان) متولى جمع الضرائب من أهل الذمة كاتبا له يدير شئون الدولة، واستعفاه من

(١) مختارات من سماحة الإسلام صـ ٤٣، ٤٤.

العمل يوم الأحد، فأعفاه وأعفى جميع الموظفين؛ حتى يستطيع المسيحيون منهم الصلاة في هذا اليوم بكنائسهم، وأقبل كثير من الأسبان المسيحيين على اعتناق الإسلام لبساطته وسماحته، وأقبل من لم يعتنق الإسلام على تعلم العربية، حتى أتقنوا الكتابة بها شعرا ونثرا، وبالجملة فقد كان يسود المسلمين والنصارى في الأندلس، علاقات مودة وتعاون .

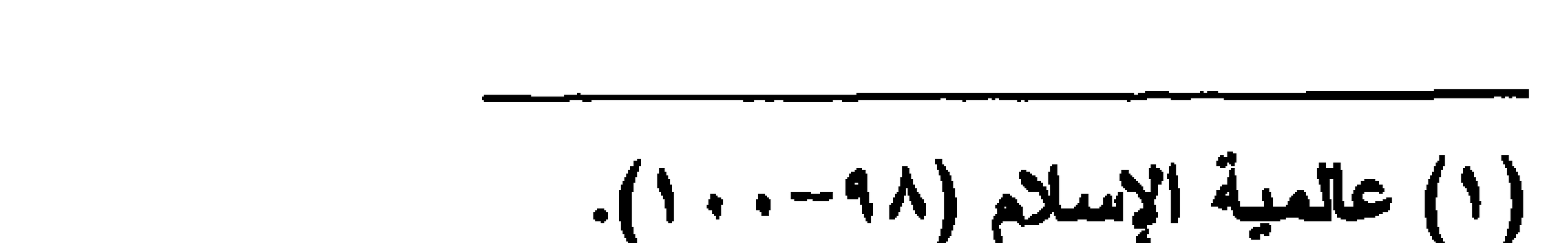
مع اليهود في الأندلس والمغرب الأقصى:

وبفضل التسامح العظيم، الذي فرضه الله - جل شأنه - على المسلمين في تعاملهم مع غيرهم، فتح المسلمون أبواب الأندلس على مصاريعها لليهود، فاتخذوها - طوال ثمانية قرون - ملجأ لهم وحصنا؛ يحتمون به من اضطهاد الغرب لهم في كل مكان، واستطاع أحدهم وهو (حسداى بن شبروط) أن يصبح وزيرا سنة ٣٣٤هـ/٩١٦م لعبدالرحمن الناصر، أهم حكام الأندلس الأمويين .

ولما جلا العرب عن الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م أخذ الأسبان يضطهدون اليهود اضطهادًا شديدًا، إذ لم يكن هناك عرب مسلمون يحمونهم، وازداد الاضطهاد شدة في عهد فيليب الثالث ملك أسبانيا، فإلى أين يذهبون ؟

إنهم لم يجدوا لهم ملجأ يحميهم سوى ديار الإسلام والمسلمين في المغرب الأقصى، فنزحت إليه جموعهم، وتغلغلوا في مدنه، وعاشوا بها في تسامح عظيم قروناً طوالا، أثروا فيها ثراء عظيما، وتمولوا مالاً كثيرًا .

وكل من يعرف تاريخ اليهود بين المسلمين وتعايشهم في ديارهم طوال العصور الإسلامية، وحمايتهم لهم وبخاصة في الأندلس والمغرب قترونا بعد قرون، يعجب أشد العجب من عدائهم الشديد - في عصرنا الحاضر - للمسلمين الفلسطينيين، وإخراجهم من وطنهم وديارهم بالقوة مهانين مستضعفين[1] .



(١) عالمية الإسلام (٩٨-١٠٠).

فى الحروب الصليبية

لقد ارتكب الصليبيون أثناء فتحهم مدينة بيت المقدس الكثير من الفظائع، واستباحوا دماء من بها من المسلمين واليهود بل والمسيحيين - المخالفين لهم فى المذهب - من الرجال والنساء والأطفال، ولم يراع أولئك المهاجمون ما للمسجد الأقصى من حرمة، فانتهكوا حرمته، وقتلوا كل من لاذ به من المسلمين.

ولقد أجمعت المصادر الإسلامية والمسيحية، على همجية الجند الصليبيين وعلى همجية غزوهم، حتى أن أحدهم ذكر أن هذه القوات كانت تخوض فى دماء القتلى فى شوارع المدينة المقدسة، وإن قائد الحملة الصليبية أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاث، وإن رجاله انطلقوا فى شوارعها يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال، دون تمييز، وقد بلغ عدد القتلى أكثر من سبعين ألفا، منهم جماعة من أئمة المساجد وعلمائهم وعبادهم .

وحينما توجه (الأمير ريموند) فى الضحى لزيارة ساحة المسجد، أخذ يسلك طريقه بصعوبة بالغة، بين الجثث والدماء التى بلغت ركبتيه، وقد أدت مذبحة بيت المقدس إلى خلو المدينة من سكانها .

ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة، فذكر (وليم الصورى) أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة، حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين، أثارت رعب الغزاة واشمئزازهم.

تسامح صلاح الدين مع الصليبيين:

وفى يوم ذكرى ليلة الإسراء والمعراج يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ، دخل صلاح الدين بيت المقدس، وأظهر من التسامح والعفو مع أهلها ما جعل المؤرخين المسلمين وغير المسلمين يذكرونه بالثناء والتقدير، ولقد أمّن صلاح الدين سكان المدينة جميعهم على أرواحهم، ووزع جنوده فى شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها، ويحفظوا أرواح سكانها، ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع المسيحيين واليهود مثلما فعل الصليبيون من ضروب التوحش والإبادة التى وقعت

على سكان القدس، فلقد كانت رحمته وعطفه وتسامحه على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحروب الصليبية[1].

وهذه صور من السماحة يسجلها التاريخ بكل فخر وإعزاز لصلاح الدين، مع خصومه وأعدائه الصليبيين الذين جاءوا لمحاربته والقضاء عليه وعلى من معه.

اعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) بتسامح صلاح الدين الأيوبي وعدله وعطفه على الصليبيين، الذين جاءوا إلى أرض المسلمين للقيام بأبشع المذابح التي عرفها التاريخ، ولكن صلاح الدين - وهو في موقف المنتصر - لما علم بمرض خصمه (ريتشارد قلب الأسد)، وبأنه في حاجة إلى بعض الفاكهة والثلج، بعث إليه بحاجته منها وأرفقها بالدواء والشراب، ولم يكد ريتشارد يشفى من مرضه حتى عاد مرة أخرى إلى قتال صلاح الدين[2].

ويروى القاضي بهاء الدين بن شداد - رفيق صلاح الدين وكاتب سيرته - قصة توضح رحمة صلاح الدين وتسامحه، فقد حدث خلال المعارك حول عكا سنة ١١٩١م أن غنم بعض المسلمين طفلاً رضيعاً عمره ثلاثة أشهر، فخرجت أمه (النصرانية) تشكو إلى ملوك الصليبيين، فقالوا لها: إنه (أي صلاح الدين) رجل رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج، فاخرجي إليه واطلبيه منه، فإنه يرده إليك.

وقصدت الأم صلاح الدين وروت له قصتها، فرق لها ودمعت عيناه، وعلى الفور أمر صلاح الدين بإحضار الرضيع، فوجدوه قد بيع في السوق فاسترده وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى، وأعاد الطفل إلى أمه، وأمر صلاح الدين بفرس لها يحملها إلى بلدتها.

ويعلق ابن شداد على هذه القصة فيقول: (فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية، اللهم إنك خلقته رحيما، فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والإكرام)[3].

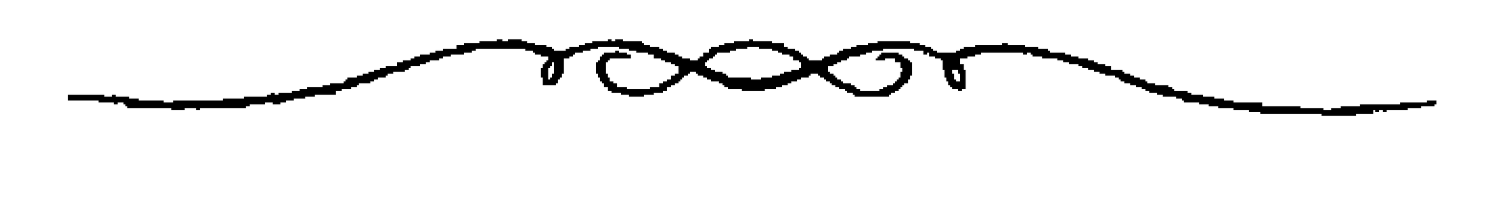
(١) انظر: الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث للثانوية العامة، ص٦٥، ٦٦.
(٢) انظر: جوستاف لوبون ـ حضارة العرب ٣٢٩.
(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية ٢٥٠.

وسجل المؤرخ (توماس أرنولد) تصويراً لجانب من جوانب صلاح الدين، وتأثيرها فى الجيوش الصليبية، ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة، قد أحدثت تأثيرا سحريا خاصًا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذا بهم إليه، أن هجروا ديانتهم المسيحية وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما ترك النصرانية فارس إنجليزى يدعى (روبرت أوف سانت ألبانس)، فى سنة ١١٨٥م، واعتنق الإسلام، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[١].

إسلام بعض الصليبيين بمحض إرادتهم:

ونذكرهنا ما قاله (السير توماس أرنولد) المستشرق الإنجليزى: « لقد زاد اختلاط النصارى الصليبيين بالمسلمين على مر الأيام، وزاد معه احترام الصليبيين لهم، وتقديرهم لمزاياهم وفضائلهم، واقتدى أمراء الصليبيين بالمسلمين فى تسامحهم الدينى».

واجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها عددًا كبيرًا من الصليبيين الذين أعجبوا كل الإعجاب بشجاعة صلاح الدين الأيوبى وأخلاقه. فترك كثير من الأمراء والعامة دينهم وأهلهم، واعتنقوا الإسلام، وانضموا إلى صفوف المسلمين، من غير أن يكرههم أحد على اعتناق الدين الإسلامى، فقد جاء الصليبيون للقضاء على الإسلام، ولكنهم أسلموا مختارين لا مُكرهين.



- ٥ -
مظاهر التسامح فى الفتوحات الإسلامية

لم يفارق الدنيا صاحب هذا النور - صلوات الله عليه - فى أول السنة الحادية عشرة من الهجرة، إلا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقا إلى خارج جزيرة العرب،

(١) توماس أرنولد، ١١١ .

ليبدد ما حولها من الظلمات، وليكف بـأس القـوى الـشريرة التـى تـآمرت عليـه في دولتي (الفرس والروم).

ذلك أنه فى السنة التاسعة من الهجرة، قاد بنفسه جيش المسلمين إلـى (تبوك) ولما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا أحدًا هناك، وإنما رجعوا إلى الشام ليتحصنوا بحصونها. فكانت الهزيمة الأدبية التى لحقت بجيش الروم يومئذ، حيث لم يجـرؤوا أن يتقدموا لملاقاة جيش المسلمين هناك. ومن ثم كانت الهزيمة الأدبيـة إرهاصـا قريبـاً لهزيمة الدولتين عسكريا، وسقوطهما نهائيا فى عهد خلفائه الراشدين.

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية، فشملت بـلاد العجـم والعراق والشام ثم مصر وتونس، ثم الجزائر ومراكش وصقلية وأسبانيا، ثم تجاوزت جيوش المسلمين جبال البرانس، وأوغلت فى فرنسا حتى اقتربت من باريس سنة ٧٣٢ هـ.

وعادت الجيوش من فرنسا لتستقر فى أسبانيا، وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة، ظل حكمهم فيها ثمانية قرون، لم يشهد التاريخ مثلها حضارة وازدهارا، ثم امتدت موجة الفتح الإسلامى مشرقا إلى الهند والصين، ثم انعطف غربا فدخل أوربا من جنوبها الشرقى، متجها نحو الغرب والشمال الغربى إلى النمسا، وإلى قرب بحر البلطيق، ولو شاء ربك لأسلمت أوربا كلها، بل لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا، ولكن قضت حكمته العليا ألا يزال الناس مختلفين: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾(سورة يوسف، الآية١٠٣).

هذه الفتوحات كلها، يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب، فهم يقولون بصريح العبارة: إن أكثر ما تم من الفتح الإسلامى إنما كان بفضل التجارة، والدعوة السلمية، والإقناع الحكيم، والقدوة الحسنة[1].

ويكاد يجمع المؤرخون على أن هذه الفتوحات، كانت تتسم بثلاثة مظاهر أساسية هى:

(١) المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، مرجع سابق، ص٦٢، ٦٣ بتصرف.

الأول: كفالة الحرية الدينية وعدم الإكراه على العقيدة:

من الأسباب الجوهرية في سرعة انتشار الإسلام، أنه لا يكره أحدا على اعتناقه، بل ترك لكل إنسان الحرية في العقيدة، الحرية في اختيار الدين الذى يثق به.

إنه دين لا يعرف الظلم إلى مبادئه سبيلا، ولا الطغيان إلى تعاليمه طريقا، دين الحرية والإخاء والمساواة، دين السماحة وسجايا الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية، ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سببًا لانتشاره في يوم من الأيام، كما فعل الإمبراطور الرومانى مع المسيحيين، يريد منهم جميعًا الدخول فى غمار كنيسته، وإلا اعتبروا خارجين على طاعته، ولكن المسلمين لم يحاولوا أن يجبروا أحدا على الدخول فى دينهم، فالرسول ﷺ كتب إلى مختلف الملوك والأقيال والحكام والأمراء والزعماء، يدعوهم إلى الإسلام وهداية الناس. ولم تكن هذه الكتب وسائل عنف وإرهاب، أو ذرائع للبطش والتنكيل .. إنما كان يدفع بالتى هى أحسن، بل كان يتحمل ألوانا من العنف والضيق، وضروبا من الوعيد والتهديد من جانب هؤلاء القوم، والرسول قبل هذا وبعده. لم يجبر غير المسلمين على الإسلام إنما جعل لهم الخيار بين الإسلام أودفع الجزية.

ولقد سبق أن ذكرنا ما كان يوصى به رسول الله ﷺ قواد جيوشه بعدم قتل الشيوخ والأطفال والنساء ... وفى حديث آخر نهى ﷺ عن قتل الكهنة والرهبان المتعبدين فى الأديرة والصوامع . وبذلك تظهر سماحة الإسلام فى أسمى معانيها، حيث تنحصر إباحة القتل فى رجال العدو، القادرين الذين يدخلون بالفعل إلى ميدان القتال.

وكان من نتيجة دخول الإسلام فى أفريقيا الاستوائية، أن تهذبت نفوس الزنوج، وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحوم البشر، وارتدوا ما يستر عوراتهم، والأهالى الذين لم يكونوا يغتسلون قط أقبلوا على التطهر والاغتسال، وكان الوضوء من الأسباب الداعية إلى نظافتهم .

زد على ذلك أن الشعور بالقيم الأخلاقية بدأ يتجسم ويتضح، فاختفت وسائل السلب والنهب التى كانت متفشية بين القبائل الزنجية، وأصبح المسجد قبلة أنظار الزنوج، يؤدون فيه فرائضهم، ويصلون فيه صلواتهم الخمس، فى جو يسوده الجلال والوقار.

وقد كان التعليم والإقناع هما وحدهما الوسيلة التى استخدمها الدعاة المسلمون فى نشر الإسلام، ولم يلبث الإسلام أن وجد تربة خصبة فى هذه البلاد، وقد شجع الخلجيون - وهم أسرة أسيوية عاشت فى القرن الثالث عشر للميلاد - أهل آسيا على اعتناق الإسلام.

وفى ذلك يقول (ابن بطوطة): إنهم قد سنوا عادة تقديم الشخص - الذى دخل حديثا فى الإسلام - إلى السلطان الذى كان يكسوه كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب، بحسب قدره ومنزلته.

كما شجع الأمير (شاه تغلق) (١٣٥١ـ١٣٨٨م) الهنود على اعتناق الإسلام وقال فى مذكراته: لقد شجعت رعاياى الكفار على اعتناق دين النبى، وأعلنت لهم أن كل شخص يترك هذه العقيدة، ويصبح مسلما يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس، ولما وصل هذا النبأ إلى مسامع الناس تقدم الهندوس زرافات ووحدانا، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الانتساب إلى الإسلام، ومن ثم أخذوا يأتون من كل حدب وصوب، ولما اعتنقوا الإسلام أعفوا من الجزية، ومنحوا الهدايا ومظاهر التكريم.

وهكذا كان للأمراء والحكام دور كبير فى نشر الإسلام بعد الرعية، زد على ذلك أن كثيرا من النفوس تفتحت لعقيدة الإسلام السمحة، وعرفت مزاياه الكثيرة واستجابت لدعوة الداعين إليه، فنعمت بما يكفله للمسلمين من مزايا عظيمة وحقوق رفيعة[1].

(١) المرجع السابق، من ص٧٧ ـ ٧٩ بتصرف.

الثانى: المعاملة الحسنة والتسامح الدينى مع أرباب الديانات الأخرى:

ومما حبب الفاتحين المسلمين إلى قلوب أهل تلك البلاد المفتوحة، التسامح الدينى، ومحو الفوارق بين الطبقات، والقضاء على الامتيازات، فكان المسلمون الفاتحون تسودهم ظاهرة التسامح الدينى، بإزاء الأديان الأخرى، لا بإزاء اليهودية والنصرانية فحسب، بل بإزاء المجوسية أيضًا التى عاملها المسلمون معاملة الأديان السماوية. ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة فنقول:

لم تكن الضريبة التى يدفعها أهل الذمة وغيرهم من الملل الأخرى فى صورة (جزية)، تعنى فرض سلطة القوى على الضعيف، أو الظافر على الخاسر، أو المنتصر على المخذول، وإنما كانت تدفع مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين؛ لذا سجل (خالد بن الوليد) فى المعاهدة، التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله: فإن منعناكم فلنا الجزية. وإلا فلا.

وقد حدث أن رفع (هرقل) راية العصيان ضد المسلمين، ورغب فى الانقضاض عليهم وأخذهم بالغدر والخيانة . فلما علم (أبو عبيدة) قائد العرب بذلك، كتب إلى عمال المدن المفتوحة بالشام يأمرهم برد ماجبى من الجزية فى المدن، وكتب إلى الناس يقول : إنما رددنا عليكم أموالكم، لأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ونحميكم، وأنا لا نقدر على ذلك، ونحن لكم على الشرط، وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين - لمّا رأوا من حسن معاملة المسلمين لهم - وقالوا: ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم).

وبهذا يتضح أن المسلمين لم يكونوا ينوون للمسيحيين - أو غيرهم – من الطوائف الأخرى - شرًا، ولم يكونوا ينهبون منهم أموالهم، أو يسلبون حقوقهم. إنما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم ويقفوا لأعدائهم بالمرصاد، فكانوا يحصنون المدن والثغور، ويبنون القلاع والحصون للدفاع عنهم وحماية حقوقهم بالنفس والنفيس.

والسيف لم يكن مسلطًا على رأس أحد من الناس ليكون مسلما، ولم يكن المسلمون يلجئون إلى وسائل التعذيب التى لجأ إليها المشركون لصرف الناس عن

الإسلام، ولم يكن المسلمون يفعلون مع مخالفيهم فى العقيدة ما فعلته قريش مع المسلمين - من تشريد وتعذيب - بل كانوا على النقيض من ذلك - كما رأينا - يتخذونهم إخوانهم، ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة .

وكان المسلمون ينهجون منهجا حكيما فى فتوحاتهم، فكانوا إذا اضطروا إلى مهاجمة دولة - خوفًا ومنعًا من اعتدائها عليهم - دعوها إلى إحدى خصال ثلاث: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال، وكان أولو الأمر يشددون فى حمل قوادهم على تكرار هذه الدعوة، كلما ساروا إلى بلد وأحاطوا به ليفتحوه، ولقد حدث أنه عندما أغارت جيوش المسلمين على (صفد) من أعمال (سمرقند) لم يدعهم القائد إلى إحدى هذه الخصال الثلاث، فشكوا إلى (عمر بن عبد العزيز) من جرّاء ذلك، فماذا كانت النيجة؟

كتب عمر بن عبد العزيز إلى والى (سمرقند) يقول له: إذا أتاك كتابى هذا فأجلس لهم القاضى .. لينظر فى أمرهم، فإن قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم، وقد قضى القاضى لأهل سمرقند ، وخرجت الجيوش الإسلامية من البلاد التى استولت عليها ، ليعرض القائد عليهم هذه الخصال من جديد .

وكان من نتيجة هذه المعاملة السمحة، أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، فقد تمكن الإسلام من التوغل فى أفريقيا ، لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط، ولم يتحرج المسلمون من الزواج من الزنجيات، وأنجبوا منهن عددا كبيرا من الأطفال المسلمين، الذين لم يكادوا يبلغوا سن الشباب حتى ازدادت حميتهم، واشتد دفاعهم عن الإسلام.

وقد استقر الإسلام فى آسيا وغيرها من القارات قرونًا عديدة، دون أن يعتريه ضمور أو اضمحلال، ودون أن يدركه فتور أو خور، أو تزعزعه أية قوة تطيح به .. بل على النقيض من ذلك نجد فى الهند والصين وأندونيسيا وغيرها من البلاد الآسيوية مسلمين، يتمسكون بالعقائد الإسلامية تمسكاً شديدًا، ويعانون المشاق والمتاعب من أجل السفر إلى بيت الله الحرام؛ لتأدية فريضة الحج، وهم لا يعبأون بما يتجشمونه من صعاب وما يكابدونه من آلام، لأنهم كغيرهم من المسلمين يعتقدون فى الثواب والعقاب، وقد توغل الإسلام فى أوربا عن طريق صقلية والأندلس، وضرب

المسلمون فى هذه البلاد المثل الأعلى فى السماحة ونبل الخصال وعدم التعصب أو التعسف[1].

الثالث: تمتع الأقليات غير المسلمة بكافة حقوقها:

عندما انتشر نور الإسلام فى شتى الأقطار والأمصار، كانت الشريعة الإسلامية كعادتها، تكفل لغير المسلمين كافة الحقوق، فالإسلام لا يعرف الظلم ولا التعصب، بل يفسح صدره للأقليات التى لا تؤمن به، ويأمر برعايتها وحمايتها .

وكان أول شىء أحس به أهل البلاد التى فتحها المسلمون، هو تخفيف الضرائب عن كاهلهم وتنظيم ما يجمع منها، كما شعر الذين فرضت عليهم الجزية - لأنهم لم يدخلوا فى الإسلام - بأنهم أحسن حالا من ذى قبل، إذ كانت حكومات الأقاليم تقع تحت مراقبة الخليفة الذى لا يخشى فى الله لومة لائم . كما أنهم رأوا أن ما يجمع منهم من أموال، إنما يصرف فى مرافق الدولة بما يعود عليهم بالنفع والفائدة... إلخ ما ذكرناه سابقًا فى الفصل الخاص بحقوق وواجبات غير المسلمين فى الإسلام.



كل هذه الحقائق عن سماجة الإسلام فى معاملته لغير المسلمين، تنهض أدلة ناصعة وحججًا دامغة، على أن الإسلام لم يكن فى فترة من الفترات دين عنف وقوة أو بغى وتسلط، وأنه لم ينتشر بحد السيف كما يتقول المتقولون؛ لأنه الدين الحق الذى يتوارثه الناس جيلا بعد جيل لابدّ أنه متغلغل فى القلوب، مستقر فى النفوس، وأنه يسرى فى الصدور مسرى الدماء فى العروق.

وحقًا كان لا بد للمسلمين من حماية جانبهم، والزود عن حياضهم، من أجل ذلك قاموا بالفتوحات الإسلامية، بيد أن هذه الفتوحات كلها، لم تكن للبطش والإرهاب وإنما كانت للهداية والإيمان .

❁ ❁ ❁

(١) المستشرقون والإسلام، مرجع سابق، ص٨٧ ومابعدها.

الفصل السادس

أقباط مصر

فى ظل الفتح الإسلامى

كانت هناك علاقة قوية بين المسلمين وأقباط مصر، متمثلة فى أن الأقباط هم أخوال العرب، فقد تزوج منهم نبى الله إبراهيم عليه السلام، ورزقه الله بإسماعيل عليه السلام، من هاجر المصرية، فإسماعيل عليه السلام هو أبو العرب، والأقباط أخواله.

ولقد كرمهم نبى الله محمد ﷺ عندما تزوج بمارية القبطية، وأنجب منها ولده إبراهيم، وأن النبى ﷺ قد أوصى بالأقباط خيرًا، فعن أبى ذر أن النبى ﷺ قال: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا». أَوْ قَالَ «ذِمَّةً وَصِهْرًا»(مسلم)[1].

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ بعد وفاته، وعلى أيدى صحابته الكرام حيث قام عمرو بن العاص بفتحها فى خلافة عمر بن الخطاب، فما إن ظهرت بشائر الفتح الإسلامى منطلقة من الجزيرة العربية، حتى رحبت بها الكنيسة المصرية، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم نصارى الإمبراطورية البيزنطية، وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامى أرض مصر، بقيادة عمرو بن العاص ودانت لهم، حتى رحب القبط بالفتح الإسلامى، ولقوا من عمرو أعظم التسامح لأنه أنقذهم من الاضطهاد والتعذيب وكفل للأقباط حريتهم الدينية، ولم يحدث فى عهده ولا من بعده أن ضغط على أحدهم، ليرتد عن دينه، بل إن بعضهم أسلم قبل أن يتم الفتح.

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٥٦١٥، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهله.

الفصل السادس

أقباط مصر
فى ظل الفتح الإسلامى

القبط: يطلق هذا الاسم على مسيحى مصر، وهم ذرية المصريين القدماء، ومن ثم فهم جزء من الأصل الحامى - نسبة إلى حام بن نوح - الذى تولّد منه العرب وبربر المغرب والأثيوبيون ... كما تدل كلمة قبط على أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية القبطية فى مصر الحديثة(١).

وكلمة قبط لم تطلق على أهلها إلا بعد أن دخلوا فى الديانة المسيحية، وتغلبت هذه التسمية يوم اعتبر فى مصر سنة ٣٨١م، الدين المسيحى دينا رسميا للأمة المصرية.

كان عدد القبط عند دخول العرب مصر، سنة (٢١هـ/٦٤٢م) بضعة ملايين فأخذ عددهم يتناقص؛ بدخول الكثير منهم فى الإسلام، ويعيش اليوم فى مصر، أربعة ملايين من الأقباط، بينما تنتشر جاليات قبطية أخرى فى كل أنحاء العالم(٢).

بداية النصرانية:

كان عيسى عليه السلام حلقة فى سلسلة الأنبياء والرسل، الذين بعث الله بهم إلى بنى إسرائيل وجاءهم بالتوحيد الخالص، والإقرار بالعبودية لله، وأكد لهم أنه بشر اصطفاه الله للقيام بأعباء الدعوة، بين بنى إسرائيل؛ ليردهم إلى شريعة الله.

---

(١) جرى بعض الباحثين ـ وهم قلة ـ على أن القبطى هو المصرى، سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًا؛ لأن كلمة قبطى كلمة يونانية الأصل معناها: سكان مصر، أى البلاد التى بها معبود فى منف عاصمة مصر القديمة، والذى عليه المحققون وعلماء الأديان أن كلمة الأقباط أصبحت ـ بعد الإسلام ـ تعنى المصريين المسيحيين دون سواهم وهو ما سلكناه فى هذا البحث (الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المجلد الثانى صـ ١١٢٣)

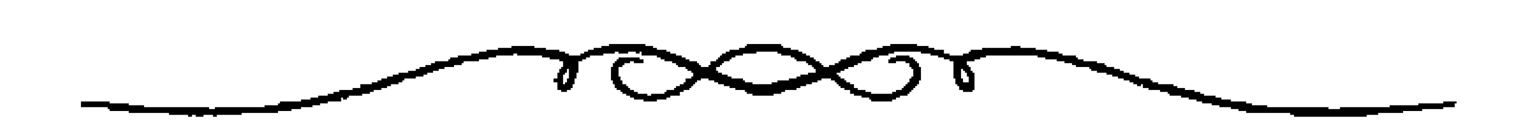
(٢) دائرة معارف القرن العشرين (٦١٢/٧-٦١٣) .

ولم يقبل اليهود دعوة عيسى عليه السلام بل ناصبوه العداء ؛ لأن دعوته تتناقض وطبائعهم ، ولم تكترث له الدولة الرومانية فى البداية ؛ لأن دعوته كانت موجهة لبنى إسرائيل فقط . ولكن اليهود أقنعوا الرومان بخطورة دعوة عيسى عليه السلام وزعموا أنه يدعى أنه ملك اليهود .

وهكذا اجتمعت سلطة الدولة واليهود على مطاردته ومحاربته ، وانتهى الأمر بمحاكمته بتهمة الخيانة ، والسعى إلى صلبه .

ويزعم النصارى أنه صلب وقتل ، ولكن فى الحقيقة أن الله نجاه من كيدهم ومكرهم ورفعه إليه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ...... بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ..﴾(سورة النساء ، الآية ١٥٧ ، ١٥٨) .

ولم تنته الدعوة برفع عيسى عليه السلام بل حمل الدعوة من بعده الحواريون ، الذين كانوا مناصرين له ومؤمنين برسالته ، وباستمرار الدعوة استمرت المحاربة والاضطهاد من أباطرة الروم وحكامهم على الخصوص ، قرابة ثلاثة قرون ، ذاق فيها المسيحيون ألوانا مختلفة من العذاب ؛ حتى اضطروا أن يتركوا المدن إلى الصحارى ، فرارًا من وجه هؤلاء الأباطرة العتاة ، الذين كانوا يريدون ألا يعبد فى الأرض - التى يحكمونها - غيرهم ، حتى ظهر الإمبراطور (قسطنطين) الذى اعتنق الديانة المسيحية بعد انقضاء ثلاثة قرون على موت المسيح عليه السلام وباعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية - وهو أول إمبراطور رومانى يدخل النصرانية - انتشرت تعاليم الكنيسة فى الدولة الرومانية جميعها ، بل وفى خارجها ، غير أن السلطات الحاكمة كانت تمقتها وتحاربها ، وتطارد معتنقيها أينما حلوا وأينما ساروا[1] .



(١) الموسوعة العربية العالمية (٢٥/٢٥٩-٢٦٠)، والمستشرقون والإسلام صـ٥٩ .

انتشار النصرانية

خلال تلك القرون الثلاثة العصيبة كان هناك صراع يدور بين أتباع عيسى عليه السلام من الحواريين والجماعات التى كانت امتدادًا لهم، وبين تيار نصرانى آخر كان يقوده (بولس)، الذى كان يهوديا متعصبا ضد النصارى، ثم انقلب فجأة مدافعا عنهم، واستمر هذا الصراع حتى تغلب تيار بولس، وأسكت صوت التوحيد.

قرر بولس أن النصرانية ليست مذهبًا يهوديًا خاصًا ببنى إسرائيل، بل هى دين جديد؛ وأن عليها أن تجعل دعوتها مفتوحة لغير اليهود، كما تساهل بولس فى بعض التشريعات والطقوس؛ كالختان والسبت وتحريم الخنزير سعيًا إلى كسب الوثنيين من الرومان وغيرهم، وهكذا جاء بولس بنصرانية جديدة خالف بها دعوة عيسى عليه السلام وخرج على تعاليمه وشريعته، واستطاع أن ينتصر على النصرانية المحافظة التى ترسّم أتباعها خطى المسيح عليه السلام، وما زال العالم النصرانى كله إلى الآن أو معظمه، يعيش على فتات هذا الرجل ومعتقداته التى حرّف بها النصرانية الحقة الموحدة، والتى ابتعث بها عيسى عليه السلام إلا رجالاً على مر التاريخ أيقنوا حقيقة ذلك؛ فآمنوا بالله وحده سواء منهم من أسلم، أومن ظل منتميًا للنصرانية.

مكن التيار الذى قاده بولس اعتناق الإمبراطور قسطنطين للنصرانية، ومنح بولس وأتباعه حرية العبادة، كما أن المجامع النصرانية، التى انعقدت تحت سلطة الإمبراطور ووفقا لتوجيهاته، انحازت لآراء بولس، وطاردت الموحدين والمخالفين للكنيسة فى الرأى.

وبحلول عام ٣٩٢م أصبحت النصرانية الديانة الرسمية للدولة الرومانية وانتشرت على إثر ذلك فى أوربا الغربية جميعها، بل إن تاريخ أوربا ارتبط فى مساره العام بالنصرانية، ولم يلبث أن بدأ الضعف يدب فى أوصال الإمبراطورية الرومانية، وفقد آخر إمبراطور رومانى سلطته عام ٤٧٦م[1].

(١) الموسوعة العربية العالمية (٢٥/٢٦٠).

متى دخلت النصرانية مصر؟

لما انقسمت الإمبراطورية الرومانية الكبرى إلى قسمين غربى وعاصمته روما وشرقى وعاصمته القسطنطينية، انتقلت تبعية مصر إلى الدولة الرومانية الشرقية، وفى عهدهم ظل أبناء مصر يعانون من ظلم هذا العهد البيزنطى، دون أن يجدوا سبيلا للعدالة والإنصاف.

أما من الناحية الدينية فقد كانت مصر كغيرها من الولايات الرومانية تدين بالدين الوثنى، إلى أن ظهرت دعوة المسيح ﷺ؛ فكانت مصر فى مقدمة البلاد التى تسربت إليها المسيحية، فى القرن الأول الميلادى على يد القديس مرقص، واعتنقها كثير من المصريين الذين رفضوا عبادة الأباطرة رفضًا شديدًا؛ فقابل الأباطرة هذا الرفض بالاضطهاد والتنكيل، واعتبروا المسيحيين ثوارًا على الدولة يجب القضاء عليهم، وأخذوا يتعقبونهم فى كل مكان، لكن المسيحية انتشرت برغم هذه القسوة، وكان انتشارها سريعا، واشتد التعذيب والاضطهاد للمسيحيين، وخاصة فى عهد الإمبراطور دقلد يانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذى أصدر فى الفترة ما بين ٣٠٢، ٣٠٥م أربعة مراسيم تحث على تعذيب واضطهاد المسيحيين.

وكان وقع الاضطهاد شديدًا على المسيحيين فى مصر، نظرًا لكثرة ماسفك من دمائهم فى عهد ذلك الإمبراطور، فاتخذت الكنيسة فى مصر سنة ٢٤٣م - وهو تاريخ تولية دقلد يانوس الحكم - بداية للتاريخ القبطى، ويسمى عصره بعصر الشهداء لكثرة من قتل فى زمنه.

لكن الصراع بين الإمبراطورية والديانة المسيحية، توقف فى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤-٣٣٧م)، الذى اعترف بها فى الإمبراطورية، وفى سنة ٣٨٠م صارت المسيحية الدين الرسمى الوحيد، فى جميع أنحاء الأمبراطورية الرومانية، وذلك فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩-٣٩٥م).

لكن المسيحيين فى مصر لم ينعموا بهذا التطور، إذ وقع بينهم وبين الإمبراطورية خلاف كبير، تمثل فى الجدل الدينى حول صفات المسيح ﷺ وطبيعته

أهى ناسوتية أم لاهوتية، وهل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان ... وقد تدخل قسطنطين ومن أتى بعهده من الأباطرة فى هذه المنازعات الدينية البحتة، وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية، إلا أن أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مخالفة لمعتقدات المسيحيين فى مصر . فالكنيسة القسطنطينية تقول بأن للمسيح طبيعتين، بينما تذهب الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة، فاحتدم النزاع بين الفريقين، وبلغ ذلك النزاع الدينى أقصاه، بين كنيستى الإسكندرية والقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس الميلادى، حينما دعا الإمبراطور مرقيان (٤٥٠-٤٥٧م) - من أجل ذلك - إلى مجمع دينى فى خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م، فأقر ذلك المجمع مذهب الطبيعتين، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح، كما قرر حرمان ديسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة.

إلا أن المسألة لم تكن مسألة دينية فحسب، إذ اتخذ الخلاف الدينى فى مصر شكلاً قوميًا؛ فلم يقبل ديسقورس ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية، وأطلقوا على أنفسهم (الأرثوذكسيين)، أى أتباع الديانة الصحيحة، ولا زالوا يعرفون باسم الملكانيين، من الكلمة العربية (ملك)؛ لاتباعهم مذهب الإمبراطور.

ومنذ ذلك العهد تعرف الكنيسة المسيحية فى مصر باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، واستمر الاضطهاد لأتباع الكنيسة الأرثوذكسية، حتى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م)، الذى أراد إنقاذ الإمبراطورية فأصدر حلا يتمثل فى (صورة توفيق)، تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعًا بأن له إرادة واحدة... ولم يفطن هرقل إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر، كما أنه أسند الرئاسة الدينية والسياسية فى مصر إلى حاكم جديد اسمه (قيرس)، وقد اشتهر عند المؤرخين العرب باسم المقوقس.

هذا الحاكم الجديد قيرس (المقوقس) فرض على المصريين الالتزام بمذهب (هرقل) أو التشريد والاضطهاد، ولجأ إلى وسائل شتى، لإجبار المصريين على اتباع

المذهب الجديد؛ مما اضطر البطريق المصرى (بنيامين) إلى الهروب، خوفاً من بطش هذا الحاكم، الذى اشتدت كراهية المصريين له.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامى أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص حتى رحبت بها الكنيسة المصرية؛ للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم نصارى الإمبراطورية البيزنطية، وسرعان ما أعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصرية إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس، وتجديد وإصلاح البعض الآخر(1).



الفتح الإسلامى لمصر

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين إلى مصر، على رأس جيش مكون من أربعة آلاف محارب، أواخر عام (١٨هـ/٦٣٩م) ووصل إلى العريش فى أوائل سنة (١٩هـ/ ٦٤٠م)، واستولى عليها من غير مقاومة، نظرا لضعف حصونها، وعدم وجود حامية رومانية بها .

ثم غادر العريش إلى داخل مصر حتى وصل جيش عمرو بن العاص إلى مدينة (الفرما)، وهى مدينة قديمة، ذات حصون قوية، وكنائس وأديار تقع على ساحل البحر المتوسط - شرق بور سعيد الحالية - وكانت بمثابة مفتاح مصر آنذاك؛ نظرا لإشرافها على الطريق القادم من الصحراء والممتد إلى نهر النيل، وكانت بها حامية كبيرة من الروم (البيزنطيين)، فكانت أول مقاومة يقابلها المسلمون فى مصر، فاضطروا إلى تشديد الحصار عليها أكثر من شهر، حتى سقطت مدينة الفرما سنة (١٩هـ/ ٦٤٠م). فكان ذلك أول الفتح؛ مما قوى من عزائم المسلمين، فى الوقت الذى أضعف من عزائم الروم، وفت فى عضدهم .

(١) يراجع: كتاب: مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية د/سيدة إسماعيل الكاشف، دار الرائد العربي، ط بيروت ١٤٠٦هـ، وكتاب تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح الإسلامى حتى عهد الأيوبيين، د/ صبحى عبدالمنعم، ط العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.

وباستيلاء عمرو بن العاص على الفرما فقد الروم (البيزنطيون) قاعدة أساسية من قواعد وجودهم فى مصر، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم بسبب تعزيز المصريين للقوات الإسلامية الفاتحة، ومساندتهم فى تحرير ديارهم من الظلم والطغيان .

أما القوات الإسلامية فقد صار ظهرها آمنا بعد الاستيلاء على الفرما، وخطوط مواصلتها سليمة ومتصلة مع القوات الإسلامية المركزية فى الحجاز، ومن ثم أسرع عمرو بن العاص بطلب الإمدادات اللازمة من الخليفة عمر بن الخطاب، وبخاصة بعد أن علم الروم - فى داخل البلاد - بأخبار زحفه، وأخذوا فى تحصين معقلهم الرئيسى فى الدفاع عن البلاد، وهو (حصن بابليون) الذى بناه (تراجان) (٩٨ - ١١٧م) الإمبراطور الرومانى آنذاك .

ولقد أعقب سقوط الفرما سقوط مدينة بلبيس، بعد حصار ومناوشات استمرت شهرا، انتهت بانتصار المسلمين على الروم (البيزنطيين)، وانسحاب حامية المدينة بما انضم إليها من حامية الفرما إلى حصن بابليون .

ثم واصل عمرو بن العاص بعد ذلك زحفه ... فاجتاز طريقا سهلة عبر هليوبوليس (عين شمس) متجها إلى (أم دنين)، وهى قرية صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل (فى المكان الذى تشغله الآن حديقة الأزبكية). واستطاع عمرو ابن العاص الانتصار على جند الروم (البيزنطيين) فى قرية (أم دنين)، بل واستولى عليها؛ حيث كانت معقلا هامًّا شمال حصن بابليون .

ثم رأى عمرو بن العاص أن من الخير ألا يترك جنوده بدون عمل حتى يصل المدد المطلوب؛ فعبر النيل إلى الضفة الغربية، يستطل موقع حصن بابليون من ناحيتها، ثم زحف إلى الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده، وفى أثناء ذلك بلغه نبأ وصول الإمدادات الإسلامية؛ فعدل عن فتح مدينة الفيوم، وعاد أدراجه للاتصال بالمدد، فوجد أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل له أربعة آلاف جندى على رأس كل ألف منها صحابى جليل قومه عمر بألف رجل حين قال له فى كتابه: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام الألف» وبذلك يكون عدد القوات الإسلامية قد بلغ مجموعها ثمانية آلاف مقاتل بوصول هذا المدد .

أما القادة الأربعة فهم : الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد[1].

سقوط حصن بابليون:

كان هذا الحصن يقع على الضفة الشرقية للنيل، ويتمتع بكافة أسباب المنعة والقوة؛ فماء النيل يجرى تحت أسوار الحصن، وفى استطاعة السفن الحربية والتجارية الوصول إليه بسهولة، بالإضافة إلى أسوار الحصن المنيعة وأبراجه العالية، لكن قوة الحصن ومنعته لم ترهب المسلمين، بل عقدوا العزم على فتحه فقاموا بحصاره بضعة أشهر.

وبعد شهر من الحصار الذى بدأه المسلمون على الحصن، أدرك المقوقس ـ حاكم مصر ـ أنه لا جدوى من المقاومة، فانتقل إلى جزيرة الروضة ليدخل فى مفاوضات سرية مع عمرو بن العاص، مستهدفا إنقاذ الموقف المتدهور، فأرسل إلى عمرو يسأله فى الصلح، وأن يفرض للعرب على القبط دينارين عن كل رأس. لكن عمرًا كان حازمًا معه فأرسل إليه يقول: «ليس بينى وبينك إلا ثلاث خصال: إما أن تدخل فى الإسلام، وإما أن تعطى الجزية وتكون آمنا على نفسك من القتل، وإما تقاتلنا ونقاتلك».

وأخيراً: اختلفت السفراء والرسل بين الروم والعرب، وطال أمد المفاوضات التى دارت بين رسل عمرو وبين المقوقس ومن معه، لكن لم تنجح هذه المفاوضات، وفشلت جهود السفراء فعاد العرب المسلمون إلى تشديد الحصار على الروم (البيزنطيين) داخل الحصن؛ مما اضطر المقوقس إلى طلب الصلح مع المسلمين، وعقد الجانبان معاهدة بينهما، وعلق المقوقس شرط إبرام هذه المعاهدة على موافقة هرقل إمبراطور الروم، الذى رفض الموافقة على المعاهدة، وغضب على المقوقس، وأرسل إليه يستدعيه إلى القسطنطينية، حيث عزله عن ولاية مصر، وأرسل إلى جند الروم (البيزنطيين) يطلب منهم الاستمرار فى مقاومة المسلمين، ويعدهم بالمدد.

---

(١) انظر: قبط مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الأموية، بهاء عز الرجال محمد خليل، ١٤١٦هـ.

بلغ العرب رفض الإمبراطور للصلح فاستأنفوا القتال، وزاد فى حماستهم نبأوفاة هرقل إمبراطور الروم، وانهيار الروح المعنوية للروم (البيزنطيين) داخل الحصن وانخفاض مياه النيل فى ذلك الوقت، فأخذوا يستعدون للهجوم على الحصن، وقامت مجموعة من المسلمين - على رأسهم الزبير بن العوام - بالصعود إلى الحصن وكبروا، فكبر معهم المسلمون جميعًا، ففزع الروم (البيزنطيون) وظنوا أن المسلمين دخلوا الحصن من ثغرة فيه، فبادروا بفتح الأبواب، وطلبوا الصلح من عمرو بن العاص فأجابهم إلى ذلك واشترط المسلمون على الروم ما يلى:

١ - أن يخرج الروم من الحصن فى مدى ثلاثة أيام.

٢- أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم من القوت ما يكفيهم لبضعة أيام.

٣ - أن يستولى المسلمون على الحصن وجميع ما فيه من أسلحة وذخائر.

وقد كان هذا الفتح يوم الجمعة (٦ أبريل سنة ٦٤١م) بعد حصار دام سبعة أشهر.

وتجدر الإشارة إلى أن (بابليون) لم تكن عاصمة مصر، ولكنها كانت أهم مركز فيها، نظرا لموقعها على رأس الدلتا، وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية، عاصمة البلاد ونظرًا لهذه الأهمية فإن سقوط حصن بابليون كان نقطة تحول فى مسار القتال بمصر؛ إذ بسقوطه وقع فى أيدى المسلمين أكثر من نصف البلاد، وكانت بلاد الصعيد تدين لمن يقع فى يده ذلك الحصن المنيع، وبادر عمرو بن العاص عقب الاستيلاء على حصن بابليون بالزحف على الإسكندرية، عاصمة مصر البيزنطية آنذاك، وأشد مدنها تحصينا وقوة[1].



(١) المرجع السابق .

فتح الإسكندرية

كانت مدينة الإسكندرية من أكبر مدن مصر كلها وأبهاها ، وكانت لها مكانة خاصة لدى البيزنطيين؛ نظرا لأهميتها التجارية والحربية والبحرية. والمدينة قوية التحصين؛ يحميها من الشمال البحر الأبيض المتوسط، ومن الجنوب والغرب القنوات والترع، فقد كانت مفتوحة إلى البحر الذى لا يوجد للمسلمين فيه أية سفينة، بالإضافة إلى أسوارها الحصينة، وكانت تغص بعشرات الألوف من جند الروم (البيزنطيين).

ورغم ذلك فقد عزم المسلمون على فتحها، وسار عمرو بن العاص لمحاصرتها وأخذ فى هدم المقاومات والحصون التى صادفها فى طريقه، حتى وصل إلى الإسكندرية وألقى عليها الحصار، إلا أن موقع المدينة واتصالها المباشر بالأسطول الرومانى (البيزنطى) فى البحر الأبيض المتوسط، الذى كان يزودها بالمؤن والعتاد؛ مما جعل فرصة اقتحامها صعبة بالنسبة للمسلمين.

لذلك قرر عمرو بن العاص شغل جانب من قواته بتوسيع نطاق الفتوحات داخل مصر، وفى هذا السبيل أخضع جيش عمرو بعض مدن الدلتا والصعيد، ثم عاد مرة أخرى إلى حصار المدينة، واستطاعت الحامية البيزنطية أن تقاوم المسلمين طويلاً؛ مما أدى إلى قلق الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على الأوضاع فى مصر، فكتب إلى عمرو بن العاص كتابًا يقول فيه: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن خبر الفتح منذ سنتين، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن مصر ستفتح على أيديكم، وماذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا فى قلوبكم، وأن الله - تعالى - لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، فإذا أتاك كتابى، فاخطب بالناس، وحضهم على القتال، ورغبهم فى الصبر، وأن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال من يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة، ووقت الإجابة».

فلما أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، بدأ المسلمون يشددون الحصار على المدينة، ويستنهضون الهمم لاقتحامها، وفى أثناء ذلك

أدى تغير الأوضاع فى القسطنطينية - نتيجة لموت هرقل - إلى إعادة النظر فى الموقف.

فقد ساءت حالة الجيش البيزنطى؛ لتنازع القواد، ولا نقسام الرأى الإسكندرى أثناء حصار العرب للمدينة، كما اضطربت أمور الدولة البيزنطية وصارت أحوالها سيئة للغاية بصفة عامة، فاتفقوا - أى القادة - على إيفاد المقوقس إلى مصر؛ ليعقد صلحا مع المسلمين، ونجح المقوقس فى عقد الصلح مع عمرو بن العاص، ومن أهم شروطه:

١ - أن يدفع الجزية كل من يدخل فى هذه المعاهدة .

٢ - تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهرا، يتمكن فيها البيزنطيون من الجلاء عن مصر.

٣ - أن يسمح للجيش البيزنطى بمغادرة الإسكندرية، وأن يحمل جنوده أمتعتهم وأموالهم.

٤ - أن يمكث العرب المسلمون فى مواضعهم مدة الهدنة، ولا يسعوا إلى قتال الروم.

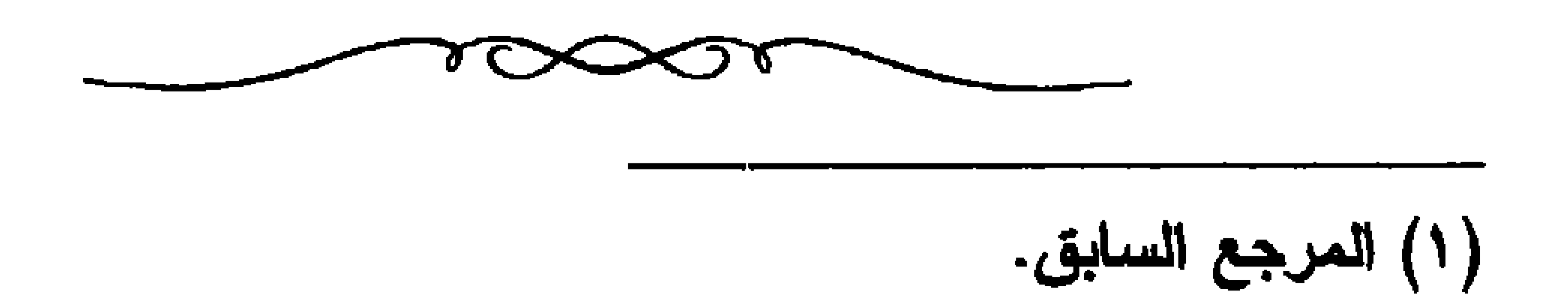
٥ - أن لا يعود جيش الروم (البيزنطيين) إلى مصر ولا يحاول استردادها .

٦ - أن يتعهد المسلمون أن لا يتعرضوا للكنائس بسوء .

٧ - أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.

٨ - أن يقدم الروم (البيزنطيون) للملمين مائة وخمسين من جنودهم، كرهائن ضمانا لتنفيذ العقد، الذى تم الاتفاق عليه فى سنة ٢١هـ/٦٤٢م.

وبخروج الروم (البيزنطيين) من الإسكندرية عقب هذه المعاهدة، صارت مصر واحدة من ولايات الخلافة الإسلامية، وأرسل عمرو بن العاص إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ يبشره بفتح مصر، فأرسل الخليفة إليه تقليدًا بولاية مصر على يد معاوية بن خديج، وعقب سقوط الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيًا إلى سائر الأقاليم فى مصر[1].



(١) المرجع السابق.

رسائل ومواقف أثناء الفتح
معبرة عن سماحة الإسلام نحو القبط

❖ فى أثناء فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص أرل المقوقس إلى عمرو رسالة يستأذنه فيها أن يبعث إليه رجالا من أصحابه؛ ليروا كيف يعيش المسلمون، وكانت رسالته تقول:

«أنتم قوم قد ولجتم فى بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم فى أرضنا، وأنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل، و إنما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا إلينا رجالاً منكم نسمع كلامهم، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ويقطع عنا وعنكم القتال، قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم تندمون إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم»(١).

فلما أتت عمرًا رسل المقوقس حبسهم عمرو عنده يومين وليلتين؛ حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه: «أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم، ويستحلون ذلك فى دينهم؟» وقد أراد عمترو بذلك أن يروا حال المسلمين، ثم رد عليهم عمرو بقوله: «إنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم فى الإسلام، فكنتم إخواننا فى الإسلام، وكان لكم ما لنا. وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين».

فلما جاءت رسل المقوقس إليه سألهم : كيف رأيتموهم ؟

فأجابوا: رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نَهْمَةٌ، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم

---

(١) تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح الإسلامى حتى عهد الأيوبيين، د/صبحى عبد المنعم صـ ٣٥ .

على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم.

فقال المقوقس: والذى يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد[1].

❖ وعندما كان المسلمون الفاتحون بالفرما، ظهر موقف القبط الشجاع تجاه المسلمين، فقد قدموا المساعدة الفعالة بعد انتهاء المعركة بهزيمة الروم، وذلك بتقديم الطعام للجيش والعلف للخيول، كما أنهم أقاموا لعمرو بن العاص قنطرة من السفن على نهر النيل أمام مدينة قليوب؛ ليعبر إلى البلاد الواقعة شرقى النيل لفتحها، وظلت تلك المساعدات القبطية للمسلمين على امتداد الطريق إلى الإسكندرية حتى تم فتحها.

إن هذه المساعدة كانت إثر كتاب بعثه أسقف الإسكندرية إلى القبط يأمرهم بأن يكونوا أعوانا للمسلمين الفاتحين[2].

❖ وعندما سيطر المسلمون على بلبيس كان بها (أرمانوسة) بنة المقوقس، وكان أبوها قد جهزها؛ لتسير إلى زوجها (قسطنطين بن هرقل) ولكنها عندما وصلت إلى فاقوس، علمت بنبأ رحيل قسطنطين إلى القسطنطينية، لذلك رجعت إلى بلبيس؛ فوقعت أسيرة فى أيدى المسلمين هى وجميع أموالها وحواريها ورجالها، إلا أن عمرًا أعادها إلى أبيها معززة مكرمة ومعها جميع ما أخذه المسلمون منها، فاكتسب عمرو بذلك احترام المصريين، وحفظ أبوها الجميل لعمرو[3].

❖ ومما يدل على أن المسلمين لم يسعوا إلى الضغط على المصريين لاعتناق الإسلام، بل تركوا لهم الحرية في ذلك، كما أن معاملة المسلمين للمصريين أثناء الفتح كانت طيبة، هذه الحادثة التى ذكرها الطبرى فى تاريخه فقال:

(١) عظمة الإسلام، مرجع سابق، ج١، محمد عطية الإبراشى صـــ ١٤٠ .
(٢) انظر: قبط مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الأموية، بهاء عزالرجال محمد خليل.
(٣) المرجع السابق .

أخذ العرب فى بعض مواقع القتال فى مصر بعض السَّبَايا من أهل البلاد، فأرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو بن العاص يطلبهم، فبعث عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستطلع رأيه فى ذلك، فأرسل إليه عمر أن يخيّر هؤلاء السّبَايَا بين اعتناق الإسلام والبقاء مع العرب وبين العودة إلى قومهم، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، ومن اختار العودة إلى قومه، وضع عليه من الجزية ما يوضع على مثله، فجمع العرب السبايا ليخيروهم كما أشار الخليفة، ووقف - على الجانبين - العرب والمصريون ينتظرون النتيجة، فكانوا إذا اختار أحد الأسرى الإسلام والبقاء مع العرب كبَّر العرب تكبيرة عالية، ثم حازوا الرجل إليهم، وإذا اختار الرجل العودة إلى قومه، صاح المصريون صيحة فرح وحازوا صاحبهم إليهم.

ويذكر الطبرى أن شابًا من المصريين يسمى (أبو مريم) عبد الله بن عبدالرحمن لما خيّر فى الفريق الذى ينضم إليه اختار الفريق العربى، فحازه العرب إليهم، وكان أبوه وأمه وإخوته فى صف المصريين، وحاولوا أن يجذبوه إليهم حتى إنهم شقوا ثيابه فرفض، واعتنق الإسلام وانضم إلى العرب.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن اختيار أهل مصر للإسلام، لم يكن فيه شيء من القسر أو الإكراه[1].

الحالة الدينية في مصر بعد الفتح الإسلامى

عقب انتهاء الأعمال الحربية بخروج الروم من مصر، واستقرار الأمور بها، بدأت مرحلة جديدة من تاريخها فى ظل السيادة الإسلامية، ولأن الأقباط كانوا يمثلون أغلبية كبيرة فى المجتمع المصرى، فقد آثر بعضهم الدخول فى الإسلام بمحض إرادته، وأصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات، ومنهم من ظل على دينه المسيحى، سواء أكان معتنقا للمذهب اليعقوبى أو الملكانى.

(١) تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح الإسلامى حتى عهد الأيوبيين صـ٣٩.

ومن ثم فقد أصبح المجتمع المصرى - بعد الفتح الإسلامى - يتكون من طبقتين :

١- أقباط ظلوا على دينهم المسيحى، فتمتعوا بالحرية الدينية التى كفلها لهم الإسلام.

٢- مسلمون بمحض إرادتهم؛ مما أدى إلى انتشار الإسلام فى مصر.

ونوضح هذا الإجمال بشىء من التفصيل كما يلى :

الحرية الدينية للأقباط فى مصر:

أما طائفة الأقباط التى ظلت على دينها المسيحى، فقد تغير وضعها الدينى فى ظل السيادة الإسلامية، عما كانت عليه فى العصر البيزنطى، وظهر هذا التغير فى عدة مظاهر أهمها : علاقة الولاة المسلمين برجال الدين المسيحى، وموقف المسلمين من دور العبادة للأقباط المسيحيين فى ظل الحرية الدينية لغير المسلمين التى كفلها لهم الإسلام.

وتظهر علاقة المسلمين برجال الدين المسيحى مع أول وإل مسلم على مصر، وهو عمرو بن العاص، الذى وجه نداء إلى البطريرك القبطى بنيامين - الذى ترك بطريركيته وهرب إلى الصحراء فرارا من اضطهاد المقوقس - بأن يحضر ليتولى شئون الأقباط المسيحيين الدينية وتنظيم أمورهم، وهذا يتضح من قوله : (الموضع الذى فيه بنيامين بطريرك القبط النصارى، له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر آمنا مطمئنا؛ ليدبر حال بيعته وسياسة طبقته).

فلما سمع بنيامين هذا النداء خرج من مخبئه، وتوجه إلى عمرو بن العاص وهو فرح مسرور، فقابله عمرو بن العاص بترحاب عظيم، وخاطبه قائلاً : (جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم).

ولقد كان لهذا التفويض الدينى من عمرو بن العاص لبنيامين، أثره فى نفوس الأقباط المسيحيين؛ فلقد أوجد رباطا من المحبة بينهم وبين المسلمين، وأعطى دلالة قوية على مدى تسامح المسلمين مع غيرهم، منذ العهد الأول للإسلام فى مصر، ومدى احترامهم للديانات السماوية الأخرى، وهذا - أيضا - يرد على من يزعم أن المسلمين

قد أجبروا غيرهم على الدخول فى دينهم، أو أنهم أساءوا معاملة الأقباط المسيحيين الدينية.

انصرف بنيامين من عند عمرو بن العاص، وقد وقع على كاهله عبء النهوض بالحالة الدينية مرة أخرى، بعد أن أصاب كنائسها الخراب والدمار فترة طويلة أثناء الحكم البيزنطى[1].

الأديرة والكنائس فى ظل الحكم الإسلامى:

عقب الفتح الإسلامى لمصر، بدأت حركة التعمير والتشييد للأديرة والكنائس، بتشجيع من الولاة المسلمين لرجال الدين المسيحيين، وعلى رأسهم بنيامين الذى قام بحركة عمرانية واسعة ؛ لإعادة الأديرة والكنائس إلى حالة تصلح لإقامة الشعائر، بعد أن أصابها الضعف والانهيار خلال فترة الحكم البيزنطى.

فبدأت تظهر من جديد فى وادى النطرون وغيره الأديرة التى عمرها الرهبان، فضلا عن ترميم وإعادة ما تهدم من كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية، و غيره ا وفى ولاية عمرو بن العاص الثانية (٣٨-٤٣هـ) قامت فى تلك الفترة، حركة نشطة فى الصحراء فى بناء الأديرة والكنائس[2].

كما كان المسلمون يقومون بالإنفاق على الكثير من الأديرة والكنائس، باعتبارها جزءًا من من المجتمع المصرى، وذلك بأن خصصوا جزءا من الخراج ينفق عليها منه.

وكان لأهل الذمة - بصفة عامة، وللأقباط فى مصر بصفة خاصة - الحرية الكاملة، فى ممارسة شعائرهم الدينية فى الأمصار الإسلامية فكانت النواقيس تدق، والأبواق ينفخ فيها، والمواكب الدينية تسير بالصلبان والمجامر دون اعتراض من أحد.

وكان يحدث فى أحيان قليلة أن يتولى على بلد والٍ متعصب، فيهدم كنيسة أو يهدمها مشاغبون، فكانت الدولة تسارع إلى بنائها أخذا بعهد عُمر بن الخطاب،

(١، ٢) انظر: قبط مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الأموية، بهاء عز الرجال محمد خليل.

وميثاقه لأهل إيلياء الذى حرم فيه على المسلمين، هدم الكنائس أو انتقاص شيء منها أو من حيزها. ويروى أن على بن سنان والى مصر للرشيد بين سنتى ١٦٩، و ١٧١ للهجرة، أمر بهدم بعض الكنائس المحدثة بمصر، فاشتكاه القبط إلى الرشيد فعزله، وخلفه على مصر والٍ جديد، أذن للقبط فى بناء الكنائس التى هدمها على بن سنان - الوالى قبلَه - بمشورة فقيهى مصر الكبيرين : الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، إذ قالا : إن تلك الكنائس من عمارة مصر، واحتجا بأن جميع الكنائس بمصر، إنما بنيت فى عهد الإسلام زمن الصحابة والتابعين(١).

انتشار الإسلام بين القبط:

بدخول المسلمين مصر فاتحين، بدأ بعض الأقباط يعتنق الإسلام جهارًا علانية، دون خوف من الروم، ولقد كانت البدايات الأولى فى التحول إلى الإسلام، مصاحبة لحركة الجيش الإسلامى. ثم بدأ الإسلام ينتشر تدريجيًا فى القرى التى فتحها المسلمون، بدءًا من الفرما - بصفتها أول الفتوحات فى مصر - وكان بعض الأقباط يبادر إلى اعتناق الإسلام فى كل موقع يستولى عليه المسلمون أثناء الفتح. وقد ضرب المسلمون المثل الأعلى فى الدعوة إلى الإسلام، فكان كلما وقع فى أيديهم أسير، خيّروه بين دينه وبين الإسلام، فإن أسلم كان من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دين قومه تركوه، وضربوا عليه الجزية، ويرجع إلى قومه سالما.

وقد كان لهذا السلوك من جانب المسلمين أثر فى نفوس الأقباط، الذين علموا أن الإسلام سوى بينهم وبين المسلمين الفاتحين، وأنهم أقرب إليهم مودة ورحمة؛ مما جعلهم يتقبلون هذا الدين، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(سورة المائدة، الآية ٨٢).

(١) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف صـ ٢٠.

ولعل من أسباب انتشار الإسلام بين القبط : أن الأقباط - فى بداية الفتح - كانوا قد سئموا الاضطهاد والتعذيب، من البيزنطيين، الذين كانوا عليهم أشد من الوحوش الضارية، فوجدوا الأمن فى ظلال الدين الجديد، فأسلم فريق منهم رغبة فى هذا الأمن. وربما أن المسيحية لم تتغلغل فى نفوسهم، وتنصهر مع ذاتهم بعمق، لأنهم لم يعرفوا جوهرها، فاعتنقوها بصورة سطحية، فلما جاء الإسلام تحولوا إليه بصورة طيبة فرادى وجماعات.

وعلى كل فقد اقتنع كثير من الأقباط، بالإسلام وحسن معاملة المسلمين لهم، وقد كان الولاة كثيرا ما يوجهون النصح والأوامر، بعدم الإساءة إلى الأقباط؛ فوقع الإسلام فى نفوسهم موقع القبول والرضا من جراء هذه المعاملة الحسنة، والسهولة فى عقيدته وأيقنوا أن الإنسان مسئول أمام الله وحده عن عمله، دون واسطة من راهب أو قسيس، فاتجهوا إلى الإسلام، ومن أجله تعلموا لغته، وعاشوا فى أمنه، ورغبوا فى معرفة علومه[1].

الحالة الاجتماعية فى مصر
(التعايش السلمى بين المسلمين والأقباط)

بعد تمام الفتح الإسلامى وخروج البيزنطيين من مصر، أصبح المجتمع المصرى يتكون من المسلمين والأقباط، وبعض الإغريق الذين خضعوا للمسلمين، ورغبوا فى دفع الجزية وعدم مغادرة مصر. وكان المسلمون هم أصحاب السلطة فى البلاد؛ فكانت لهم المناصب العليا فى مصر باعتبارهم فاتحين، وبيدهم الإشراف على أمورها.

أما الأقباط - وهم يمثلون الطبقة الثانية - فى المجتمع الجديد، فقد ترك المسلمون لهم إدارة الشئون المالية والإدارية؛ حيث كانوا على معرفة تامة بالحرف والصناعات والزراعات المختلفة فى مصر، فقاموا بالنهوض بهذه النواحى خير قيام، منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية الدولة الأموية.

---

(١) انظر: قبط مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الأموية، بهاء عز الرجال محمد خليل.

وهذه الطبقة ـ طبقة الأقباط ـ يمكن تقسيمها إلى ثلاث طوائف ، وذلك تبعا لمستواها الاقتصادى والاجتماعى فى مصر.

الطائفة الأولى: الرؤساء والمشاركون فى الإدارة:

وهؤلاء كانوا ملازمين للمسلمين، الذين استعانوا بهم غداة الفتح الإسلامى لمصر، حيث عين المسلمون منهم حكاما لأقاليم مصر المختلفة. فقد ولىّ عمرو بن العاص أحد زعماء القبط حاكمًا على أقليم مصر السفلى، وهذا الحاكم يسمى (حنا الدمياطى).

كذلك اختص الأقباط ـ الذين لديهم الخبرة المالية والإدارية بشئون الدواوين ـ بالأعمال الحسابية، فكانت إدارتها تحت أيديهم منذ الفتح الإسلامى، حتى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١هـ) الذى أمر أن يتولى المسلمون وحدهم هذه النواحى الإدارية.

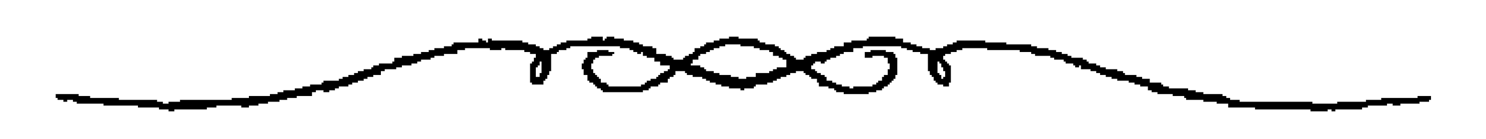
وكان والى الصعيد فى أواخر ولاية عبد العزيز بن مروان قبطيًّا اسمه (بطرس) وقد اعتنق الإسلام، كما كان حاكم مريوط قبطيًّا اسمه (تاو فانس). كما كانت جباية الخراج أيضا تتم بواسطة الأقباط المنوط بهم تأدية هذه الوظيفة، ولا شك فى أن هذه الطائفة التى تولت نظام الإدارة وتقربت من السلطة الإسلامية الحاكمة، قد حققت مركزا اجتماعيا مرموقا، بالإضافة إلى تكوين ثروات كبيرة؛ فكانوا فى طليعة طبقات الأقباط من الناحية الاجتماعية والاقتصادية.

الطائفة الثانية: طائفة التجار والصناع:

تتبوأ هذه الطائفة المكانة الاجتماعية الثانية، بعد الرؤساء المشاركين فى العمل الإدارى بجانب المسلمين، فقد قام التجار والصناع بدور مهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ كانوا أهل يسار وثروة، فكثر المال لديهم، وارتفع مستواهم الاجتماعى، وهؤلاء كانوا يسكنون فى منازل تتناسب مع وضعهم الاقتصادى والاجتماعى.

الطائفة الثالثة: طائفة الفلاحين والزراع:

قامت هذه الطبقة بزراعة الأرض وفلاحتها ، وهى أقل طوائف الأقباط فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى، وهى طائفة تعيش فى الريف بجوار حقولهم ، وكانوا يعتمدون فى حياتهم على ما تنتجة الأرض من غلات وفواكه، وما يستطيعون الحصول عليه من نتاج حيواناتهم، وكانت مساكنهم بسيطة مكونة فى الغالب من طابق واحد ، ويشاركه فى مسكنه حيواناته التى يعتمد عليها فى حقله وزراعته[1] .



قصة مارية مع المأمون

ومما يدل ـ بوضوح ـ على أن أهل مصر من القبط ، كانوا يعيشون فى رخاء مستمر متمتعين بالحكم العربى العادل، وحسن المعاملة بينهم وبين المسلمين، خبر رواه المقريزى فى أثناء زيارة المأمون العباسي لمصر سنة ٢١٧هـ إذ مر بقرية فى الدلتا تسمى (طاء النمل)، وكان بها ضيعة كبيرة لسيدة قبطية تسمى (مارية) فتعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده، فى رحلته إلى الفسطاط عاصمة مصر حينئذ ، وعجب لكثرة ما قدمت لهم من أطعمة.

فلما أصبح جاءته ومعها عشرة وصائف، مع كل وصيفة طبق، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى. فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس مملوء ذهبا ، فشكرها وأمرها برده، فأبت إباء شديدا ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام واحد ، فقال: هذا والله أعجب، وتوسلت إليه أن يقبلها فتمنع وقال لها: ردى مالك، بارك الله لك فيه. فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين، هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من الذهب شىء كثير فأخذه المأمون لبيت المال وأقطعها عدة ضياع، وكأنه رأى ـ وهو محق ـ أن لا يأخذ الذهب من السيدة القبطية دون مقابل.

---

(١) المرجع السابق.

وفى هذه القصة دلالة على أن ما كان فيه قبط مصر المسيحيون، من ثراء فمرده إلى خصب الأرض، وإلى أن حكام مصر المسلمين، لم يكونوا يثقلون على أصحاب الأرض من الأقباط بالضرائب الباهظة، وإلى أنه كان يسود الحكم عدل عظيم، شهدت به السيدة القبطية (مارية) للمأمون .

وفى هذه القصة دلالة - أيضًا - على أن الحياة بين القبط والمسلمين، كانت حياة أمن وتعاون وسلام دائم طوال العصور الإسلامية، ولم يحدث بينهما ما يعكر صفو حياتهما، وإن حدث بين بعض أفرادهما شقاق يوما ما، عاد الوئام سريعا، شاعرين بأنهم أفراد أسرةٍ وطنية واحدة فى أرض مصر الطيبة المباركة(١).

الأعياد والمناسبات الدينية

كانت الأعياد - ولا تزال - مظهرا من مظاهر الروابط الاجتماعية، التى تربط أفراد المجتمع الواحد، والمصادر التاريخية تؤكد مشاركة المسلمين لإخوانهم المسيحيين فى أعيادهم، وكثيرًا ما كان الخلفاء والحكام فى مصر، يشاركون فيها بأنفسهم أو بممثلين عنهم، مما يدل على الترابط الاجتماعى، الذى لا يُعكر صفوه الاختلاف الدينى، وحرص الفريقين على حسن العلاقة التى نشأت بينهما .

هذا، والأقباط المسيحيون كانت لهم أعياد كثيرة، بلغت الأربعة عشر عيداً وهى تنقسم إلى قسمين : قسم للأعياد الكبار وهى سبعة، وهناك سبعة أخرى تسمى بالأعياد الصغار، والأعياد الكبار هى :

١ - عيد البشارة : وهذا العيد لأنهم يعتقدون أن جبريل بشّر مريم بنة عمران بميلاد عيسى عليه السلام، ويقومون بإحيائه فى التاسع والعشرين من برمهات .

٢ - عيد الزيتون : ويسمى عيد الشعانين، ويحتفلون به فى يوم الأحد السابق لعيد الفصح، وطريقتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخيل من الكنيسة.

---

(١) عالمية الإسلام، د/ شوقى ضيف صـ ٢٣، ٢٤ .

٣ ـ عيد الفصح : وهو العيد الكبير عندهم، ويزعمون أن المسيح قام بعد الصلب بثلاثة أيام ودخل على تلاميذه، وسلم عليهم وأكل معهم، وهذا العيد يعرف بعيد القيامة.

٤ ـ خميس الأربعين : ويطلق عليه عيذ الصعود ، ويحتفل به بعد مضى أربعين يوما من الفطر.

٥ ـ عيد الخميس : ويقام بعد مضى عشرة أيام من الصعود . وخمسين يوما من قيام المسيح.

٦ ـ عيد الميلاد : ويزعم رجال الدين المسيحى أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح، ويحتفل به عشية الأحد فى التاسع والعشرين من كيهك.

٧ ـ عيد الغطاس : ويسمى بعيد المعمودية، ويحتفلون به فى الحادى عشر من طوبة.

أما الأعياد الصغار فهى:

١ ـ عيد الختان : فى السادس من شهر بؤونة.

٢ ـ عيد الأربعين : فى الثامن من شهر أمشير.

٣ ـ خميس العهد : وهذا العيد يحتفل به قبل عيد الفصح بثلاثة أيام.

٤ ـ سبت النور : ويحتفل به قبل عيد الفصح بيوم واحد.

٥ ـ عيد الحدود : ويحتفل بهذا العيد بعد عيد الفصح بثمانية أيام.

٦ ـ عيد التجلى : ويكون فى الثالث عشر من شهر مسرى.

٧ ـ عيد الصلبوت : ويحتفل به فى اليوم السابع عشر من شهر توت.

وكانت لهم أعياد أخرى مشهورة، مثل عيد النيروز الذى يوافق أول السنة القبطية، وهو أول يوم من شهر توت، وعيد وفاء النيل(١).



(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها صـ ١٥٠،١٥١ .

قصة عيد وفاء النيل

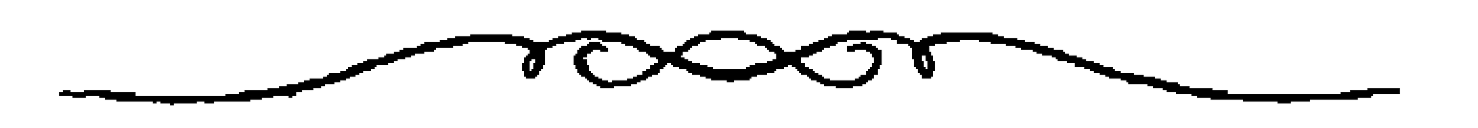
كان الأقباط يحتفلون به في شهر بؤونة، فلما خضعت مصر للمسلمين، أتى الأقباط إلى عمرو بن العاص، وقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سُنّة متبعة لا يجرى النيل إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟

قالوا: إذا كان لثنتى عشرة ليلة مضت من هذا الشهر (بؤونة) عمدوا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل.

فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله.

فأقاموا بؤونة، وأبيب، ومسرى، وهو لا يجرى إلا قليل، فكتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بذلك، فرد عليه عمر بن الخطاب برسالة إلى نيل مصر قال فيها: (إن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك).

وألقى عمرو بن العاص بهذه الرسالة، فى النيل قبل يوم الصليب، فأجرى الله النيل، وبلغ الماء ستة عشر ذراعا(١).



ما يميز أقباط مصر عن عامة المسيحيين

(المذهب الأرثوذكسى ـ اللغة القبطية ـ التقويم القبطى)

المذهب الأرثوذكسى:

تدل كلمة أقباط على أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية القبطية فى مصر، والمعروفة باسم كنيسة الإسكندرية.

❖ ومنذ عام ٨٧٩م أصبح يمثل الأرثوذكس كنيستان:

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها صـ ١٥٠،١٥١ .

١ـ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية أو القبطية، والمعروفة باسم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية أو كنيسة الإسكندرية، التى تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وتضم كنائس الحبشة والسودان .

٢ـ الكنيسة الأرثوذكسية أو كنيسة القسطنطينية، والمعروفة باسم كنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقية، والتى تخالف الكنيسة المصرية فى طبيعة المسيح، وتؤمن بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، وتضم كنائس أورشليم واليونان وروسيا وأوربا الشرقية.

❖ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية يدعى أصحابها أن مؤسسها مرقس الرسول عام ٢٤٥م .

❖ ظهرت بوادر الانفصال المذهبى للكنيسة المصرية، منذ أن جعل الإمبراطور (ثيودوسيوس) كنيسة القسطنطينية هى الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقية عام ٣٨١م، وأن كنيسة الإسكندرية تليها فى المرتبة .

❖ تم الانفصال الرسمى للكنيسة المصرية عام ٤٥١م، عندما عقد مجمع كليدونية، ليقرر لعن (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية ونفيه، بل وتعيين بطريرك ملكانى خلفا له؛ الأمر الذى دفع الكنيسة المصرية لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كليدونية ولا بقراراته، مما سبب مزيدا من الاضطهاد للمصريين؛ لحمل الكنيسة المصرية على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينية .

❖ هكذا عاشت الكنيسة المصرية سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام ٤٨٢م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقى عن كنيسة القسطنطينية.

❖ سرعان ما عاد الاضطهاد مرة أخرى للكنيسة المصرية، بعدما ولّى هرقلُ المقوقس حكم مصر بعد استردادها من الفرس عام ٦٢٨م؛ فى محاولة منه لتوطيد أركان ملكه عن طريق توحيد عقيدة الإمبراطورية على مذهب الطبيعتين، فلم يأل المقوقس جهدًا فى إنفاذ ذلك، كما لم يعدم حيلة، مستخدما الترغيب تارة والترهيب والتنكيل تارة أخرى، مما دفع بطريرك

الكنيسة المصرية (بنيامين) للهروب إلى الصحراء ، وأن يكتب إلى جميع أساقفته باللجوء إلى الجبال والبرارى فرارًا بعقيدتهم.

❖ ولم يكتب للأقباط الأرثوذكس الأمان والاستقرار فى مصر، إلا بعد أن ظهرت طلائع الفتح الإسلامى فى جزيرة العرب، حيث رحبت بها الكنيسة المصرية، لتنجو من ظلم واضطهاد إخوانهم نصارى الإمبراطورية البيزنطية[1].

التقويم القبطى:

اختار الأقباط المصريون مبدأ تاريخهم، اليوم الذى وافق ٢٩ من أغسطس من عام (٢٨٤م)، ويعود ذلك إلى أن الإمبراطور (دقلديانوس) قتل كثيرًا من أقباط مصر آنئذ ، حتى أنهم أطلقوا على الفترة التى حكم فيها مصر اسم عصر الشهداء ، وجعلوا مبدأ حكمه بداية لتاريخهم.

ويقوم التقويم القبطى على أساس التقويم المصرى القديم.

وفى السنة القبطية اثنا عشر شهرا ، كل منها ثلاثون يوما ، ويضاف بعد نهاية الشهر الثانى عشر خمسة أيام لكل سنة بسيطة، و ستة أيام لكل سنة كبيسة تسمى أيام النسىء ، وتعرف فى القبطية بالشهر الصغير، وتكون السنة كبيسة أى (٣٦٦ يوما) إذا قبلت القسمة على ٤ ، وإلا فبسيطة.

وأسماء الشهور القبطية هى نفسها أسماء الشهور المصرية القديمة وهى:

١ـ توت ٢ـ بابة ٣ ـ هاتور ٤ـ كيهك ٥ـ طوبة ٦ـ أمشير ٧ـ برمهات ٨ـ برمودة ٩ـ بشنس ١٠ـ بؤونة ١١ـ أبيب ١٢ـ مسرى[2].

اللغة القبطية:

تعتبر اللغة القبطية الصورة الأخيرة، لتطور اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية)، وكانت مستخدمة بجانب اليونانية، التى كانت اللغة الرسمية منذ العصر البطلمى، فاللغة القبطية الحالية هى اللغة المصرية القديمة، بعينها فى اللفظ دون الخط.

---

(١) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، (٢/٥٨٤ــ ٥٨٥) .
(٢) الموسوعة العربية العالمية (٧/٨٠) وموسوعة القرن العشرين (٧/٦١٤ــ٦١٧).

وكانت اللغة القبطية هى لغة الأمة المصرية، إلى حين احتلال العرب لمصر، فإنهم نقلوا الدواوين إلى اللغة العربية، وأول من نقلها هو واليها عبد الله بن عبد الملك، وكانت قبله بالقبطية .

قال المقريزى: ونسخ عبد الله الدواوين (أى السجلات الحكومية) بالعربية.

بقى أن نبين أن السبب فى ضياع اللغة القبطية، وحلول اللغة العربية محلها، هو أن العرب لما دخلوا مصر ورفعوا عن عاتق الأقباط نير الحكم الرومانى القاسى، ونشروا فى ربوع البلاد روح الحرية والعدل والمساواة، تلك الروح التى ساوت بين العربى الفاتح والقبطى المغلوب على أمره، حيث انبسطت القلوب لاستشراق هذا النور المنبعث فى سماء مصر فاندفعت الألوف المؤلفة من الأقباط لاعتناق الإسلام حبًّا فيه وفى أهله .

ولما كانت اللغة تابعة - فى تلك العصور - للعقيدة، فقد اعتراها الضعف، بكثرة دخول المصريين فى الإسلام، وميل الباقين من أهلها على ملتهم للتقرب من العرب مصدر طمأنينتهم وراحتهم، وظل أهل الصعيد يتكلمون بها، حتى ضعفت وأفل نجمها، وزالت نهائيا فى أواخر القرن الثامن عشر، ويتكلم الأقباط كسائر المصريين اليوم اللغة العربية[1].



(١) موسوعة القرن العشرين/ محمد فريد وجدى (٧/٦١٤).

الفصل السابع
الأحكام الخاصة بغير المسلمين

وضع القرآن الكريم قاعدة تعد الدستور الأساسي في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس، وذلك في قوله تعالى ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(سورة الممتحنة، الآية٨).

ولقد شرع الإسلام عدة عقود تسهم في توسيع دائرة التعاون والتعامل بين المسلمين وغيرهم وهذه العقود هي: المعاهدات وعقد الذمة وعقد الأمان والمسلم يبذل دمه وروحه، وكل ما يملك لأجل حماية الدين من أهل الملل المختلفة واستمرار بقاء معابدهم؛ ولذلك يقول ابن قيم الجوزية: «و إن الله عز وجل يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعًا وقدرًا، فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أديانها وإن كان يبغضهم».

حقًا إن الدين الإسلامي دين العقلانية والموضوعية والالتزام، ودين الحرية الفكرية والدينية، ولذا كان معظم الذين دخلوا في الإسلام دخلوه بسبب تطبيق مبدأ التسامح، والكلمة الطيبة، والمعاملة الحسنة، وأعلى درجات التسامح ؛ألا تضيق على المخالفين لك فيما يعتقدون من حلال في دينهم، ولو كنت تعتقد أنه حرام في دينك، وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة، لقد ارتفعوا معهم إلى الدرجة العليا من التسامح، لأنهم تركوهم يفعلون كل ما يعتقدون أنه حلال في دينهم، وتركوهم وما يدينون.

وواجب المسلمين في كل دولة إسلامية مراعاة حقوق إخوانهم من غير المسلمين، وأن يعلم الجميع أن الإسلام ورسوله ﷺ قد عاملا غير المسلمين معاملة حسنة على أنهم شركاء في الوطن[1].

(١) بتصرف من كتاب: التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، ص١٧٦:١٨٧.

الفصل السابع

الأحكام الخاصة بغير المسلمين

من هم غير المسلمين؟

للإجابة على هذا السؤال، أقول وبالله التوفيق : إن غير المسلمين أصناف كثيرة، يجمعهم كيان واحد، وهو عدم الدخول فى الإسلام، وإن كان لكل صنف منهم اسم خاص به .. وقد جمعت الآية القرآنية الكريمة فى سورة الحج أسماء غالبيتهم. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة الحج، الآية١٧).

وهذا تعريف موجز لكل صنف منهم:

أولا: الصابئة: وهم الذين يعتقدون فى الكواكب، ويؤمنون بتأثيرها على الكون .

ثانيا: المجوس: وهم عبدة النيران القائلون بأن للعالم إلهين اثنين مديرين للعالم، قديمين يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، ويسمى أحدهما النور، والثانى الظلمة.

ثالثا: المشركون: وهم الذين يقرون بربوبية الله تعالى ولكنهم يشركون معه غيره فى العبادة، كعبدة الأوثان من العرب، وعبدة الشمس وعبدة الملائكة ومثلهم الملحدون فى عصرنا هذا، كالشيوعيين ومن كان على شاكلتهم .

رابعا: أهل الكتاب، وهم أهل الذمة ومعناها : أهل العهد والضمان، والحرمة.

وفى اصطلاح الفقهاء : أهل الذمة هم المعاهدون من اليهود والنصارى ومن فى حكمهم ممن يقيم فى دولة الإسلام، وسموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله ﷺ وعهد جماعة المسلمين، على أن يعيشوا فى حماية الإسلام وتحت راية المجتمع

الإسلامى آمنين مطمئنين، وهذه الذمة تشبه حاليا ما يسمى فى العرف البشرى والسياسى باسم (الجنسية) التى تعطيها الدولة لرعاياها[1].

- ١ -

الأحكام التى تجرى على أهل الذمة(*)

تجرى أحكام الإسلام على أهل الذمة (اليهود والنصارى)، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وذلك بشرطين:

الشرط الأول: أن يلتزموا أحكام الإسلام فى الجملة.

الشرط الثانى: أن يؤدوا الجزية.

والأصل فى هذا قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

(سورة التوبة، الآية٢٩)

وروى البخارى أن المغيرة قال - يوم نهاوند - : «أمرنا نبينا أن نقاتلكم، حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية».

والإسلام بهذا كفل حريتهم الدينية، على نحو ما ذكرناه سلفا، هذه واحدة.

الثانية: أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره، فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر، ما دام ذلك جائزا عندهم، وهو بهذا وسّع عليهم أكثر من توسعته على المسلمين، الذين حرم عليهم الخمر والخنزير.

الثالثة: فى الأحوال الشخصية أبيح للذمى كل زواج يقره دينه، وإن خالف الدين الإسلامى، وأبيح له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام.

---

(١) راجع: التسامح فى الفكر الإسلامى، ص (١٦٧:١٦٩).

(*) هذه الأحكام سبق ذكر معظمها فى مواضع متكررة فى هذا الكتاب، خاصة عند الكلام على حقوق وواجبات غير المسلمين بالفصل الثالث.

وليس للإسلام أن يتعرض للذميين فى شىء من هذا، إلا إذا احتكموا إليه .

الرابعة : أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم، بشرط أن يكون المذبوح مما يحل للمسلمين أكله، قال تعالى : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾(سورة المائدة، الآية٥).

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يأكلون من طعام أهل الكتاب.

الخامسة : حمى الإسلام كرامتهم، وصان حقوقهم، وجعل مال الذمى مصون كمال المسلم، عملا بالحديث الذى رواه البيهقى : «من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1].

السادسة : أحل الإسلام للمسلم أن يتزوج نصرانية أو يهودية، وتبقى على دينها، ولها على زوجها من الحقوق مثل ما للزوجة المسلمة، قال تعالى : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾(سورة المائدة، الآية٥).

بل من حق زوجة المسلم اليهودية أو النصرانية أن تذهب إلى الكنيسة أو إلى المعبد، ولا حق لزوجها فى منعها من ذلك.

السابعة : للمسلم أن يعطى صدقة الفطر والتطوع، للفقير الذمى من أهل بلده.

الثامنة : جعل لهم حق الحرية فى الجدل والمناقشة، فى حدود العقل والمنطق، مع التزام الأدب، والبعد عن الخشونة والعنف[2].

(١) انظر: السنن الكبرى، البيهقى، جـ٥، ص٢٠٥.
(٢) انظر مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفى، مرجع سابق، ص٥١ـ٥٦.

وهذه طائفة من الأحكام يتساوى فيها المسلم والذمي:

١- هما سواء في القصاص: - (في بعض المذاهب) - فالنفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف ... وهما سواء في الديات والضمان والتعازير، يجرى على الذمي فيها ما يجرى على المسلم(١).

٢- سوى الإسلام في الحرمان من الميراث بين المسلم والذمي، فلا يرث المسلم قريبه الذمي، ولا يرث الذمي قريبه المسلم، ولا يرث الزوج المسلم زوجته الكتابية، وكذلك لا ترث الزوجة الكتابية زوجها المسلم، وليس هنا منفذ للاعتراض؛ لأن الإسلام أبطل ميراث الزوج، كما أبطل ميراث الزوجة، وفي هذا عدل وسماحة، والأصل في هذا أن الإسلام يجعل اختلاف الدين مانعا من الإرث .

٣- المساواة بين الجميع في الكرامة الإنسانية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (سورة الإسراء، الآية ٧٠ فصان الإسلام كرامتهم، وصان حقوقهم، وجعل مال الذمي مصون كمال المسلم، عملا بالحديث: «من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»(٢).

٤- للمسلم أو الذمي خمس الركاز، الذى يعثر عليه في غير ملك أحد، وللدولة أربعة أخماسه .

٥- أباح الإسلام للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة، من بيع وشراء وتجارة ... ولهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم، وغير ذلك من العلاقات الاجتماعية، التي أساسها المودة والتآلف مثل كفالة الأيتام، والتزاور وحسن الجوار، وتبادل الأطعمة والهدايا .. .



(١) هذا ليس على إطلاقه، لأنه ثبت عن النبي ﷺ. أنه جعل دية الكتابي على نصف دية المسلم، وعدم قتل المسلم بالكافر، وغير ذلك .
(٢) انظر: السنن الكبرى، البيهقي، جـ٥، ص٢٠٥.

- ٢ -

ميثاق أهل الذمة

وضع الفقهاء دستورا للعهود التى يعقدها الحكام المسلمون مع أهل الذمة، لا يتعداه المتعاهدون، وهو يدل على مدى تسامح أئمة المسلمين مع الذميين.

جاء فى العهد الذى وضعه الإمام الشافعى:

« .. على أن أحدًا منكم إن ذكر محمدًا ﷺ أو كتاب الله - عز وجل - أو دينه، بما لا ينبغى أن يذكره به فقد بُرِئت منه ذمة أمير المؤمنين، وذمة جميع المسلمين. ونَقْض ما أعْطَى عليه الأمان، وحل لأمير المؤمنين مالُه ودمُه، كما تَحُلّ أموالُ أهل الحرب ودماؤهُم.

وعلى أن أحدا من رجالكم إن أصاب مسلمةً بزنا، أو قَطَع الطريق على مسلم، أو فَتَن مسلمًا عن دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال، أو بدَلاَ لةٍ على عورة المسلمين أو إيواءٍ لعيونهم - أى جواسيسهم - فقد نَقَضَ عهدَه، وأُحِلّ دمُه ومالُه، وإن نال مسلمًا بما دون هذا فى ماله أو عرضه، لزمه فيه الحكم.

وعلى أن تتبع أفعالُكم فى كل ما جرى بينكم و بين المسلم، فما كان لا يحل لمسلمٍ مما لكم فِعلُه رددناه، وعاقبناكم عليه، وذلك أن تبيعوا مسلمًا بيعًا حرامًا عندكم من خمر أو خنزير أو دمٍ أو ميتة أو غيره، ونُبطل البيع بينكم فيه، ونأخذ ثمنَه منكم إن أعطاكُموه، ولانردُّه عليكم إن كان قائمًا، ونُهْرِيقه. إن كان خمرًا أو دما، أو نحرِقه إن كان ميتةً، وإن استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقِبكمُ عليه وعلى ألا تُسقوه أو تطعموه محرَّمًا، أو تزوجوه بشهود منكم، أو بنكاح فاسد عندنا.

وما بَايعْتُم به كافرًا منكم أو من غيركم لم نَتْبعكم فيه، ولم نسألكم عنه ماتراضيتم به، وإذا أراد البائع منكم أو المبتاعُ - المشترى - نقض البيع، وأتانا طالبًا له، فإن كان مُنْتقضًا عندنا نَقَضْناه، وإن كان جائزًا أجزناه، إلا أنه إذا قَبضَ البيْعَ لم يَردُدْه لأنه بيعٌ بين المشركين.

ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر؛ ليتحاكم [إلينا] أجريناكم على حكم الإسلام، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه.

وإذا قتلتم مسلمًا أو معاهدًا منكم أو من غيركم خطأً فالديةُ على عاتقكم، كما تكون على عواتق المسلمين، وإن قَتَل منكم رجل بلا قرابة فالديةُ عليه في ماله، وإذا قَتَل عمدًا فعليه القصاص، إلا أن تشاء ورثة المقتول ديَّتَه فيأخذونها .

ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه إذا سرق ما يجب فيه القطع وغُرِّم.

ومَنْ قَذَف وكان للمقذوف حدٌّ حُدَّ له، وإن لم يكن له حد عُزِّر، حتى تكون أحكامُ الإسلام جاريةً عليكم بهذه المعاني فيما سمَّينا وما لم نُسَمِّ.

وأن يؤدىَ كلٌّ يافع - بالغ - من أحرار رجالكم غيرَ مغلوبٍ على عقله جزية رأسه دينارًا في رأس كل سنة، ولا يكونُ له أن يَغيب عن بلده حتى يؤدِّىَ أو يقيم به مَن يؤديه عنه، ولا جزيةَ على أبنائكم الصغار، ولا على صبي غير بالغ، ولا على مغلوب على عقله - أي مجنون - ولا مملوك، ولا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم، ما أقمتم في بلادكم واختلفتم - ترددتم - ببلاد المسلمين غير تجار.

وإن اختلفتم بتجارة - على أن تُؤَدوا من جميع تجارتكم العشر إلى المسلمين - فلكم دخولُ بلاد المسلمين إلا مكة، والمقام - الاستقرار - بجميع بلاد المسلمين كما شئتم إلا الحجاز، فليس لكم المقام - الاستقرار - ببلدٍ منها، إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا - ترحلوا - منه .

ولكم أن نمنعكم - وما يحل ملكه عندنا لكم - ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلمٍ مما نمنع به أنفسنَا وأموالَنا، ونُحلُّ لكم فيه على ماجَرَى حُكمنا عليه بما نحكم به في أموالنا.

وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم، وألا تغشوا مسلما، ولا تظاهروا - تساعدوا - عدوهم عليهم بقول ولا فِعْلٍ.

ولكم عهدُ الله وميثاقُه وذمةُ فلانٍ أميرِ المؤمنين وذمةُ المسلمين بالوفاء لكم، فإن غيرّتم أو بدّلتم فذمةُ اللهِ ثم ذمة فلان أميرِ المؤمنين والمسلمين بريئةٌ منكم، ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرَضيه إذا بلغَه فهذه الشروط لازمةٌ له ولنا، ومنْ لم يرْضَ نبذنا إليه»(١).

قام ميثاق أهل الذمة على هذه الأسس :

١ ـ المسلمون مقيّدون فى صلتهم بالذميين بأحكام الإسلام، فلا مجال للهوى أو التعسف .

٢ ـ تبرأ ذمة المسلمين من عهدهم للذميين إن خان الذميون عهدهم .

ولهذه الخيانة مظاهر شتى :

❖ منها أن يتهجم الذميون على القرآن الكريم، أو النبى ﷺ ، أو الدين الإسلامى، فهم بهذا خائنون، وللمسلمين حينئذ الحق فى حرب الخائنين واستحلال أموالهم، لأنهم مثل المحاربين الذين تحل دماؤهم وأموالهم.

❖ ومنها أن يعتدى الذميون على أعراض المسلمات، أو يقطعوا الطريق أو يردوا مسلمًا عن دينه، أو يساعدوا أعداء المسلمين المحاربين لهم بالمال أو بالتجسس أو بالإيواء .

وهم فى هذه الحالة أهل غدرٍ وخِيانة؛ لأنهم لم يراعوا عهدهم الذى عاهدوه، فمن واجب الدولة أن تضرب على أيديهم؛ لتكفل للشعب الأمن والسلامة والطمأنينة .

٣ ـ أما عن تعاملات أهل الذمة، فإما أن تكون مع مسلم، وإما أن تكون مع ذمى مثله.

❖ فإن كان تعامله مع مسلم، فإن كان فيما جرى بينهما ما يحرمه الإسلام ـ كالخمر والخنزير ـ أبطله الحاكم وعاقب عليه .

---

(١) الأم للشافعى (٤/١١٨) .

❖ وإن كان التعامل بين ذمى وذمى ، فلا شأن للحاكم المسلم به ، سواء أوافق الإسلام أم خالفه ، فإذا اختصم أحدهم إلى الحاكم المسلم كانت أحكام الإسلام هى الفيصل.

٤ ـ وأهل الذمة يعاقبون على القتل كما يعاقب المسلمون ، فإذا قتلوا مسلما أو ذميًا خطأ فالدية عليهم ، كما تكون على المسلمين إذا قتلوا ، والقصاص جزاء للقتل العمد .

ويعاقبون على السرقة بقطع اليد كما يعاقب المسلمون ، ويحدون على القذف أو يعزرون كالمسلمين، لأنهم جزء من الشعب، لابد أن يخضعوا للقانون العام الذى تطبقه الدولة .

٥ ـ وعلى الذميين أداء جزية الرءوس، وهى ضريبة مخففة، مقابل منافع كثيرة تكفلها الدولة لهم، ومقابل الزكاة التى تأخذها الدولة من المسلمين، وعليهم العشر فى التجارة.

٦ ـ والدولة الإسلامية مكلفة بحماية الذميين وأموالهم من عدوان المسلمين وغيرهم، ومكلفة أن تمنع عنهم الظلم الذى تمنعه عن المسلمين؛ لأنهم بعض الرعية .

٧ ـ والذميون مكلفون أن يفُوا بالعهد الذى عقدوه، فإن نقضوه برئت ذمة المسلمين من عهدهم(١) .



ـ ٣ ـ

الزواج فى حال اختلاف الدين

عندما يكون أحد الزوجين مختلفا عن الآخر فى الديانة، فإن ذلك يشمل أكثر من صورة ولكل حكم وأسرار فى شريعة الإسلام، ومن ذلك :

❖ أن يتزوج المسلم بمشركة أو كتابية.

❖ عكسها زواج المسلمة بمشرك أو كتابى .

(١) انظر: مختارات من سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفى ص ٢٨ـ٣٠ .

فبالنسبة للصورة الأولى (زواج المسلم بمشركة) : فقد اتفق الفقهاء على أنه لا يحل للمسلم أن يتزوج المشركة، سواء أكانت وثنية، أو زنديقة، أو معتنقة لمذهب من المذاهب التى لا تعترف بوجود الله تعالى، كالوجودية والشيوعية ومن هم على شاكلتهم، أو مرتدة عن الإسلام وذلك من أجل المحافظة على دينها وعرضها ونسلها ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ ﴾(سورة البقرة، الآية ٢٢١).

قيل: نزلت هذه الآية فى أبى مرثد الغنوى، بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة سرا ؛ ليخرج رجلا من أصحابه، وكانت له بمكة امرأة يحبها فى الجاهلية، يقال لها: عناق، فجاءته، فقال لها : إن الإسلام حرم ما كان فى الجاهلية.

قالت: فتزوجنى. قال: حتى أستأذن رسول الله ﷺ . فأتى رسول الله فاستأذنه، فنهاه عن التزوج بها ؛ لأنه مسلم وهى مشركة(١).

أما عن الصورة الثانية: (زواج المسلمة بغير المسلم) فقد أجمع الفقهاء قاطبة على أنه لا يحل للمسلمة أن تتزوج غير المسلم، سواء أكان مشركا أم من أهل الكتاب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾ (سورة الممتحنة، الآية ١٠) فقد حرمت هذه الآية زواج المسلمات بغير المسلمين .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، ط دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٣هـ، (٦٧/٣).

وحكمة ذلك: أن للرجل حق الولاية والسلطان عليها، وهو القوام عليها ووليها فى كثير من التصرفات، والمسئول عنها فى كثير من التبعات، وما كان لكافر أن يكون له سلطان على مسلم أو مسلمة؛ يقول الله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (سورة النساء، الآية١٤١)، ثم إن الكافر لا يعترف بدين المسلمة، بل يكذب بكتابها، ويجحد رسالة نبيها، ومن هنا تكون الصلة الاعتقادية بين الزوجين معدومة، ثم إنه قد يهددها بتغيير دينها، وعلى أن أولادها يتبعون أباهم فى دينه، وهى لا تستطيع ردهم، ولا يمكن لبيت أن يستقر، ولا لحياة أن تستمر، مع هذا الخلاف الواسع، والبون الشاسع. ولذا كله منع الإسلام المسلمة من أن يتزوجها غير المسلم، وعلى العكس من ذلك، فإن المسلم إذا تزوج بكتابية فإنه يعترف بدينها، ويجعل الإيمان بكتابها وبنبيها جزءا لا يتم إيمانه إلا به[1] وتوضيح ذلك فيما يلى:

-٤-

إباحة التزوج من الكتابية

لكى تتحقق الرابطة بين المسلمين وأهل الكتاب، وتحل المحبة والألفة محل الكراهية والعداوة، أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج يهودية أو نصرانية. وله أن يشارك أهل الكتاب فيما يأكلون. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾(سورة المائدة، الآية٥).

ففى هذه الآية دليل على جواز أن يتزوج المسلم نصرانية أو يهودية، وتبقى على دينها، ولها على زوجها من الحقوق مثل ما للزوجة المسلمة، وتزوج عثمان ﷺ نائلة بنت القراقصة الكلبية النصرانية، وأسلمت عنده، وتزوج حذيفة يهودية.

(١) فقه السنة، السيد سابق، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، (٢/٣٨٢-٣٨٣).

حكمة إباحة التزوج من الكتابيات:

وإنما أباح الإسلام الزواج من نساء أهل الكتاب (اليهودية أو النصرانية)؛ لأن دينه يعصمه من ظلمها وإهانتها والتقصير في حقها، وهو قد يهديها بخلقه الفاضل وسلوكه النبيل إلى اعتناق الإسلام؛ فتزول الحواجز بين أهل الكتاب وأهل الإسلام، فإن في الزواج المعاشرة والمخالطة، وتقارب الأسر بعضها ببعض، فتتاح الفرص لدراسة الإسلام ومعرفة حقائقه ومبادئه، ومثله العليا. فعلى من يبتغى الزواج منهن أن يجعل ذلك غاية من غاياته، وهدفا من أهدافه(1).

والزواج من أهل الكتاب - وإن كان مباحًا شرعا - إلا أنه يكره لمن وجد المسلمة، ولم يكن مضطرا إلى الزواج من أهل الكتاب، ولم يكن هناك مطمع في إسلامها(2).

- ٥ -

تحية أهل الذمة

ذهب جمهور العلماء إلى أنه لا يجوز ابتداء أهل الكتاب بالسلام؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال: «لاَ تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى بِالسَّلاَمِ»(3).

ويرى جماعة من أهل العلم جواز ابتدائهم بالسلام نقلا عن ابن عباس، والذى عليه الجمهور هو الصواب؛ لأن البدء بالسلام إعزاز لمن تسلم عليه، وإظهار لحبه ومودته، وهؤلاء لا يجوز معهم شىء من ذلك؛ لأنهم ناصبوا المسلمين العداء، فإن سلموا لا يزيد المسلم فى الرد على كلمة (وعليكم).

(١) انظر: عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشى، وفقه السنة، السيد سابق.
(٢) الفقه الواضح، د. محمد بكر إسماعيل، ط دار المنار، القاهرة، ١٤١٧هـ (٨٢/٢).
(٣) الحديث رواه مسلم، رقم (٤٠٣٠)، كتاب السلام، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام.

فعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»(البخارى)(1).

واتفق العلماء على جواز ابتداء السلام على جماعة فيهم مسلمون وغير مسلمين، كما فعل النبى ﷺ (2).

قال الطبرى: وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب ونقل ابن عبد البر فى التمهيد(3). عن أبى بكر أبى شيْبة عن أبى أمامة الباهلى، أنه كان لا يمر بمسلم ولا يهودى ولا نصرانى، إلا بدأه بالسلام، ويقول: هى تحية لأهل ملتنا، وأمان لأهل ذمتنا، واسم من أسماء الله نفشيه بيننا.

قال صاحب الفقه الواضح: والراجح عندى أن هذا يخضع للظروف والأحوال والضرورات، فإن كان الذمى يعيش بيننا، ويتعامل معنا بالحسنى، وبيننا وبينه روابط اجتماعية، ولم تظهر منه علامة تدل على استخفافه بالإسلام والمسلمين، ف لا بأس أن نبدأه بالسلام وأن نرد عليه السلام.

ولا بأس ـ أيضًا ـ أن نحييه بأى تحية أخرى جرى عليها العرف، كأن نقول له: صباح الخير أومساء الخير ونحو ذلك، ونحمل النهى فى الأحاديث على الكراهة التنزيهية.

وقد أباح الله لنا مودتهم، والأكل من ذبائحهم والتزوج من نسائهم العفيفات، وجعل للمؤلفة قلوبهم نصيبًا من الزكاة، أفلا يدل ذلك كله على جواز السلام عليهم وتحيتهم بالألفاظ التى يجرى عليها العرف.

كيف يلقى المسلم أحماءه منهم دون أن يسلم عليهم، وكيف يزورهم فى بيوتهم ويأكل من أطعمتهم وهولا يتبادل معهم التحية والسلام .

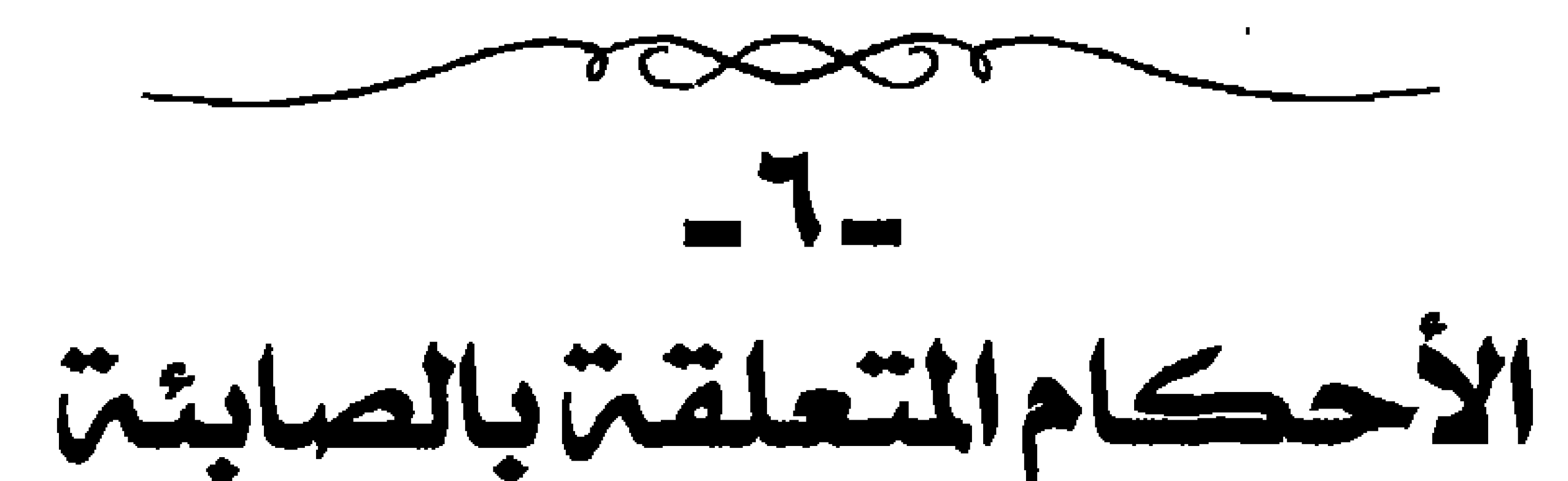
---

(1) رواه البخارى فى كتاب الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة السلام، رقم (٥٧٨٨).

(2) محاسن الأقوال فى مكارم الأخلاق للمؤلف، ص ٣٤٧ .

(3) ج ١٧ ص ٩١ .

وآية الممتحنة أعظم دليل على إلقاء السلام عليهم وتحيتهم وحسن معاشرتهم إذا ما استقاموا على العهد، فقوله -جل شأنه-: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ .. ﴾ (سورة الممتحنة، الآية٨) ترغيب من الله لنا فى برّهم، والعدل بيننا وبينهم، وترغيب لهم فى الإسلام بالسلم لا بالحرب، وباللين لا بالشدة، والبر كلمة واسعة تشمل بعمومها خصال الخير كلها، وبالعدل قامت السموات والأرض[1].

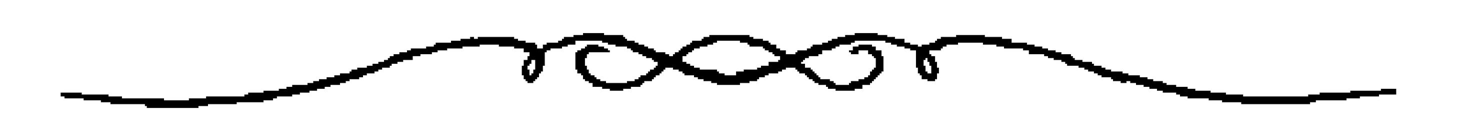


-٦-

الأحكام المتعلقة بالصابئة

ينطبق على الصابئة الأحكام التى تنطبق على الكفار عامة، كتحريم نكاح الصابئ للمسلمة، وكعدم صحة العبادة منهم، وعدم إقامتهم فى جزيرة العرب وأما الأحكام التى تختص بأهل الكتاب : كجواز عقد الذمة لهم، وأن يتزوج المسلم من نسائهم، وأن يأكل من ذبائحهم ... فذهب أبو حنيفة إلى أنه : للمسلم أن يأكل من ذبائح الصابئة، وأن يتزوج من نسائهم، بناء على أنهم لا يعبدون الكواكب ، وإنما يعظمونها كتعظيم المسلمين للكعبة .

وقال ابن الهمام : الخلاف بينهم مبنى على القول بحقيقة أمرهم، فلو اتفق على تفسيرهم اتفق الحكم فيهم. ومن ثم فقد اختلف الفقهاء فى إجراء أحكا م أهل الكتاب عليهم، تبعًا لاختلافهم فى حقيقة دينهم. فمن اعتبرهم من أهل الكتاب، أجرى عليهم الأحكام التى تختص بالكتابى، ومن اعتبرهم من غير أهل الكتاب أ جرى عليهم الأحكام التى تنطبق على المشركين[2].



(١) الفقه الواضح، مرجع سابق، ج٣ ص٢٧٤ـ ٢٧٦ .
(٢) انظر الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف بالكويت (٢٦/٢٩٨-٣٠٠).

-٧-

الأحكام المتعلقة بالمجوس

المجوس فرقة من الكفار يقولون بإلهين اثنين : النور والظلمة، ومن ثم فتجرى عليهم الأحكام التى تجرى على المشركين؛ فلا يحل لمسلم أكل ذبيحة المجوس عند جمهور الفقهاء، لما جاء فى الحديث - الذى رواه عبد الرازق فى المصنف -: «لا تؤكل ذبيحة المجوس».

وذهب المالكية إلى أنه يجب غسل آنية المجوس؛ لأنهم يأكلون الميتة فلا يقرب لهم طعام.

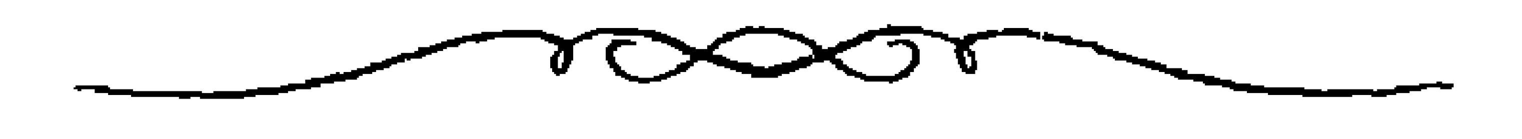
أما زواج المسلم بالمجوسية، فذهب جمهور العلماء إلى حرمته، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ .. ﴾(سورة البقرة، الآية٢٢١).

وبقوله تعالى : ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(سورة الممتحنة، الآية١٠).

ويحرم بالإجماع زواج المجوس بالمسلمة لقوله تعالى:

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾(سورة البقرة، الآية٢٢١).

وتكلم ابن القيم - فى كتابه أحكام أهل الذمة - عن جواز أخذ الجزية من الصائبة والمجوس فقال: «وبالجملة فالصائبة أحسن حالا من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على جواز أخذها من الصائبة بطريق الأولى، فإن المجوس من أخبث الأمم دينًا ومذهبا، ولا يتمسكون بكتاب ولا ينتمون إلى ملة، فشرك الصائبة إن لم يكن أخف منه فليس بأعظم منه»[1].



---

(١) المرجع السابق (١٤٨/٣٦-١٥١).

-٨-

الأحكام المتعلقة بالمشركين

❖ سبق أن ذكرنا أن أهل العلم متفقون على أنه: لا يجوز للمسلم أن يتزوج المشركة، ولا الوثنية، ولا امرأة ممن يعبد البقر أو يسجد للنار، ولا من ارتدت عن الإسلام ... وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ...﴾(سورة البقرة: الآية ٢٢١)

كما اتفق أهل العلم على إباحة الزواج من نساء أهل الكتاب الحرائر، دون الإماء والمحاربات، على نحو ما فصلناه سابقًا.

فإن قلت: ما الفرق بين الكتابية والمشركة؛ مع أن كلا منهما لا تؤمن بوحدانية الله إيمانًا صحيحًا، ولا تؤمن بما لله من صفات الكمال والتنزيه، فكل منهما تجعل لله شريكًا، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله. والمشركون على اختلاف نحلهم ومذاهبهم يعبدون أوثانًا، يعتقدون أنها تقربهم إلى الله؟

قلت: الفرق بينهما كبير.

فأهل الكتاب لهم دين سماوى وكتاب منزل، وإن حرفوه.

أما المشركون فليس لهم دين سماوى ولا كتاب منزل، ولا شريعة يلتزمونها فى رعاية الحقوق والواجبات والمعاملات.

وأهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر بوجهٍ عام، وإن كان فى إيمانهم زيغ وانحراف وتناقض واختلاف. وفهم للإسلام أكثر وأدق من فهم المشركين له؛ لأنهم يجدون فى كتبهم أمارات صدق النبى ﷺ فى كل ما بلغ عن ربه عزوجل.

لهذا: أباح الله التزوج منهم ليتيح لهم التعرف عليه أكثر وأكثر، ولتخلو نفوسهم من الحقد والحسد، الذى حال بينهم وبين الدخول فيه مع التأكد من صدقه وسلامة أحكامه وقيمه، ومبادئه ومقاصده.

ثم إن الكتابية لها دين قد يحملها على طاعة زوجها والإحسان إليه والمحافظة على ماله وعرضه - وإن كان ذلك أمرًا مشكوكًا فيه - أما المشركة فليس لها دين تترسم خطاه، وتلتزم تعاليمه فى رعاية الحقوق والواجبات كما سبق أن ذكرنا[1].

❖ ولا يجوز للمسلم أن يأكل من ذبيحة المشرك الذى يعبد الأصنام، ولا المجوسى الذى يعبد النار، ولا الشيوعى الذى لا يعترف بالأديان السماوية، ولا يعتقد أن للكون إلهًا يعبد، ولا الزنديق الذى يعتقد أن للكون أكثر من إله، أو يقول فى دين الله ما يخرجه عن الملة[2].

هذا بخلاف ذبيحة النصرانى واليهودى، فإنها تؤكل؛ بالشروط التى سبق ذكرها فى الأحكام الخاصة بغير المسلمين.

❖ أما الصيد: فإن الفقهاء متفقون - أيضًا - على جواز أكل الصيد الذى يدركه الإنسان بسلاحه، أو بكلبه المدرب وما يماثله من الحيوانات الأخرى: كالبازى والصقر والفهد وغيرها، إن كان الصائد مسلمًا أو كتابيًا؛ فلا يحل صيد المجوسى والشيوعى، والهندوسى؛ لأنه لا تحل ذبائحهم بالإجماع[3].



-٩-

العقود والمعاهدات التى تحكم غير المسلمين

شرع الإسلام عدة عقود تسهم فى توسيع دائرة التعاون والتعامل بين المسلمين وغيرهم، رغبة منه فى إيجاد عالم تسوده المحبة والوئام، وترفرف عليه رايات الأمن والسلام، وهذه العقود هى: المعاهدات، وعقد الذمة، وعقد الأمان.

---

(١) الفقه الواضح، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق (٢/٨١ ــ ٨٣) بتصرف.
(٢) المرجع السابق، (٢/٣٧٩).
(٣) المرجع السابق (٢/٢٩٧ ــ ٤٠٠) بتصرف.

المعاهدات

الأصل فى شرعية المعاهدات قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(سورة الأنفال، الآية٦١)، وقوله تعالى ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة التوبة، الآية٧)

وقد عقد الرسول ﷺ معاهدة مع اليهود بعد قدومه إلى المدينة، ومعاهدة مع مشركى قريش فى السنة السادسة للهجرة .

ويشترط فى صحة المعاهدات ثلاثة شروط[1] :

١ـ ألا تخالف حكما من الأحكام الشرعية المتفق عليها .

٢ ـ أن تكون مبنية على التراضى من الجانبين.

٣ ـ أن تكون بينة الأهداف، واضحة المعالم، لا لبس فيها ولا غموض.

وقد أمر الإسلام المسلمين بالوفاء والاستقامة على المعاهدات التى أبرموها مع غيرهم، طالما كانوا مستقيمين لهم، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(سورة التوبة، الآية٧) .

ولا تنقض العهود إلا فى إحدى الحالات الآتية:

١ ـ إذا كانت مؤقتة بوقت أو محددة بظرف معين، وانتهت مدتها، وانتهى ظرفها. روى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَلاَ يَحُلَّنَّ عَهْدًا وَلاَ يَشُدَّنَّهُ، حَتَّى يَمْضِيَ أَمَدُهُ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ»[2] .

ويقول القرآن الكريم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(سورة التوبة، الآية٤) .

---

(١) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت.

(٢) سنن الترمذى، حديث رقم (١٥٠٦)، كتاب السير، باب ما جاء في القدر.

٢ ـ إذا أخل العدو بالعهد : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

(سورة التوبة، الآية١٣)

٣ـ إذا ظهرت بوادر الغدر ودلائل الخيانة : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

(سورة الأنفال، الآية٥٨)[١]

عقد الأمان

إذا طلب الأمان أى فرد من الأعداء المحاربين، قُبل منه وصار بذلك آمنا، لا يجوز الاعتداء عليه بأى وجه من الوجوه، والأصل فى عقد الأمان قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة التوبة، الآية٦).

قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطى أمانًا ما دام مترددًا فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه[٢].

وفى ضوء ما ذكر يتقرر وجوب تأمين غير المسلمين، والسماح لهم بدخول الدولة الإسلامية إذا طلبوا التعرف على الإسلام، واستحباب ذلك إذا طلبوه لأمر دنيوى، لما فى ذلك من المصلحة التى تعود على المسلمين من جراء احتكاكهم بهم، سواء أكانت هذه المصلحة دينية أم دنيوية .

(١) فقه السنة، مرجع سابق، (٣/٤٤٢ـ٤٤٣) .
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق (٢/٥٢٨) .

من له هذا الحق؟

وهذا الحق ثابت للرجال والنساء، والأحرار واالعبيد، فمن حق أى فرد من هؤلاء أن يؤمن أى فرد من الأعداء يطلب الأمان، ولا يُمنع من هذا الحق أحد من المسلمين إلا الصبيان والمجانين. روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ... الحديث»(١).

وروى البخارى - أيضًا - عن أم هانئ بنت أبى طالب - رضى الله عنها - أنها قالت قلت:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّى عَلِيٌّ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنُ بْنُ هُبَيْرَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»(٢).

نتيجة الأمان:

ومتى تقَرر الأمان بالعبارة أو الإشارة، فإنه لا يجوز الاعتداء على المؤمَّن، لأنه بإعطاء الأمان له، عصم نفسه من أن تزهق، ورقبته من أن تسترق .

روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه بلغه أن بعض المجاهدين قال لمحارب من الفرس: لا تخف. ثم قتله، فكتب - رضى الله عنه - إلى قائد الجيش: إنه بلغنى أن رجالاً منكم يطلبون العِلج، حتى إذا اشتد فى الجبل وامتنع، يقول له: لا تخف. فإذا أدركه قتله ! وإنه والذى نفسى بيده لا يبلغنى أن أحدا فعل ذلك إلا قطعت عنقه .

وروى البخارى فى التاريخ أن النبى ﷺ قال: «مَنْ أَمِنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لِوَاءَ غَدْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالقرآن والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغل، رقم (٦٧٥٦).

(٢) صحيح البخارى، حديث رقم (٢٩٣٥)، كتاب الجزية، باب أمان أهل النساء وجوارهن.

(٣) فقه السنة، مرجع سابق، (٣/٣٤٥-٣٤٦)، والحديث رواه ابن ماجة فى كتاب الديات، باب مَن أمّن رجلاً على دمه فقتله (٢٦٧٨).

متى يتقرر هذا الحق؟

ويتقرر حق الأمان بمجرد إعطائه، ويعتبر نافذا من وقت صدوره، إلا أنه لا يقر نهائيا، إلا بإقرار الحاكم أو قائد الجيش.

وإذا تقرر الأمان، وأقر من الحاكم أو قائد الجيش، صار المُؤَمّن من أهل الذمة، وأصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

ولا يجوز إلغاء أمانه، إلا إذا ثبت أنه أراد أن يستغل هذا الحق فى إيقاع الضرر بالمسلمين؛ كأن يكون جاسوسًا لقومه، وعينا على المسلمين[1].

الرسول حكمه حكم المؤَمّن:

والرسول - الذى يتحرك بين المسلمين وأعدائهم - مثل المؤَمّن، سواء أكان يحمل الرسائل، أم يمشى بين الفريقين المتقاتلين بالصلح، أو يحاول وقف القتال، لفترة يتيسر فيها نقل الجرحى والقتلى، يقول الرسول ﷺ لرسولى مسيلمة: «أمَا وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»(أبو داود)[2].

عقد الذمة

عقد الذمة يسهم إسهاما فعالا فى توسيع دائرة التعاون والتعامل بين المسلمين وغيرهم، لأنه يتيح للفريقين التقارب والتواصل، وبالتالى يرسخ مبدأ الإخاء الإنسانى بينهما، والذمة هى العهد والأمان، وعقد الذمة هو أن يقر الحاكم أو نائبه بعض أهل الكتاب أو غيرهم من الكفار على كفرهم بشرطين:

الشرط الأول: أن يلتزموا أحكام الإسلام فى الجملة.

الشرط الثانى: أن يؤدوا الجزية.

ويسرى هذا العقد على الشخص الذى عقده، ما دام حيا، وعلى ذريته من بعده.

والأصل فى عقد الذمة قول الحق - سبحانه -: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾

(سورة التوبة، الآية٢٩)

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فقه السنة (٣/٤٣٥-٤٣٧) والحديث رقم (٢٣٨٠) رواه أبو داود فى كتاب الجهاد، باب فى الرسل.

وروى البخارى أن المغيرة قال - يوم نهاوند - فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أنْ نَقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ[1].

وهذا العقد دائم غير محدد بوقت، ما دام لم يوجد ما ينقضه.

ما يترتب على هذا العقد:

وإذا تم عقد الذمة، ترتب عليه حرمة قتالهم، والحفاظ على أموالهم، وصيانة أعراضهم، وكفالة حرياتهم، والكف عن أذاهم؛ لما روى عن على ﷺ أنه قال: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا والقاعدة العامة التى رآها الفقهاء؛ أن لهم مالنا وعليهم ما علينا .

وتجرى أحكام الإسلام على أهل الذمة فى ناحيتين:

الناحية الأولى: المعاملات المالية، فلا يجوز لهم أن يتصرفوا تصرفا ماليا لا يتفق مع تعاليم الإسلام، كعقد الربا وغيره من العقود المحرمة .

الناحية الثانية: العقوبات المقررة، فيقتص منهم، وتقام عليهم الحدود متى فعلوا ما يوجب ذلك، وقد ثبت أن النبى ﷺ رجم يهوديين زنيا بعد إحصانهما، أمّا ما يتصل بالشعائر الدينية من عقائد وعبادات، وما يتصل بالأسرة، من زواج وطلاق فلهم فيها الحرية المطلقة، تبعا للقاعدة الفقهية المقررة: اتركوهم وما يدينون . فإن تحاكموا إلينا، فلنا أن نحكم لهم بمقتضى الإسلام أو نرفض ذلك، يقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(سورة المائدة، الآية٤٢)[2]

وقد سبق ذكر ذلك تفصيلاً فى حقوق وواجبات غير المسلمين فى الإسلام.

هذا ما يتعلق بالشرط الأول (أن يلتزموا أحكام الإسلام)، وأما شرط الجزية فنذكره فى الفصل التالى.

---

(١) صحيح البخارى، حديث رقم (٢٩٢٥)، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب.

(٢) فقة السنة، مرجع سابق (٣/٤٠٣ ــ ٤٠٤).

الفصـل الثامن

فـــى

الجزيـــــــــة

كانت الجزية تشريعًا عادلاً ورحيمًا، لأنها فى مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين، فالمسلم يؤدى الزكاة عن نقوده وتجارته بنسبة ٥ ر٢٪ ويؤدى الزكاة عن الغنم والماعز والإبل بنسب أخرى بينتها كتب الشريعة الإسلامية، أما الذمي فلا زكاة عليه فى نقده ولا فى ماشيته ولا فى تجارته، على أنن ا نجد من مصارف الزكاة: إعداد الجيش، والإنفاق على الغزاة والمحاربين الذين يدفعون عن الدولة مايدَبّر لها من كيد.

وهذا معناه أن الزكاة التى تجبى من المسلمين وحدهم تنفق فى بعض شئون الدولة العامة، نفعا للمسلمين والذميين. ومعناه أيضًا أن المسلمين ساهموا وحدهم بأموالهم فيما لم يقتصر نفعه عليهم، وليس هذا من العدل فى شيء. إنما العدل أن يساهم أهل الذمة ـ وهم أعضاء فى الدولة ـ بشيء من مالهم، إذ أنهم لا يزكون عن ماشيتهم ولا عن نقودهم ولا عن عروض تجارتهم، يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم.

إذن فكيف يساهمون ؟

يجب عليهم أن يقدموا من مالهم مقدارا معينا لقاء ما يقدم المسلمون، ويجب عليهم أن يقدموا بعض مالهم لقاء إعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن، ويجب عليهم أن يساهموا فى نفقات الدولة نظير المنافع الكثيرة التى تكفلها لهم الدولة، ولا وسيلة لأن يتحمل الذميون نصيبهم فى نفقات الدولة إلا بالجزية، إذن فالجزية من غير المسلمين بمثابة الزكاة من المسلم، ليستوى الفريقان فى واجب عام، تساويهما فى الانتفاع بالمرافق العامة[1].

(١) انظر: مختارات من سماحة الإسلام، ص٨٧ ـــ ٩٢.

الفصل الثامن

مظاهر السماحة والعدالة
فى الضرائب على غير المسلمين

كثيرًا ما ردد المغرضون من أعداء الإسلام أن الجزية إذلال وقهر، وعدوان على المِلك والمال، ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الإسلام راعى فى فرض الجزية وفى جمعها، ما يتفق مع العدالة والسماحة والتيسير .

١ـ فرضية الجزية:

الأصل فى فرضية الجزية على الذميين - ومن فى حكمهم - قوله تعالى ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾(سورة التوبة، الآية٢٩) .

وهى تؤخذ من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، ومن المجوس عربا كانوا أو عجما ؛ لأن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين. ومن نصارى نجران ومجوس هجر، ثم أخذها من أهل اليمن، حيث أرسل معاذ بن جبل إليهم، فقال معاذ : «بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ وَأَمَرَنِى أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا» أى من كل من بلغ الحلم (أخرجه الترمذى) .

وذهب مالك والأوزاعى وغيرهما إلى أن الجزية تؤخذ ، من كل كافر، سواء أكان كتابيًا أم غير كتابى، عربيًا أم غير عربى[1] .

---

(١) فقه السنة، مرجع سابق، (٣/٤٠٥). والحديث صحيح، انظر: «إرواء الغليل» (٥/٩٠).

٢ـ الحكمة فى تشريعها:

(أ) فرض الله الجزية على أهل الذمة فى نظير عصمة دمائهم وأموالهم، وحمايتهم من عدوهم، وإعفائهم من الاشتراك فى الجهاد، وتمتعهم بالإقامة فى أرض الإسلام فى أمن ورخاء .

(ب) ولتكن الجزية التى يدفعها أهل الذمة، فى مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون لبيت المال .

(ج) وأخذ الجزية من أهل الذمة يؤدى إلى الرغبة فى الإسلام؛ حتى لايشعروا بالذلة والصغار، ويعيشوا فى بلادهم كأنهم غرباء، وقد كان العرب على ـ وجه الخصوص ـ يأنفون من دفع الجزية، فيفضلون أن يعيشوا أعزاء فى ظل الإسلام؛ فيسارعون إلى الدخول فيه[1] .

٣ـ ضآلة الجزية:

فرضت الجزية يسيرة صغيرة لا إرهاق فيها، وأى أرهاق فى أن يدفع الفرد الغنى فى كل عام ٤٨ درهمًا، والمتوسط ٢٤ درهمًا، والفقير ١٢ درهمًا؟

هذا هو القدر الذى استقر عليه التشريع بعد اتساع الفتوحات الإسلامية[2] .
وتجب الجزية مرة واحدة فى السنة على الرجال الأحرار العقلاء، القادرين على العمل، واكتساب المال .

وهؤلاء هم ـ فى الحقيقة ـ القادرون على الحرب والاشتراك فى الجندية، فلو أنهم كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد دفاعا عن العقيدة، وصيانة للأرواح والأموال، وحماية للوطن من العدوان؛ لذا يجب عليهم أن يقدموا بعض مالهم نظير إعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن .

قال مالك ﷺ قضت السنة، أن لا جزية على نساء أهل الكتاب، ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين بلغوا الحلم .

---

(١) الفقه الواضح، مرجع سابق (٢٣٧/٣ـ٢٣٨).
(٢) مختارات من سماحة الإسلام ص ٨٧.

وروى أسلم أن عمر ﷺ كتب إلى أمراء الأجناد : لا تضربوا الجزية على النساء والصبيان، ولا تضربوها إلا على من جرت عليه الموسى.

٤ ــ مصارف الجزية:

تصرف الجزية فى مصالح المسلمين العامة ومرافق الدولة الهامة، شأنها شأن الفيء الذى حازه المسلمون بغير قتال، كأرزاق المجاهدين وذراريهم، وسد الثغور وبناء الجسور، والمساجد والقناطر وإصلاح الأنهار، ورواتب الموظفين من القضاة والمدرسين، والعلماء والعمال وغير ذلك[1].

٥ ــ عدالة الجزية:

كانت الجزية تشريعًا عادلاً ورحيمًا؛ لأنها فى مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين؛ فالمسلم يؤدى الزكاة عن نقوده وعروض تجارته بنسبة ٥ر٢٪ ويؤدى الزكاة عن الغنم والإبل والبقر بنسب أخرى، بينتها كتب الشريعة الإسلامية، أما الذمى فلا زكاة عليه فى نقده، ولا فى ما شيته، ولا فى متاجره.

وطبيعى أن تنفق الزكاة على المسلمين، وعلى بعض المنافع العامة التى تشمل المسلمين وغيرهم مثل : إعداد الجيش، والإنفاق على الغزاة والمحاربين الذين يدفعون عن الدولة ما يدبّر لها من كيد.

وهذا معناه ـ كما سبق ـ أن الزكاة التى تجبى من المسلمين وحدهم، تنفق فى بعض شئون الدولة العامة. نفعا للمسلمين والذميين، وبهذا يكون المسلمون ساهموا .. وحدهم ـ بأموالهم فى إصلاح مرافق الدولة التى يستفيد بها الجميع، وليس هذا من العدل فى شيء، وإنما العدل أن يساهم أهل الذمة ـ بصفتهم أعضاء فى الدولة ـ بشيء من مالهم، نظير المنافع الكثيرة التى تكفلها لهم الدولة، ولا وسيلة لأن يتحمل الذميون نصيبهم فى نفقات الدولة إلا بالجزية.

---

(١) فقه السنة، مرجع سابق (٣/٤٠٧).

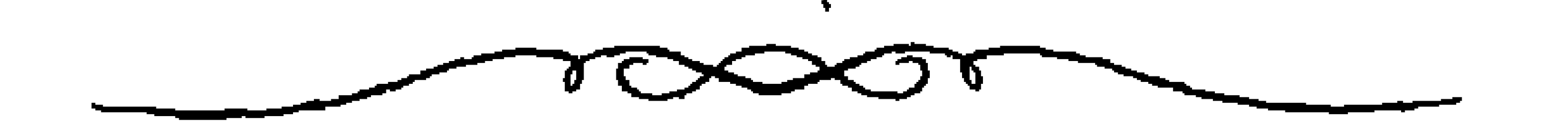
وجدير بالذكر أن الجزية التى كان يدفعها أهل الذمة، كانت تعفيهم من الخدمة العسكرية الإجبارية، التى كانت فرضًا واجبًا على المسلمين، الذين يؤدون فى الوقت نفسه فرض الزكاة من أموالهم.

وليس أدل على أن الجزية فى مقابل خدمات عامة، كالدفاع عن الوطن وحماية الأرواح والأموال ... من أن الذمى إذا أسلم سقطت عنه الجزية، وكلف الخدمة العسكرية؛ لهذا أخذ أبو عبيدة بن الجراح الجزية من المدن التى فتحها بالشام، فلما علم أن الروم تزحف لحربه رد الجزية إلى أصحابها؛ لأنه سَيُشغل بحرب الروم، ولا يستطيع أن يكفل الحماية للمدن التى أخذ منها الجزية، وكان عمله هذا مثار إعجاب السكان، وتقديرهم لسماحته، التى لم يروا من قبل مثلها؛ فأعانوا المسلمين على الروم وآزروهم(١).

٦ـ الإعفاء من الجزية:

ومن مظاهر السماحة والتيسير، فى الإسلام أنه أعفى من الجزية عدة طوائف:

- أعفى منها المساكين والأرقاء، لأنهم لا يملكون شيئًا.
- وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال؛ لأنهم لا يقدرون على حمل السلاح.
- وأعفى منها العمى والمقعدين ـ إلا إذا كانوا أغنياء ـ لأنهم عاجزون عن العمل والكسب.
- وأعفى منها الصبيان والمجانين؛ لأنهم غير مكلفين.
- وأعفى منها الرهبان المنقطعين للعبادة.
- كذلك أسقط الإسلام الجزية عن الذمى، إذا مات قبل أن يؤديها، فلا تستوفى من تركته كما يستوفى الدين، كما أسقطها عنه إذا أسلم.



(١) انظر: مختارات من سماحة الإسلام ص ٨٩ ــ ٩٣.

نماذج من السماحة فى أخذ الجزية

لا يستطيع باحث أن ينكر سماحة المسلمين ورحمتهم فى جمع الجزية؛ لأن تاريخهم يشهد أنهم كانوا يحسنون معاملة الدافعين، وينظرونهم إلى ميسرة، ولا يرهقونهم. حتى إننا لنجد فى السنة النبوية المطهرة النهى عن إيذاء أهل الكتاب، وفى هذا يقول الرسول ﷺ: «من آذى ذميًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[1].

١ - جرى الخلفاء الراشدون على ألا يعذب أحد من أهل الذمة فى طلب الجزية، ولا يقام فى الشمس. ولا يؤذى فى بدنه بشىء بل يرفق به. حدث أن مرّ عمر بن الخطاب وهو بالشام بقوم أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأن هؤلاء؟

فقيل له: إنهم أقيموا فى الجزية، فكره ذلك، وقال: هم وما يعتذرون به.

قالوا: إنهم يقولون لا نجد.

قال: دعوهم، ولا تكلفوهم ثم أمر فخلى سبيلهم.

٢ - أسقط الإسلام الجزية عن الذمى إذا افتقر، فقد مر عمر برجل يسأل فى الطريق فقال له: ما الذى ألجأك إلى هذا فقال: الجزية، والسن، والحاجة.

قال عمر: من أى قوم أنت؟

قال: من اليهود، فأخذه عمر إلى منزله وأعطاه شيئا، وأسقط عنه الجزية، وكتب إلى عامله: انظر هذا وضرباءه، فليس من العدل أن نأكل شبيبته، ثم نخذله عند الهرم، ولم يكتف عمر بذلك، بل رتّب له قدرًا من المال يكفيه[2].

ثم عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة، على أنه إذا عجز شخص منهم عن الكسب أو أصابته عاهة، أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وأعين هو وأسرته من بيت مال المسلمين.

٣ - على أن المسلمين راعوا التيسير على الناس، فلم يشترطوا عليهم أن تكون الجزية نقودا فقط، بل أباحوا لهم أن يقدموا نقودًا وعروضًا مثل الدواب والمتاع

(١) الحديث ورد فى الجامع الصغير للسيوطى (٢/٥٤٧).
(٢) انظر: مختارات من سماحة الإسلام (٨٧-٩٥) عن مصادر شتى.

والسلع، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدل النقود، ولكن لم تقبل منهم الخمر ولا الميتة ولا الخنازير(١).

هل أسلم القبط فرارًا من الجزية ؟

وفى هذا المقام لا بد من تفنيد ما زعمه بعض المؤرخين، أن قبط مصر دخل كثير منهم فى الإسلام فرارًا من قسوة الجزية .

وهذا زعم مبعثه تعصبهم على الإسلام من ناحية، واستكبارهم أن يعترفوا بأن المسلمين الفاتحين لم يرغموا أحدًا على اعتناق دينهم من ناحية ثانية، فراحوا يدّعون - ظلمًا وزورًا - أن المسلمين كانوا يخافون من تناقص مايُجْبون من جزية، ويخشون أن تضيق خزانة الأموال الحكومية عن أعطيات الجنتد والعمال، فأرهقوا القبْط بما فرضوا عليهم من مال.

وفى تعليلهم هذا مغالطة تجافى الحق والواقع؛ لأن الضريبة التى فرضها المسلمون على القبط كانت فى المتوسط دينارين فى السنة عن كل رجل قادر، وكان يعفى منها العاجزون والشيوخ والنساء والصبيان ... وكانت تؤدى على ثلاثة أقساط فى العام. وهذا قدر ضئيل بالقياس إلى ما احتمل القبط من عنت الرومان وجشعهم، ولقاء تعهد المسلمين للقبط بحمايتهم من الغزو، وقيامهم بالإنفاق على المرافق العامة.

أما إسلام كثير من القبط فلا ننكره، وإنما نرده إلى برمهم بسوء الحالة الدينية وإلى اضطهاد الرومان لهم. وقد حدث فى خلافة عمر بن عبد العزيز أن الوالى فى مصر شكا إليه أن الأقباط فيها يعتنقون الإسلام ويتركون المسيحية؛ وأن ذلك يؤدى إلى نقص فيما يجبى منهم من الجزية، واستأذنه فى منعهم من اعتناق الإسلام.

فأجابه عمر بن عبد العزيز بقوله: «قبّح الله رأيك، ما بعث الله محمدًا جابيًا، ولكن بعثه هاديًا» .

فالذين أسلموا من قبط مصر بعد الفتح إنما أسلموا طوعًا، غير مكرهين على ترك مذهب أو نحلة، ثم فضلوا الدين الذى يدعو إلى الفضيلة والكمال، وإلى الوقوف بجانب المظلومين؛ لنصرتهم والدفاع عنهم، الدين الذى يعتنقه ولاة الأمر وحكام البلاد، وهذه هى عظمة الرسالة المحمدية، والإخوة الإنسانية، والشريعة الإسلامية(٢) .

(١) المرجع السابق .
(٢) انظر: عظمة الإسلام، مرجع سابق، ج٢ ص٧ .

الفصل التاسع
أسلوب الحوار مع غير المسلمين

هذه سطور موجزة، وكلمات نورانية واضحة، عن (أسلوب الحوا ر مع غير المسلمين) استقيناها من القرآن الكريم، ومن السنة النبوية المطهرة، ومن أقوال العلماء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، وكان مقصدنا الأساسى من كتابتها : بيان أن شريعة الإسلام تفتح أبوابها للحوار الحكيم، الذى يقوم على المنطق الصحيح، وعلى الأدب الرفيع، وعلى الحرية فى إبداء الرأى، ولكن بالتى هى أحسن، وقد رأينا فى هذا المبحث أن الحوار بين الناس جميعا أمر محتم؛ لأن الناس لا يستغنى بعضهم عن بعض فى معاملتهم اليومية، وفى شئونهم العامة التى تتعلق بمأكلهم ومشربهم وملبسهم ودوائهم وحقوقهم وواجباتهم .. أما الحوار مع المخالفين فى العقيدة؛ فإن الشريعة الإسلامية أوجبت أن يكون بالرفق واللين والسماحة، كما قال الله تعالى - لموسى عليه السلام - حين أرسله إلى فرعون : ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾(سورة النازعات، الآيات ١٧ :١٩)

وسنرى فى هذا البحث - بإذن الله وتوفيقه - أن الرسول ﷺ قد تأسى بالقرآن الكريم، فى مناقشاته ومحاوراته مع أعدائه. وأن أصحابه وأتباعه الأخيار، قد نهجوا نهجه، واتبعوا طريقه، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾(سورة الأحزاب، الآية٢١)

الفصل التاسع

أسلوب الحوار مع غير المسلمين

أسسه وضوابطه ـ نماذج من الحوارات المختلفة

مما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية ساوت بين جميع الناس، فى الحقوق والواجبات وفى الكرامة الإنسانية، وفى العدالة الاجتماعية، وفى صيانة أرواح الجميع وأعراضهم وأموالهم من كل عدوان، وفى إقامة العلاقات بينهم على أساس التسامح والتراحم، وتبادل المنافع التى أحلها الله تعالى لهم.

اما بالنسبة لغير المسلمين من أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ فإن شريعة الإسلام، نهت عن مجادلتهم إلا بالتى هى أحسن؛ حتى تستمر العلاقة الطيبة بيننا وبينهم، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾

(سورة العنكبوت، الآية٤٦)

فإذا ما أصبح المسلمون وغير المسلمين يعيشون فى دولة واحدة، ويضمهم وطن واحد، وتجمعهم مصالح مشتركة، كما هو الحال بالنسبة لنا فى مصر. إذا ما أصبح الأمر كذلك، صار غير المسلمين ـ مهما قل عددهم ـ لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، وفى الوقت ذاته لكل فريق منهم عقيدته التى اختارها لذاته، ودينه الذى ارتضاه لنفسه؛ لأن العقائد والأديان لا إكراه عليها ولا إجبار.

وما دام غير المسلم يحترم عقيدة المسلم ولا يسىء إليها، فشريعة الإسلام توجب على أتباعها تبادل هذا الاحترام، وتحتم عليهم بأن يقيموا علاقاتهم مع غيرهم على البر والقسط، ولا يبغى بعضهم على بعض، وإنما يتعاونون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

على أن الاختلاف بين الناس، فى شئون دينهم ودنياهم أمر قديم، وسيبقى هذا الاختلاف بينهم ما بقى الليل والنهار؛ لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الناس

مختلفين، إلا من رحم ربك، وأن رحمة الله التى وسعت كل شيء ستشملهم ما دام اختلافهم من أجل الوصول إلى الحق والصواب.

ونريد - هنا - أن نقول: إن شريعة الإسلام قد ساقت من المبادئ السامية والآداب العالية، والهدايات الرفيعة، ما ينظم هذه الخلافات، والمحاورات، والمناظرات التي تحدث بين الناس، مما يجعلها تدور في إطار من المنطق السليم والفكر القويم، والجدال بالتي هي أحسن، ومن ثم يكون هدفها الوصول إلى الحق والخير ومنفعة الناس، في حدود ما أحله الله - تعالى - لهم[1]، وذلك وفق ما يلي:

أسس الحوار مع غير المسلمين

١- أن يكون الحوار بالرفق واللين والموعظة الحسنة:

امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(سورة العنكبوت، الآية٤٦).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي من احتاج منهم مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن؛ برفق ولين وحسن خطاب ... فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون - عليهما السلام - حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾(سورة طه، الآية٤٤)[2].

وقد خاطب الله المصطفى بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾(سورة آل عمران، الآية٢٠).

(١) بتصرف من: أدب الحوار في الإسلام، د/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، مصر، ٢٠٠٢م، ص١٦، ٤٨، ٥١.
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٩١٨).

أى يامحمد ، قل لليهود والنصارى والمشركين من العرب وغيرهم : أسلموا، فإن أسلموا فقد اهتدوا من الضلال، وإن أعرضوا عن الإسلام فإنما عليك تبليغ الرسالة، وامتثالا لأمر الله تعالى فإن الرسول ﷺ دعاهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم وناقشهم بالعقل والمنطق والحسنى، حتى أقنعهم الإقناع كله بصدق رسالته، عملا بقول الحق جل شأنه : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(سورة النحل، الآية١٢٥).

٢ــ التزام الصدق:

وذلك بأن يكون الحوار بين الجميع قائما على الصدق وتحرى الحقيقة، بعيدا عن الكذب والسفسطة والأوهام ...

ولقد ساق القرآن الكريم ألوانا من المحاورات التى دارت بين الرسل وأقوامهم، وبين المصلحين والمفسدين، وعندما تتدبرها، تترى الأخيار فيها لا ينطقون إلا بالصدق الذى يدمغ الأكاذيب، وبالحق الذى يزهق الباطل ...اقرأ الآيات من (٤٢ إلى ٥٤) من سورة طه؛ لتتعرف على الحوار الذى دار بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون.

وفى سورة الشعراء الآيات من (١٠ :٤٨) ترى محاورة تدور بين موسى عليه السلام وبين فرعون، بأسلوب تجد فيه صدق موسى وشجاعته وفطنته.

ولقد بعث رسول الهدى والنور إلى العالم كافة، ونفذ رسالة ربه بكل صدق وأمانة وإخلاص، وقد لقى فى سبيل هذه الرسالة الإلهية، ما لقى من تعذيب واضطهاد وآلام ...وقد أجابه إلى دعوته قليلون فى البدء، بعد اقتناعهم بأنه الصادق الأمين، الطاهر المؤمن بما يدعو إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأوثان والأصنام، المؤمن برسالته إلى الناس جميعا، ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

إن الحوار البناء الذى يقصد به الوصول إلى الحق والعدل، ومكارم الأخلاق، هو الذى يكون مبنيا على الصدق فى القول، والعفاف فى السلوك .

٣ــ التواضع والتزام أدب الحديث:

كذلك من الآداب التى جاءت بها شريعة الإسلام؛ لتنظيم المحاورات والمجادلات التى تدور بين الناس عامة (مسلمين وغير مسلمين): التواضع، وتجنب الغرور، والتزام الأسلوب المهذب الخالى من كل ما لا يليق.

انظر إلى سيدنا سليمان عليه السلام الذى أعطاه الله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، إنه يتفقد جنوده، فلا يرى الهدهد من بينهم، فيتوعده، ويأتى الهدهد بعد ذلك، فيقول لسليمان عليه السلام بكل شجاعة: أحطت بما لم تحط به، ويقبل سليمان عليه السلام بكل تواضع حجة الهدهد، ويكلفه بحمل رسالة إلى تلك الملكة التى أوتيت من كل شىء، ولها عرش عظيم، فيوصل الرسالة إليها، وتنتهى قصة هذه الملكة بأن تقول:

﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(سورة النمل،٤٤).

وتأمل تلك التوجيهات السديدة، التى يلقنها القرآن الكريم للنبى ﷺ آمرًا إياه، أن يقولها لقومه بكل تواضع وشجاعة وحكمة؛ فيقول : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(سورة سبأ، الآيات٢٤ : ٢٦) ويقول ـ عزوجل ـ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(سورة الشورى، الآية١٥).

إن الحوار أو النقاش أو الجدل الذى يدور بين الناس، إذا كان قائمًا على التواضع والاحترام المتبادل بين الأطراف، وعلى الأسلوب المهذب الخالى من كل مالا يليق، كانت نتائجه طيبة وآثاره حميدة؛ لأنه - فى الأعم الأغلب - يوصل إلى الحقيقة المرجوة، وإلى الاتفاق ولوعلى معظم المسائل التى دار من أجلها الحوار[1].

٤- إقامة الحجة بمنطق سليم:

كذلك من المبادئ التى جاءت بها شريعة الإسلام لأدب الحوار مع المخالفين فى العقيدة: إبراز الدليل الناصع، والبرهان الساطع، والمنطق السليم، الذى يلقن المكابر أو المعاند حجرًا، ويجعله لا يستطيع أن يمضى فى جداله وحواره ... استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى لنا ما دار بين إبراهيم عليه السلام وبين الملك الكافر الظالم؛ الذى كان يعيش فى عصره، فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(سورة البقرة، الآية٢٥٨).

لقد قال له إبراهيم عليه السلام وهو يحاوره ويدعوه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده: ربى وربك هو الله الذى ينشئ الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك.

فما كان من ذلك الملك الجبار - وهو نمرود بن كنعان - إلا أن قال لإبراهيم على سبيل البطر والغرور: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ﴾ يقصد بقوله هذا: أنه يملك أن يعفو عمن يستحق القتل، ويقتل من يشاء أن يقتله.

---

(١) بتصرف من: أدب الحوار فى الإسلام، د. محمد سيد طنطاوى (٢٩ : ٣٠) .

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم ﷺ أن يبطل قوله هذا بأن يقول له: إن ما تدعيه ليس من باب الإحياء والإماتة فى شىء، ولكنه من باب الظلم والعدوان، ولكن إبراهيم ﷺ لم يفعل ذلك، بل ترك المجادلة فى هذا الشأن، وأتاه بالحجة التى تلقمه حجرًا، ولا مجال معها للمكابرة، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة، التى قذف بها إبراهيم ﷺ فى وجه خصمه المكابر المغرور؟

كانت نتيجتها - كما حكى القرآن الكريم - ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

أى غلب وقهر وتحيّر وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم؛ لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه.

ومن سنن الله فى خلقه، أنه لا يهدى الظالمين إلى طريق الحق والرشاد؛ بسبب إصرارهم على الظلم والطغيان، وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن. والعقلاء دائما وأبدا - سواء من المسلمين أو من غيرهم - عندما تتضح لهم الحجة، ويظهر لهم البرهان، ويرون الدليل الساطع على صحة المسألة يقتنعون بذلك، ويعترفون بالحق، أما السفهاء ومن على شاكلتهم من الجهلاء والمغرورين ... فإنهم يصرون على باطلهم، ويجحدون الحق عن علم به؛ لسوء نواياهم، وضعف عقولهم، وانطماس بصائرهم ...[1].

٥ـ إعطاء المعارض حقه فى التعبير:

كذلك من التوجيهات الحكيمة، التى قررتها شريعة الإسلام لتنظيم المناقشات التى تنتشر بين كافة الناس (مسلمين وغير مسلمين): إفساح المجال للجانب الآخر؛ لكى يرد على المخالف له، بأسلوب مهذب، وبمنطق سليم، وبأدب جم، وبحرص تام على تبادل الاحترام فيما بينهما؛ إذ الخلاف فى الرأى بين العقلاء لا يفسد للود قضية.

---

(١) المرجع السابق بتصرف صـ ٢٥ : ٢٧.

ومن أقوال بعض الحكماء فى ذلك: «رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب، ونتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه».

ولقد ساق لنا القرآن الكريم، صورا متعددة، لمحاورات ومجادلات ومعارضات، تجلى فيها إفساح المجال فى هذا المقام، حتى لمن جاهر بالمعصية لله - تعالى - ألا وهو إبليس، الذى فسق عن أمر ربه، وحسد آدم على ما آتاه الله من فضله، وتفوه بما يدل على جحوده وعناده وغروره ... ولقد تكرر الحديث فى القرآن الكريم - فى سور متعددة - عن الحوار والجدال، الذى دار فى قصة إبليس، منها قوله تعالى فى سورة الحجر (٢٨ : ٤٢): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. أى إنى خالق بشرا من طين يابس مصور. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، فإنها لا تكون إلا للخالق وحده.

ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. وهنا يحكى لنا القرآن ما دار بين الخالق - عز وجل - وبين إبليس من محاورات وأقوال فيقول: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. أىُّ سبب حملك على مخالفة أمرى، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟!!

تُرى: ماذا كان رد إبليس على خالقه - عز وجل - ؟

كان رده أن قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. وهنا أصدر الخالق - عزوجل - حكمه العادل على إبليس: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ولكن هل تقبل إبليس هذا الحكم بالسكوت والرضا؟ وهل منعه الله - تعالى - من الكلام، بعد أن أصدر - سبحانه - عقوبته العادلة عليه؟

إن المتدبر فى القرآن الكريم فى آيات متعددة فى هذه القصة يرى أن إبليس لم يسكت، وأن الله - تعالى - قد أفسح له المجال لكى يتكلم، وفى ذلك إشارة إلى واسع حلمه - تعالى - وإلى أن شأن العقلاء، أن يفسحوا صدورهم لخصومهم لإبداء وجهة نظرهم، ثم بعد ذلك يكون الرد عليهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ما طلبه إبليس من ربه، وما رد الله عليه : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. أى يارب ما دمت أخرجتنى من جنتك، وحكمت علىّ بالطرد من رحمتك، وجعلتنى مرجوما ملعونا إلى يوم الدين، فأخّرموتى إلى يوم يبعثون - آدم وذريته - للحساب.

وأجابه الله - تعالى - إلى طلبه، ويحكى القرآن ذلك فيقول: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

ومرة أخرى نقول : هل اكتفى إبليس بكل ما قاله سابقًا مما حكاه القرآن عنه ؟

وهل قفل الخالق - عز وجل - الباب فى وجهه، ومنعه من أن ينطق بكلمة أخرى بعد ذلك ؟

الجواب - كما حكى القرآن الكريم - إن إبليس لم يسكت بل ظل فى لجاجه ومكابرته، ومع ذلك لم يمنعه الله - تعالى - من الكلام، فقال إبليس مهددا ومتوعدا آدم وذريته: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

فبماذا ردّ الله - تعالى - عليه ؟

لقد رد ـ سبحانه ـ عليه بالرد الحاسم والعادل فقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

والآن لنا أن نسألك أيها القارئ الكريم : هل رأيت إفساحًا للمجال أمام المعارض أو المناقش أو المحاور لغيره، كهذا اللون من إرخاء العنان، ومن تركه يعبّر عن رأيه، ويدلي بوجهة نظره ؟

لقد حكى لنا القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ ترك إبليس اللعين، يقول ما يقول في آدم وذريته، ولكنه ـ سبحانه ـ في الوقت ذاته رد عليه بما يخرسه، وحكم عليه بحكمه العادل، وحذر آدم وذريته من كيده وعدوانه ...

وهذا درس في أدب الحوار جدير بأن يسير عليه العقلاء، فإنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(سورة الرعد، الآية١٧)[1].



(١) المرجع السابق بتصرف صـ ٣١ : ٣٤ .

نماذج من الحوارات المختلفة
من القرآن والسنة وآثار السلف

هذه نماذج متنوعة من الحوارات المختلفة، مقتبسة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، ومن آثار السلف الصالح رضوان الله عليهم.

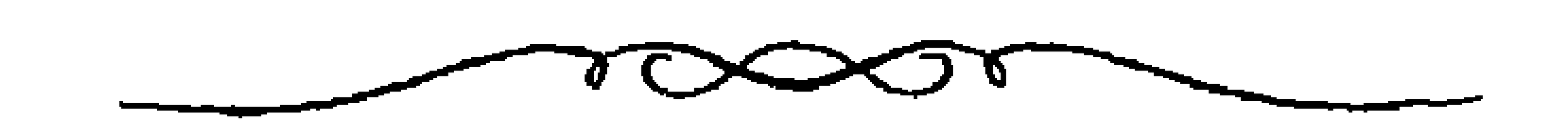
ومن الواضح الجلى أن القرآن الكريم، قد استعمل فى إثباته للحق الذى أمر الخالق ـ عز وجل ـ عباده باتباعه، أحكم الأساليب، وأقوى البراهين، التى تقنع العقول السليمة، وتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم.

كما أن الرسول ﷺ قد تأسى بالقرآن الكريم، فى مناقشاته ومحاوراته مع أتباعه ومع أعدائه، وأن أصحابه الأخيار قد نهجوا نهجه، واتبعوا طريقه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(سورة الأحزاب، الآية٢١).

وهذه النماذج من الحوارات، متنوعة على الوجه التالى:

- حوار بين الرسل وأقوامهم.
- حوار مع أهل الكتاب.
- حوار مع المنافقين.
- حوار بين العقلاء والسفهاء.
- حوار الأشرار فيما بينهم.

فدونك ـ أيها القارئ الكريم ـ هذه النماذج من الحوارات المختلفة.



أولا : حوار بين الرسل وأقوامهم

المحاورات التى حدثت بين الرسـل الكرام وبـين أقـوامهم، وردت فى القـرآن الكـريم فى مواضع كثيرة ومتنـوعة، وسنكتفى منها بنماذج ثلاثة؛ لتعطينـا صـورة واضحة، لما دار بينهم من أقوال ومجادلات.

النموذج الأول: حوارات الرسل الكرام مع أصحاب القرية:

وذلك متمثل فى قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

(سورة يس، الآيات ١٣ : ١٩)

لقد أرسل الله - تعالى - على أهل هذه القرية رسولين فكذبوهما، وأعرضوا عن دعوتهما، فأرسل الله - تعالى - مع الرسولين رسولاً ثالثًا؛ ليشد من أزرهما وليعاونهما على تبليغ كلمة الحق، وأذ عن الثلاثة لأمر ربهم فقالوا لأهل القرية: إنا إليكم مرسلون لا إلى غيركم، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص الدعوة لله - تعالى - ومن وجوب التحلى بمكارم الأخلاق ...

ولكن أهل القرية قالوا للرسل على سبيل الإنكار والتطاول: أنتم لستم إلا بشر مثلنا، ولا مزية لكم علينا، وما أنزل الرحمن من شىء عليكم - أيها الرسل - وما أنتم إلا كاذبون، فيما تدعون من أنكم رسل الله إلينا.

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذه السفاهات بالأناة والصبر، فقالوا لأهل القرية ربنا وحده يعلم إنا إليكم لمرسلون، وكفى بعلمه علمًا، وبحكمه حكمًا، وما علينا بعد ذلك ـ بالنسبة لكم ـ إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم، تبليغا واضحا لا لبس فيه ولا غموض .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم، بل ردوا على الرسل ردا أقبح من سابقه حيث قالوا لهم : إنا تشاءمنا منكم، وأصابنا الضر عندما رأينا وجوهكم، ولئن لم تتركونا وترحلوا عنا، لنرجمنكم بالحجارة، وليمسنكم منا عذاب أليم .

ولكن الرسل الكرام قابلوا هذا التهديد ـ أيضا ـ بالثبات وبالرد الشجاع فقالوا لهم: ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا معكم هو سبب شؤمكم، بل الحق أن شؤمكم معكم ومن عند أنفسكم؛ لأنكم قوم عادتكم ودأبكم الإسراف فى الكفر والعصيان .

ومن العبر والعظات التى نأخذها من قصة أصحاب القرية:

أن العقلاء يسلكون فى حوارهم مع غيرهم الأسلوب الحكيم والأدب الرفيع، والرد المقنع والتوجيه السليم، أما السفهاء والجهلاء فسلاحهم فى حوارهم وجدالهم: الغرور الفاضح والمنطق السيئ، والتهديد السافر لمن يخالفهم، وعاقبتهم الخسران والبوار(1).

النموذج الثانى: حوارات إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه:

هذا النموذج الرائع نأخذه من قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، وقومه عبدة الأصنام والكواكب، ومنه نرى كيف أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل فى حواره مع أبيه وقومه أحكم الأساليب وأرقها وأوضحها، فى إحقاق الحق وفى إبطال الباطل.

أما إبراهيم مع أبيه: فنموذج رائع للدعوة الكريمة والحوار الرقيق

﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

(1) بتصرف من كتاب: أدب الحوار فى الإسلام، د/محمد سيد طنطاوى ص١٣٧، ١٣٨.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

وتأمل معى - أيها القارئ الكريم - هذه الآيات، فسترى فيها ألطف وأرق ألوان الحوار والخطاب، لقد نادى أباه أربع مرات بلفظ «يا أبت» الدال على الأدب والتوقير.

فبين له - أولا - أنه ليس من العقل فى شىء، أن يعبد الإنسان صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع.

ثم بين له - ثانيا - أن الله - تعالى - قد أعطى ابنه من العلم ما لم يعط لغيره، والآباء العقلاء يفخرون بالأبناء الحكماء.

ثم بين له ثالثًا أن عبادة الأصنام هى عبادة للشيطان الذى هو عدو للإنسان.

ثم بين له - رابعًا - شفقته به، وحبه له، وخوفه عليه من عذاب الله؛ بسبب الإصرار على الكفر.

بهذا الأسلوب الحكيم المهذب، خاطب إبراهيم عليه السلام أباه، فماذا كان رد أبيه الكافر؟

لقد كان رده فى نهاية الانكار، إنه يركب رأسه فيسأل ابنه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾. ويعقب السؤال بالتهديد ويعقب التهديد بالعقاب ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾. ومع هذا العناد من الأب الكافر، يرد الابن الرسول الداعية فى أدب جم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾(سورة مريم، الآيات ٤٢- ٤٨).

ويجادل إبراهيم أباه وقومه حول التماثيل التى يعبدونها من دون الله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾

فـيردون عليـه بـالرد الخائـب والجـواب الخاسـر : ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ﴾.

فيرد عليهم : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فيردون عليه ردًا خائبًا كذلك : ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ﴾.

فيردهـم إلى الصـواب والفطـرة لعلـهم يعقلـون : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

ثم يمضى بهم فيقدم لهم الدليل الحسى، على فقدان هذه الآلهة المزعومة لأوصاف الإله الحق : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ .

فتنـازعوا فيمـا بيـنهم وتجـادلوا : ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ .

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

(سورة الأنبياء ، الآيات ٥٢- ٦١)

حينئـذ تكـاثرت الجمـوع ، الكـل يرغـب فـى القصـاص منـه ويـود رؤيـة عقـابه ومشـاهدة عذابه ... ثـم جـاءوا بـه وسـط هـذا الجمع الزاخـر، وابتـدأوا محاكمته ومناظرته على رءوس الأشهاد(١) .

المناظرة :

تقدم إبـراهيم عليه السلام أمام هـذا الحشد الكثير مـن قومـه، وعرضـت عليـه تلك الأسئلة : ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ؟

---

(١) أدب الحوار والمناظرة، د/ على جريشه، دار الوفاء، المنصـورة، ١٤١٠هـ، صـ١٣٩ ــ ١٤٠.

لقد كان إبراهيم عليه السلام حكيمًا ذكيًا، فسار بهم فى الجدال إلى ناحية أخرى؛ ليصل إلى مقصده، وليبلغ رسالة ربه مهما كانت النتائج ..

وجرهم بطريق الحكمة إلى جواب لم يقصدوه؛ ليلزمهم الحجة لعلهم يرجعون إلى صوابهم فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾

لقد صفعهم بهذه الحجة الدامغة التى نبهتهم من غفلتهم، وأيقظتهم من غفوتهم، وأراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه الأصنام لا تنطق، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لقد تركتموها لا حافظ لها ولا رقيب عليها.

هنالك انتابتهم الحيرة، وعقدت ألسنتهم، لا ترد سؤالا ولا تسمع جوابا، فكيف تأمرنا بسؤالها وهى حجارة صماء، فلما أقروا بعجز الآلهة، وقصورها عن معرفة ما يجرى حولها .. حينئذ ظهرت حجة إبراهيم واضحة ورأى الفرصة سانحة؛ ليقيم عليهم الحجة، وليصل بهم إلى الإفحام:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

هنالك عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم؛ فيبطشون كما تبطش الحيوانات العجماوات: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

وهنا تتدخل القدرة الإلهية تدخلاً حاسما، حماية للرسول العظيم، وإقامة للحجة على قومه الكافرين: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾(سورة الأنبياء، الآيات ٦٢-٧٠)(١).

---

(١) نماذج من جدال أولى العزم مع أممهم، د. عفاف على النجار، ط مكتبة ومطبعة الغد، ١٤٢١هـ، ص٤٤، ٤٥.

النموذج الثالث: منهج النبى ﷺ فى تبليغ الدعوة لأمته:

لقد تحمل النبى ﷺ فى سبيل تبليغ الدعوة لأمته، وتربية أصحابه على المنهج القويم ما لم يحتمله أحد من البشر، وصبر عليهم صبرًا جميلاً، حتى وصل بهم إلى هذه الدرجة العالية الرفيعة التى لم يصل إليها أتباع نبى قط، فهذا الجيل المبارك الذى رباه النبى ﷺ لم ينشأ من فراغ.

عَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ.

فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ «قَدْ أَجَبْتُكَ».

فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّى سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ.

فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ».

فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟

فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟

قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟

قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

فَقَالَ الرَّجُلُ آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ ابْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ(١).

ثم لما قدم على قومه كان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى.

قالوا: مه ياضمام، اتق البرص، اتق الجزام، اتق الجنون .

قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه.

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره (حيّه) رجل ولا امرأة إلا مسلما فانظر - نضر الله وجهك - إلى هذا الأعرابي الجافي ماذا فعل ؟

أدخل الجمل المسجد، ومع ذلك صبر عليه النبي ﷺ ولم يأمره بإخراج الجمل من المسجد، لأن للنبي ﷺ هدف أسمى من أن يشغل نفسه بالجمل؛ إنه يريد هداية هذا الأعرابي ومن وراءه، وقد تحقق هدف النبي ﷺ فدخل الأعرابي وقومه في دين الله أفواجًا .

ثانيا : حوار مع أهل الكتاب

لقد جابه رسول الله ﷺ ثلاث جبهات عناد في الكفر والنفاق:

الجبهة الأولى : هم مشركو قريش، وكان كفرهم في القمة.

الجبهة الثانية : هم جبهة اليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب.

الجبهة الثالثة : هي جبهة المنافقين .

والمحاجة - هنا - قد أتت من الجبهة الثانية (أهل الكتاب)؛ لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم دينا قد نزل من السماء، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم دينًا منزلاً من السماء، وعندما يناطح الشرك دينا فهذا أمر معقول. أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء - وهم أهل الكتاب - رسولا جاء بدين خاتم من السماء، فهذا أمر يستحق أن نقف عنده .

(١) البخاري كتاب العلم (٢٧/١) وما بعده عن سيرة ابن هشام (٢١٩/٤) .

وما دام هناك جدال وحوار بين حق وباطل، فإن الله تعالى لم يترك الرسول ﷺ بل سلحه بالحجة الدامغة: يقول تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾

(سورة آل عمران، الاية ٢٠)

أى: إن جادلوك وناقشوك فى أمر الإسلام الذى جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية وشرك قريش، ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يامحمد: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾.

ومن نماذج محاجة الرسول ﷺ لأهل الكتاب ما يلى :

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

(سورة آل عمران، الآيات ٥٩ـ٦١)

ورد فى سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس قال: إن رهطًا من نجران قدموا على النبى ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا؟

قال من هو ؟

قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله، فقال: أجل.

فقالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

(١) انظر تفسير الطبرى ٣/٢٠٧ .

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن الأزرق بن قيس قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف نجران والعاقب، فعرض عليهما الإسلام فقالا: إنا كنا مسلمين قبلك.

قال: كذبتما، إنه منع منكما الإسلام ثلاث: قولكما اتخذ الله ولدًا، وأكلكما لحم الخنزير، وسجود كما للصنم.

قالا: فمن أبو عيسى؟ فما درى رسول الله ﷺ ما يرد عليهما حتى أنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فدعاهما إلى الملاعنة فأبيا وأقرا بالجزية ورجعا(١).

لقد جاءهم رسول الله ﷺ بالقول الفصل، جاءهم بالحجة الأقوى والبرهان الواضح، وأقام الحجة على بطلان دعواهم بألوهية عيسى عليه السلام لأنه ولد بدون أب؛ فإن آدم عليه السلام ولد من غير أم ولا أب، ولم يقل أحد بألوهيته! ثم ماذا؟

لقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يجتمع بهم فى مكان طاهر، ويدعوا الطرفان الأبناء والنساء، ويبتهل الجميع إلى الله الحق أن ينزل لعنته على الكاذبين. فكان ردهم أن قالوا للرسول ﷺ: أنظرنا إلى الغد ونأتى إليك. ثم أرسلوا فى الصباح واحدًا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله ﷺ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط؟ فلما جاء رسولهم وجتد أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين لذلك قالوا: لا لن نستطيع المباهلة، والله ماباهل قوم نبيا إلا أخذوا، وحاولوا ترضية رسول الله ﷺ وقالوا: لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه، على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر(٢).

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى صـ ٥٣.
(٢) نماذج من جدال أولى العزم مع أممهم، د/ عفاف على النجار عن مصادر شتى.

٢ ـ ومن نماذج جدال الرسول لأهل الكتاب:

قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(سورة آل عمران، الآيات٦٥ـ٦٧).

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال: اجتمعت نصـارى نجـران وأحبـار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله ـ عز وجل ـ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(١).

فقد أبهتهم القـرآن على لسان محمد ﷺ بالحجـج العقـلية الواقـعية، وبسـؤالهم عدة أسئلة لا يستطيعون الإجابة عليها إلا مكابرة فقال لهم:

لماذا يكون جدالكم فى إبراهيم خليل الله ؟

فإن إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًا كما يـدعى اليهـود؛ فاليهـودية قـد جاءت مـن بعـد إبـراهيم، ولا يمكـن أن يكـون إبـراهيم عليه السلام نصرانيًا كمـا تـدعى النصارى؛ لأن النصرانية قـد جاءت من بعـد إبراهيم فلـم المحاجة إذن ؟ لقـد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم، فكيف يكون تابعًا للتوراة والإنجيل ؟

ثم أبكتهم بسؤال آخر، أشار فى مقدمته إلى جهلهم وحماقتهم فى دعواهم فقال: هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، أى فى أمر عيسى عليه السلام وادعائكم بألوهيته .. وقد قامت عليكم الحجة ببطلان ادعائكم .

---

(١) تفسير الطبرى (٣/٢١٦) .

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

ثم أكد كذبهم ومجادلتهم الباطلة فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بهذا فقد ألقم الحجر في أفواه اليهود والنصارى الذين جادلوا في إبراهيم عليه السلام وأثبت لهم أنهم كاذبون في دعواهم، وأن الصادقين هم أهل الإسلام؛ فإنهم وحدهم أهل دينه وعلى منهاجه وشريعته، دون أهل الملل الأخرى[1].

ثالثا: حوار مع المنافقين

يحدثنا القرآن الكريم عن المحاورات والمناقشات، التي تدور بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الكاذبين - يوم القيامة - والتي تكشف عن خداع المنافقين، وكذبهم وفسوقهم عن أمر ربهم ... وهذا الحوار نتناوله في نموذجين اثنين:

النموذج الأول: حوار في الآخرة بين المؤمنين وبين المنافقين:

هذا الحوار ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم

(١) المرجع السابق (٣/٢١٧) .

بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(سورة الحديد، الآيات١٢ : ١٥).

أى: واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ومن جهة يمينهم، على سبيل التشريف والتكريم لهم .. وتحييهم الملائكة قائلين لهم: نبشركم اليوم بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم، الذى لا يعادله فوز أو فلاح .. ويبدأ الحوار بين الفريقين، يوم يقول المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، للمؤمنين الصادقين - يوم الحساب والندامة - على سبيل التذلل والتحسر - يقولون: انتظرونا وتريثوا فى سيركم لكى نلحق بكم، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه. وننتفع بالاقتباس من نوركم الذى أكرمكم الله به، وهنا يرد عليهم المؤمنون الصادقون بقولهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أى ارجعوا إلى الدنيا والتمسوا فيها الإيمان والعمل الصالح إن كنتم تستطيعون الرجوع.

ثم بين الحق - سبحانه - ما حدث للمنافقين بعد ذلك فيقول: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

هذا الحاجز (السور) الذى ضرب بين المؤمنين والمنافقين له باب، باطنه مما يلى المؤمنين فى الجنة، وظاهره مما يلى المنافقين، يأتى من جهته العذاب، والمقصود من هذه الآية الكريمة: بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة، أما المنافقون ففى مكان مظلم، يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار.

ثم يكرر المنافقون النداء للمؤمنين - بكل حسرة وندامة - قائلين لهم: ألم نكن معكم فى الدنيا ننطق بالشهادتين مثلكم، ونصلى كما تصلون ؟

فيرد عليهم المؤمنون: بلى كنتم معنا تصلو ن كما نصلى .. ولكنكم أضللتم أنفسكم بالنفاق، وتظاهرتم بالإسلام، وشككتم فى الحق الذى جاء به الرسول ﷺ من عند ربه، وخدعتكم الأمانى الكاذبة، والآمال الفاسدة، و خدعكم الشيطان، فأطمعكم فى سعة رحمة الله تعالى - فى غير مطمع - واغتررتم بالباطل حتى نزل بكم

الموت، وهأنتم الآن ترون سوء عاقبتكم، فاليوم ـ أيها المنافقون ـ لا يقبل منكم فداء ولا من الذين كفروا، ومصيركم جميعا النار وبئس المصير[1].

النموذج الثانى: قولهم فى شأن الشهداء: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾

أى أن المنافقين قالوا لمن هم على شاكلتهم فى النفاق: إن هؤلاء المؤمنين الذين قتلوا فى غزوة أحد، لو أطاعونا ولم يخرجوا للقتال مثلنا، لعاشوا معنا وما قتلوا.

وقد رد الله عليهم ردا يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ويزيد المنافقين رجسًا إلى رجسهم، واستمع إلى قوله ـ عز وجل ـ فى هذه الآيات التى تحكى محاوراتهم الكاذبة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

(سورة آل عمران، الآيات١٦٦ :١٦٨)

هذه الآيات وردت فى سورة آل عمران، وهى جميعها تتحدث عن غزوة أحد إذ إن المؤمنين الصادقين قالوا للمؤمنين: تعالوا لتقاتلوا معنا فى سبيل الله. فإن لم تقاتلوا لإعلاء كلمة الله، فلا أقل من أن تقاتلوا معنا من أجل الدفاع عن المدينة، والبلدة التى تسكنون فيها معنا.

ولكن المنافقين صموا آذانهم عن هذه النصائح، وقالوا للمؤمنين: لو نعلم أنكم تقاتلون حقًا لسرنا معكم، ولكن الذى نعلمه أنكم ستذهبون إلى جبل أحد، ثم تعودون دون قتال لأى سبب من الأسباب، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يشتركوا مع المؤمنين فى القتال، يتقدمهم زعيمهم عبد الله بن أبّى بن سلول، وقد حكم الله على هؤلاء المنافقين بحكمه العادل ألا وهو قوله تعالى:

---

(١) بتصرف من: أدب الحوار فى الإسلام، د/ محمد سيد طنطاوى صـ ٣٧٤: ٣٧٦.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية١٦٧) بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا لمن كان مثلهم من المنافقين - ب كل تفاخر وفجور - إن هؤلاء المؤمنين الذين قتلوا فى أحد، لو أطاعونا ولم يخرجوا للقتال مع النبى ﷺ لعاشوا وما قتلوا، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصحنا، وخرجوا للقتال فقتلوا .

وهذا القول منهم يدل على خبث نفوسهم، وجهلهم بقدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته، وشماتتهم فيما حل بالمسلمين، من قتل وجراح فى أحد، ولذا فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويكشف عن جهلهم فقال: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية١٦٨).

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة، الرد عليهم، بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة، كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص الآجال، فكم من مجاهد عاد من جهاده سالما، وكم من قاعد أتاه الموت وهو فى عقر داره.

وهكذا القرآن الكريم فى محاوراته، يلقن أتباعه الرد الذى يخزى أعداءه وينصر أولياءه(١).



رابعا : حوار بين العقلاء والسفهاء

النموذج الأول: حوار ابن عباس مع الخوارج:

وهذا الحوار بين الحق والباطل، نسوقه كدليل رائع للحوار الذى يوُصل إلى الحق، إذ أن الخوارج هم الذين خرجوا على الإمام علىّ ﷺ بل وكفروه وناصبوه العداء، واستقر بهم المقام، فى مكان يسمى (حرورية) وأخذوا ينشرون نحلتهم الخارجة على الدين والملة، فأرسل إليهم الإمام على ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس؛

(١) المرجع السابق صـ ٢٢٧ - ٢٢٩ .

ليحاورهم، ويسمع رأيهم، ويقنعهم .. عسى أن يرجعوا إلى الصواب. فلما دخل عليهم ابن عباس بادروه بقولهم: ما جاء بك يابن عباس، وما هذه الحلة التي عليك؟

فرد عليهم: وما تعيبون من ذلك، ولقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(سورة الأعراف، الآية٣٢).

فقالوا ما جاء بك؟

فقال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم.

فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشًا، فإن الله يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

(سورة الزخرف، الآية٥٨)

وقال بعضهم: بل فلنكلمنه. قال فكلمني منهم اثنان أو ثلاثة.

قال: قلت: ما نقمتم عليه؟. قالوا: ثلاثا: فقلت: ما هي؟

قالوا: حكم الرجال في أمر الله، والله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

(سورة يوسف، الآية-٤٠)

قال: قلت: هذه واحدة، وماذا أيضا؟

قالوا: فإنه قاتلهم ولم يُسْب ولم يغنم، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم.

قال قلت: وماذا أيضا؟ قالوا: ومحا نفسه من إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت: فإن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم أترجعون؟

قالوا: وما لنا لا نرجع.

قلت: أما قولكم حكم الرجال في أمر الله فإن الله قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾(سورة المائدة، الآية٩٥).

وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾(سورة النساء، الآية٣٥) فصيّر الله ذلك إلى حكم الرجال، فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وفي إصلاح ذات البين أفضل، أم في ثمن أرنب ثمنه ربع درهم، وفي بضع امرأة ؟

قالوا: بلى هذه أفضل. قال: أخرجتم من هذه ؟ قالوا: نعم .

قال: وأما قولكم قاتل ولم يُسْب ولم يغنم، أتسبُون أمكم عائشة ؟

فإن قلتم نسبُها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم ترددون بين ضلالتين .

أخرجتم من هذه ؟ قالوا: نعم .

قال: وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين، فإني آتيكم بمن ترضون . إن نبي الله - يوم الحديبية - حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك .

فقال: رسول الله ﷺ: اللهم إنك تعلم أني رسولك، ياعلي اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو .

فرجع منهم ألفان، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا جميعا .

والحوار المتقدم فضلاً عما فيه من مبادئ، وأدب، ففيه قمة فن الحوار .. ولذلك كان من نتائجه رجوع ألفين، ولو اتبع الذين يناهضون (الفكر المتطرف) هذه الطريقة لوصلوا إلى أفضل مما يصلون إليه نتيجة القمع والإرهاب، فإن الفكر يعالج بالفكر، والحجة تقرعها الحجة، ولا يمكن للسوط أن ينتزع عقيدة أو يغيّر فكرًا[1].

---

(١) أدب الحوار والمناقشة، د/ علي جريشة صـ ١٤٥ : ١٤٧ .

النموذج الثانى: أبو حنيفة يحاور الزنديق (مناظرة بينهما فى الدلالة على وجود الله):

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود خالقًا، ويقولون بأن كل ما فى الوجود أزلى صادر عن المادة، والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدف ... وقد سرت تعاليم الماديين إلى بعض الناس؛ فألحدوا وتزندقوا، فتصدى كثير من العلماء للرد على هؤلاء، وبيان فساد مزاعمهم .

وإليك هذه المناظرة، التى جرت بين الإمام أبى حنيفة وزعيم ملحد فى عصره :

جاء زنديق إلى الإمام أبى حنيفة وقال : يا إمام هل رأيت ربك ؟

قال الإمام: سبحان ربى لا تدركه الأبصار .

قال الزنديق: فهل سمعته ؟ هل أحسسته ؟ هل شممته ؟ هل لمسته ؟

فقال الإمام: سبحان ربى، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

فقال الزنديق: إن لم تكن رأيته، ولا أحسسته، ولا شممته، ولا لمسته فكيف ثبت أنه موجود؟

فقال الإمام: هل رأيت عقلك ؟ قال : لا .

فقال الإمام: هل أحسست عقلك ؟ قال : لا .

فقال الإمام: فهل سمعت عقلك ؟ قال : لا .

فقال الإمام: فهل لمست عقلك ؟ قال : لا .

فقال الإمام: أعاقل أنت أم مجنون ؟ قال الزنديق : بل عاقل .

فقال الإمام: فأين عقلك ؟ قال الزنديق : موجود .

فقال الإمام: كذلك الله - جل جلاله - موجود، الله فوق كل شىء، وليس تحته شىء، وهو فى كل شىء - بعلمه وإحاطته - لا كشىء فى شىء، وليس كمثله شىء، وهو السميع البصير.

، أيـــن الله أيـــن عجائـبـه   ون سفر ناطق وهو كاتـــب

ن، والإيمان ملء قلوبهـــم   ن ما كل العقول تكـذب

ب ربى فـى الأنـام كثـيرة   جهـل المرء لاشك غالـب !

خامسا : حوار الأشرار فيما بينهم

النموذج الأول: حوار بين الأخنس بن شريق وأبى جهل بشأن محمد ﷺ

لقد حكى لنا القرآن فى كثير من آياته، أن بعض المشركين كانوا يعرفون أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، إلا أن العصبية والأحقاد والغرور والعناد .. حال بينهم وبين اتباعه، وحملهم على أن يخالفوه بغيا وظلما . ومن الآيات التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى - : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(سورة الأنعام، الآية٣٣)

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «يقول - تعالى - مسليا لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب قومه له، ومخالفتهم إياه: قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك، وهم لا يتهمونك بالكذب ولكنهم يعاندون الحق» . كم قال أبو جهل للنبى ﷺ : إننا لا نكذبك يا محمد ، ولكننا نكذب ما جئت به .

وقال - أيضًا - عندما سئل عن النبى ﷺ: والله إنى لأعلم أنه نبى، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعًا ؟ !!

وذكروا أن الأخنس بن شريق دخل على أبى جهل بيته فقال له : يا أبا الحكم، ما رأيك فى محمد ﷺ ؟

فقال : تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف: أطعموا فأطعمنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء!! فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !! ولماذ ا لا يكون النبى من بنى مخزوم - أى من بنى عشيرة أبى جهل - !!

وفى رواية أن الأخنس اختلى بأبى جهل فقال له: يا أبا الحكم، أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيرى وغيرك يسمع كلامنا،

فقال أبو جهل : ويحك !! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط !! ولكن إذا ذهب بنو هاشم باللواء والسقاية، والنبوة، فماذا يبقى لسائر قريش[1].

ويحكى لنا التاريخ أنه خلال الحروب التي دارت بين مُسَيْلَمة الكذاب وبين المسلمين في عهد أبي بكر الصديق، التفت بعض أتباع مسليمة إليه وقال له: والله إن وجهك ليشهد أنه وجه كذاب، ولكن لا بأس من اتباعك، فإن كذاب ربيعة خير عندي من صادق مضر !! يقصد أن مسيلمة مع كذبه، خير عنده من رسول الله ﷺ مع صدقه؛ لأن مسيلمة من قبيلة ربيعة والنبي ﷺ من قبيلة مضر !!

هذه النماذج التي ساقها ابن كثير وغيره، تبين لنا بوضوح أن بعض المشركين - وعلى رأسهم أبو جهل - لم يكن خلافهم للرسول ﷺ مبعثه سوء ظنهم به، أو تكذيبهم له، وإنما كان خلافهم له الدافع إليه العصبية والأحقاد .

النموذج الثاني: حوار بين هرقل وأبي سفيان بشأن الرسول ﷺ :

خرج أبو سفيان بن حرب إلى الشام، تاجرا في نفر من قريش، وبلغ هرقل (ملك الروم) شأن رسول الله ﷺ فأراد أن يعلم ما يعلم من شأنه ﷺ فأرسل إلى عامله على الشام، يأمره أن يبعث إليه برجال من العرب يسألهم عنه، فأرسل إليه ثلاثين رجلا منهم أبو سفيان بن حرب، وذلك في المدة التي مادّ فيها أبو سفيان رسول الله ﷺ فلما انتهوا إليه دار بينهم هذا الحوار بشأن الرسول ﷺ :

قال هرقل : أرسلت إليكم لتخبروني من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فأخبروني من أعلم به، وأقربكم منه رحما؟

فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبًا .

قال : أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبَ عَليّ فردوا عليه .

قال أبو سفيان : فوالله لولا أن يؤثروا عني كذبا لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

---

(١) ابن كثير (٣/٢٤٥).

قلت: هو فينا ذو نسب .

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا .

قال: فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

قال: أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال: فهل يغدر .

قلت: لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه .

قال: ماذا يأمركم ؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ...

فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذونسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله؛ لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه مَن ملك فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه مَن ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك أمر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك بماذا يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ... فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به مع دحية إلى عظيم كسرى، فدفعه إلى هرقل، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ عَلَى من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، تُسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليتَ فإن عليك إثم الإ ريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾

(سورة آل عمران، الآية٦٤)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابى حين خرجنا: لقد أصبح أمر ابن أبى كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر، فمازلت موقنًا أنه سيظهر، حتى أدخل الله علىّ الإسلام[1].

---

(١) بتصرف من البداية والنهاية، ابن كثير، دار المنار، القاهرة، ١٤٢١هـ، (٤/٢٣٨-٢٤٢).

وبعد : فهذه نماذج متنوعة من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح وغيرهم، وصور موجزة من المحاورات والمجادلات والمناقشات، التى دارت مع بعض الأمم المخالفة فى العقيدة، سواء بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبين أقوامهم، أو مع أهل الكتاب بصفة عامة، ومع بنى إسرائيل بصفة خاصة، ومع المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، كما تحدثنا - بإيجاز أيضًا - عن بعض المحاورات التى دارت بين العقلاء والسفهاء، وأخيرًا : نماذج من الحوارات التى دارت بين الأشرار فيما بينهم، بشأن دعوة الرسول ﷺ الناس جميعًا إلى الإسلام ..



الفصل العاشر
مقارنات .. وشهادات

لما كان (الدين) له أكبر الأثر فى حياة الإنسان، وفى استقرار الأمم والشعوب، وهو منبع رقيهم وحضارتهم؛ لذلك ركز أعداء الإسلام وأعوانهم من المستشرقين والمبشرين .. على نشر الإلحاد فى جميع البيئات الإسلامية، بغرس الأمانى والآمال فى نفوس ضعاف الإيمان.

لكن لما فشلت دعوة المبشرين فى أن يعتنق المسلم المسيحية، رأى الاستعمار أن يتخذ فى كل بلد إسلامى دعاة، يغريهم بعرض زائل من حطام الدنيا، وللأسف وجد بالأقطار الإسلامية القليل ممن لبى دعوته؛ طمعًا فى المال والمركز والجاه.

وتبين للعامة والخاصة أن هذه الحملة، لم يقصد بها إلا توهين عرى الإسلام، وتشويه صورته، وصرف أهله عنه، يؤكد هذا صيحة (فلادستون) رئيس الوزارة البريطانية، فى (مجلس العموم البريطانى)، وهو ممسك بالقرآن الكريم فى يده قائلا «إنه ما دام هذا الكتاب باقيًا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم» ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(سورة الصف، الآية٨)

لكن كثيرًا من المستشرقين المنصفين أشادوا بعظمة الإسلام، وعملوا جادين على دحض الادعاءات المفتراة عليه بقدر الإمكان. يقول تولستوى - مشيدًا بعظمة الإسلام ونبيه ﷺ -: من فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيرًا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، وقد بلغ من حسن معاملته لهم، أنه سمح لأتباعه بالتزويج من أهل الديانات الأخرى، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام[١].
والاحترام[١].

(١) انظر: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، ودعوة الإسلام، السيد سابق.

الفصل العاشر

مقارنات .. وشهادات
من غير المسلمين للإسلام

أما وقد تجلت سماحة ا لإسلام والمسلمين، في معاملة مخالفيهم في العقيـدة، فإني أريد أن أزيدها جلاءً ووضوحًا، وأن أزيد النفوس بها ثقـةً و إعجابًا، إذ أذكر - في هذا الفصل - ألوانًا من شهادات غير المسلمي ن - أعني المنصفين من المستشرقين - الذين لا أرب لهم في إشادتهم بعظمة الإسلام، إلا إحقـاق الحق، والتنويه بالفضل، بالإضافة إلى شهادات من المسيحيين أنفسهم ومن اليهود، تسبقها مقارنات بين سماحة الإسلام وتعنت الديانـات الأخرى، ليتجلى تساميه وتعاليه على كـل من حاربه وعاداه، وإليك بعض الأمثلة من المقارنات والشهادات على النحو التالي:

أولا : مقارنات

المثال الأول: مقــارنة بين التسامح الدينى عند المسلمين، وبين عصبية المسيحيين:

من المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسي (جوتيه)، فقد خصص في كتابه (أخلاق المسلمين وعوائدهم) فقرات طويلة، قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الديني عند المسلمين، وبين ما عند المسيحيين الغربيين، من عصبية عنيفة توارثوها خلفًا عن سلف.

وعلى سبيل التمثيل لهذه الحمية الجاهلية، يشير المؤلف إلى ما حدث في جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور)، الذى توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين. ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة (لانج دوك) لاستئصال الديانة المجوسية منها. فأغرقوا الإقليم كله في أنهار من الدم والنار؛

حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس . ويستطرد المؤلف فيقول: إن هـذا العنف لم يـؤد إلى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة. فقد نبتت هذه الفـرقة المارقـة مـرة أخـرى في (بوهيميا) فحوربت وهزمت، ثم نبتت مرة ثالثـة في شمـال ألمانيا باسم (الإصلاح الديني)، وقد حوربت في هذ ه المـرة أيضا بأساليب أشـد عنفا وضـراوة ودامـت المعارك مـن أجلها ثلاثـين عاما، ولكنها لم تفلـح فـى إخضـاعها والـسيطرة عليها، فلما استنفذت الحروب جهتود الطـرفين، ووضعـت الحـرب أوزارها، لم تطع أنفسهم قبـول فكـرة التسـامح الـديني فيمـا بينهم، بـل فضـلوا أن تقسم المسيحية قسـمين متنـاكرين، لـيس بينهمـا تعـايش سـلمي فـي دولـة واحـدة. بـل لكـل دولـة دينها، بحيث لايعيش في كل أمة إلا مذهب واحد.

يقول المؤلف: فأين هذا مما نشاهده في داخل بلاد الإسـلام قـديما وحديثا، حيث يحتضـن الإسـلام دائمـا بـين جناحيـه، مـن المحـيط الهـادى إلى المحيط الأطلسي طوائف من غير المسلمين: يهودا ونصارى ومجوسا، وطوائف من المسلمين المبتدعين: شيعة وخوارج وأباضية .. ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوما ما، حـتى في أشـد أوقات حميتهم الدينية، أن يطفئوا بالدم دينـا منافسًا لـدينهم. بل لم يفكر الخليفة يوما في أن يضطهد مسيحيًا يعقوبيًا أو مجوسيًا، إنه مهما تكن الأسباب والبواعث على هذا التسامح الديني عند المسلمين، فإنها فضيلة تستحق كل إعجاب وتقدير[1].

المثال الثاني: موازنة بين الحـرية الدينيـة في ظل الحكم الإسلامي، وبين الاضطهاد والعسف قبله:

لما فتح المسلمون الأندلس أعفوا من الجزية غير القادرين عليها، ووكلوا جمعها إلى موظفين من النصارى.

وسـلك المسلمون مسـلكًا نبيلاً فـي تصـريف شئون الشـعب هنـاك؛ ولهذا استمتع بالحرية الدينيـة النصـارى واليهـود. أمـا النصـارى فقـد عاشـوا أحـرارًا فـي إقـامة شـعائرهم الدينية، وبنوا عـدّة أديـار جديـدة. ولم تكـن المسـيحية سـببا فـي حرمـان

---

(١) المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم صـ ٦٥ ، ٦٦ .

بعض المسيحيين من أن يتولوا المناصب العالية في قصور الملوك أو في الجيش؛ لذلك اندمج المسيحيون بالمسلمين، وتسَمّى كثير منهم بأسماء عربية، ودرسوا العلوم الإسلامية.

ثم ماذا ؟

لما هاجر بعض المسيحيين إلى فرنسا؛ ليعيشوا في ظلال حكم مسيحي مثلهم لم يصيروا أحسن حالا من إخوانهم النصارى بالأندلس فماذا حدث لهم ؟

اصطلوا بنار العصبية المذهبية في الديانة المسيحية، ونالهم الكثير من العسف والاضطهاد؛ فقد فتح المسلمون الأندلس في الوقت الذي كان فيه المذهب الكاثوليكي قد انتصر على المذهب الأريوسي، وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قرارًا يقضي على كل الملوك، بأن يقسموا بأنهم لا يسمحون بانتشار مذهب آخر غير الكاثوليكي، وأن يقاوموا بالقوة كل من يخرج عليه، ثم صدر قانون آخر يحرّم على كل شخص، أن يشك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. وبذلك عظم نفوذ رجال الدين في شئون السياسة والملك والدين. بينما كانت الحكومة الإسلامية تعامل الطوائف المسيحية كلها على حد سواء، وكانت تحمي بعضهم من اضطهاد بعض(1).

المثال الثالث: اليهود بين عسف الحكومات وسماحة المسلمين:

وأما اليهود فقد كانوا قبل الفتح الإسلامي يرزحون تحت عسف القُوط، وظلوا على ذلك زمنا طويلا، إلى أن دخل المسلمون الأندلس، فخلصوهم من هذا الاضطهاد، وسمحوا لهم بحرية التجارة التي كانت محظورة عليهم من قبل، وأباحوا لهم أن يتملكوا، بعد أن كانت الملكية محرمة عليهم؛ ولهذا نهضوا واشتهر كثير منهم بالعلم والأدب، بعد أن استنشقوا نسيم الحرية، ولما اضطهدت أوربا اليهود وأذاقوهم ألوان العذاب، كانت حرية الأديان بالغة منتهاها في الأندلس، فلجأ اليهود إلى خلفاء الأندلس في قرطبة فاستمتعوا بحرية الأديان وسماحة الإسلام،

(1) مختارات من سماحة الإسلام، د/ أحمد الحوفي، صـ ٦٢ ، ٦٣ .

لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود، ومساجد المسلمين. ونحن نعلم جميعا أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية، ما دخلوا بلادًا إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها. وذلك يؤكد أن اليهود إنما وجدوا مجيرا وملجأ في الإسلام، فإن كانت لهم بقية باقية حتى اليوم، فالفضل فيها راجع لسماحة الإسلام ومسالمة المسلمين(١).

المثال الرابع: رمز الإسلام أفضل من تاج البابوية:

ذكر (نورمان بينز) أنه لما فتح العثمانيون القسطنطينية، كان أكثر الشعب المسيحي في عشية الكارثة، ينفرون من أي اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، وما زال الناس يرددون الكلمة المشهورة التي نطق بها رئيس ديني في بيزنطة - في ذلك الحين - وهي: أنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية(٢).

وإذن فقد ظهر واضحًا جليًّا أن سماحة الإسلام وتسامح المسلمين، من العوامل القوية الفعالة في انتصارهم السريع وفتحهم الخاطف، إذ لم يجدوا مقاومة عنيفة من الشعوب، بل إن أغلبها تمنت الفتح الإسلامي ورحبت به، ووجدت فيه الملجأ والملاذ.

ثانيا: شهادات

فيما يلي نماذج متنوعة من شهادات أعداء الإسلام - أعني المنصفين - من المستشرقين وغيرهم من المنصفين، الذين أقروا بسماحة هذا الدين الحنيف مع غير المسلمين:

سماحة الإسلام مع أهل الذمة

يقول الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): (لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة،

(١) المرجع السابق، ص (٦٤ـ٦٧) بتصرف.
(٢) مختارات من سماحة الإسلام عن مصادر أخرى.

واستمر هذا التسامح فى القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين، لشاهد على هذا التسامح).

ثم يبرهن على ذلك بقوله: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحى).

ويرى (توماس أرنولد) أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل واضح على صدق قوله فيقول: ولهذا فإن مجرد بقاء الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة المسلمين فى الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح[1].

وذكر الكونت (هنرى دى كاسترو) فى كتابه (الإسلام خواطر وسوانح): أن محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس، حتى صار سكانها فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (القوط الغربيون).

ويقول (دوزى): إن هذا الفتح للأندلس لم يكن منه مفر، وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث أن زال باستمرار الحكومة الإسلامية فى تلك البلاد. وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش. وتولّد عن هذه السياسة الرحيمة، أن انحاز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير[2].

وقال ميشون فى تاريخ الحروب الصليبية:

لما استولى عمر بن الخطاب على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضررًا مطلقًا. لكن لما استولى المسيحيون - على مدينة بيت المقدس فى الحروب الصليبية - قتلوا المسلمين ولم يُشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقًا.

---

(١) مختارات من سماحة الإسلام عن: الدعوة إلى الإسلام. أرنولد (٦٧).
(٢) المستشرقون والإسلام ص ٧٤، ٧٥.

وقال الحبر ميشون: مما يؤسف له أن المسلمين هم الذين كانوا يبدأون المسيحيين بالمسالمة وحسن المعاملة، مع أن المسالمة هى منبع الخير بين الأمم بعضها وبعض. ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مسايرةٍ ولطفٍ ومجاملةٍ، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذْ ذاك، خصوصًا أن الشفقة والرحمة والحنان كانت أمارات ضعف عند الأوربيين، وهذه حقيقة لا أرى وجها للطعن فيها[1].

(١) مختارات من سماحة الإسلام (٦٦).

عظمة الإسلام والمسلمين

قال هرقل (عاهل الروم فى عصر النبوة) يمدح الإسلام وأهله: إن الإسلام متى خالطت بشاشته القلوب، لا يرتد أحد عنه ساخطا عليه.

وقال بعض المؤرخين فى العصور الحديثة : إنه لا تعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم عن دينه ردّة حقيقية، بعد أن دخل فى الإسلام دخولا حقيقيا، بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى إلى الإسلام أكثر من أن تحصى(١).

وذكر الرحالة (ستيفن هيدن) بعد زيارته لآسيا، من أن أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات، فلم يستطع تحويل مسلم واحد إلى النصرانية، وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله(٢).

وقال (برنارد شو) :

إننى أعتقد أن رجلاً (كمحمد) لو تسلم زمام الحكم المطلق، فى العالم أجمع لتم له النجاح فى حكمه، ولقاده إلى الخير، ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة(٣).

أما شهادة الدكتور (فيليب حتى) فهى شهادة من نوع خاص لسببين: أولهما أنه مسيحى، وثانيهما أنه عربى تجرى فى عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه، فى إطار العدل والتسامح، فهو يعرّف الإسلام بأنه «حضارة عامة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة، تربطهم روابط المحبة والأخوة»(٤).

ولا غرابة فى قول المؤرخ المسيحى ميخائيل السورى: إن الله المنتقم الجبار أتى بأبناء إسماعيل من الصحراء؛ لينقذوا الأمم من عسف الرومان ومن مظالم الروم.

(١) المستشرقون والإسلام، صـ ٦٣
(٢) المرجع السابق، صـ ٨ .
(٣) المرجع السابق، صـ ٢٧١ .
(٣) التسامح فى الفكر الإسلامى صـ ٢٢٣
(٤) سماحة الإسلام صـ ٧٦ ، ٧٧ .

شهادة الأعداء بسماحة القرآن

ويرى «القس ميشو» أن القرآن له الأثر الكبير فى أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفى الوقت نفسه أوجب عليهم التسامح فى كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين فيقول: «إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية، وحرّم قتلهم لعكوفهم على العبادة».

ثم يواصل دفاعه عن تسامح المسلمين قائلا: «.. ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح، الذى هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أى معتقد عليهم إكراهًا»(١).

هذا، والشهادات فى هذا الباب أكثر من أن تحصى، لكنا اكتفينا بالنزر اليسير من شهادات غير المسلمين، الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح، بعظمته التى لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التى ليس لها حدود؛ فلم يستطع هؤلاء أن يكتموا شهادتهم، أو أن يسلبوه حقه .. فأنطقهم الله الذى أنطق كل شيء.

ومعذرة إن كنت أكثرت من الاقتباسات أو أطلت فى بعضها.

فتلك أقوالهم ... وهذه بضاعتهم

(١) التسامح فى الفكر الإسلامى نقلاً عن: منار الإسلام لسنة ١٤١٨هـ، ص١١٧ ومابعدها.

خاتمـــة

وبعد : فهذا فيض من غيض، ونزر يسير غير قليل، من الكلام عن سماحة الإسلام فى معاملة غير المسلمين، سطرته (بين دفتى هذا الكتاب).

الإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات، لأن الأديان السماوية جميعها تعد - فى نظر الإسلام - حلقات متصلة لرسالة واحدة، جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله - تعالى - على مدى التاريخ الإنسانى.

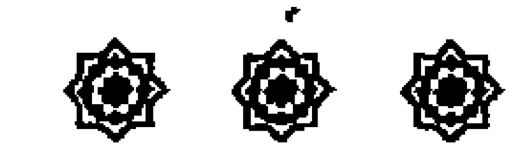
ومن ثم فإن الإسلام يحرص - كل الحرص - على أن يسود السلام العالمى بين المسلمين، وبين من يؤمنون برسالة الله ولا ينكرون الوحى، وإن اختلفت صور إيمانهم عن إيمان المسلمين.

ولقد ضرب الرسول ﷺ وصحابته الكرام - أروع الأمثلة للسماحة فى علاقة المسلمين باليهود والنصارى، ثم جاءت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا فى أنحاء الأرض على خير ما تكون السماحة، فعاشروا أبناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر ... دون أن يتحرجوا بنمط من أنماط المعيشة، ولا بأسلوب من أساليب العرف ما لم يكن فيه مساس بالعقيدة والعبادة، وهذا المسلك المتسامح ليس بمستغرب على الإسلام، فهو دين الرحمة، ونبيه رسول الرحمة، وكل من يتبع منهجه تقوده الرحمة إلى صراط الله المستقيم، فى كل المجالات وسائر المعاملات.

فسماحة الإسلام مع كل فئات المجتمع بدرجة من الوضوح، لا يستطيع أحد إنكارها إلا إذا كان مغرضًا أو صاحب هوى، لأن غير المسلمين شركاء فى الوطن، والبشر جميعًا إخوة لأب واحد وأم واحدة، وإن تباعد بمعانى هذه الأخوة الإنسانية طول الأمد بين الأصول والفروع.

تلك السماحة التى تدعو إلى التعايش السلمى والإيجابى بين البشر جميعا، فى جو من الإخاء والتآلف بين كل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم.

وذلك من المميزات والخصائص التي تنطوى عليها الشريعة الإسلامية، والتى جاء بها القرآن الكريم، ودرج عليها الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، رائدهم - فى ذلك - المصلحة العامة، وما ترمى إليه الشريعة من أغراض سامية ومقاصد نبيلة؛ تدفع بالمنصف أن يحنى رأسه أمام تلك النهضة القوية البناءة، التى حوّلت العرب من أمة بدوية صغيرة منطوية على نفسها، إلى أمة ذات حضارة راقية، وقيادة عالمية فى شتى الميادين؛ حتى أصبح للمسلمين شخصية لا يشاركهم فيها أحد فى معالجة النفوس، وإقرار مبادئ العدل والسماحة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وذلك دين القيمة.



قائمة المراجع

١. القرآن الكريم .

٢. أحكام عبادات المرأة فى الشريعة الإسلامية، د . سعاد صالح، دار الضياء، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٣. أدب الحوار فى الإسلام، د . محمد سيد طنطاوى، دار نهضة مصر، مصر، ٢٠٠٢م .

٤. أدب الحوار والمناظرة، د . على جريشة، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٥. أضواء على مقارنة الأديان، د . محمد طلعت أبو صير، دار الطباعة المحمدية، درب الأتراك بالأزهر، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٦. الإسلام شريعة الزمان والمكان، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

٧. البداية والنهاية، ابن كثير، دار المنار، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

٨. تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح الإسلامى حتى عهد الأيوبيين، د .صبحى عبد المنعم، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة .

٩. تفسير القرآن العظيم، الحافظ بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت .

١٠. التسامح فى الفكر الإسلامى، د . جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م .

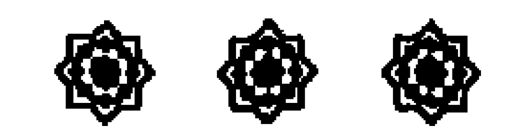
١١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م .

١٢. الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، د . عطية القوصى، دار التوفيقية للطباعة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٨م .

١٣. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس العقاد، المؤتمر الإسلامى، الزمالك، القاهرة، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

١٤ .خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها، السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
١٥ .دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى (١٠ مجلدات)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .
١٦ .دعوة الإسلام، السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة .
١٧ .الدولة فى الإسلام، خالد محمد خالد، دار ثابت، باب اللوق، القاهرة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
١٨ .رياض الصالحين، النووى، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
١٩ .السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
٢٠ .- عالمية الإسلام، د. شوقى ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م .
٢١ .عظمة الإسلام، محمد عطية الإبراشى، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٢٢ .عناصر القوة فى الإسلام، السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
٢٣ .العقائد الإسلامية، السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
٢٤ .فقه السنة، السيد سابق، الفتح للإعلام العربى، القاهرة .
٢٥ .فقه السيرة، محمد الغزالى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٢٦ .الفقه الواضح، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
٢٧ .قبط مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية الدولة الأموية (رسالة ماجستير)، بهاء عز الرجال محمد خليل، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٢٨ .مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، الجزء الثانى، العدد الثامن، جامعة الأزهر، د. إبراهيم توفيق الديب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

٢٩ .محاسن الأقوال فى مكارم الأخلاق، أحمد على خضر، الناشر: المؤلف، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٣٠ .مختارات من سماحة الإسلام، د. أحمد الحوفى، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
٣١ .مذكرة الفرق للصف الأول الثانوى الأزهرى، حسن السيد متولى، المعاهد الأزهرية، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
٣٢ .مصر فى فجر الإسلام من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الطولونية، د. سيدة إسماعيل كاشف، دار الرائد العربى، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
٣٣ .منهج الإسلام فى تنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين (رسالة ماجستير)، خالد الديب عبد العزيز القاضى، جامعة الأزهر، القاهرة.
٣٤ .المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم زكريا، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
٣٥ .المستطرف فى كل فن مستظرف، الأبشيهى، المكتبة التوفيقية، القاهرة .
٣٦ .المعتقدات الدينية الشرقية القديمة وموقف الإسلام منها، د. عبد الغفار رمضان حسين، دار أسيوط، ٢٠٠٠م .
٣٧ .الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
٣٨ .الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
٣٩ .الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف د. مانع الجهنى، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع .
٤٠ .نماذج من جدال أولى العزم مع أممهم، د. عفاف على النجار، مكتبة ومطبعة الغد للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٢م.



كتب للمؤلف

❖ محاسن الأقوال في مكارم الاخلاق — لدى المؤلف

❖ مكارم الأخلاق في ضوء القرآن والسنة — دار المعارف

❖ قطوف من جواهر الكلم — دار العواصم – دار المعارف

❖ صور من أسرار الشريعة ومقاصدها (الجزء الأول) — دار المعارف

❖ التسامح الإسلامي مع غير المسلمين — (بين يديك)

قريباً للمؤلف إن شاء الله:

❖ الجريمة وخطرها على الأمة.

❖ مع الأدب المُلح والنوادر والطرافة من عيون الأدب ومن كلام العرب.

❖ صور من أسرار الشريعة ومقاصدها (الجزء الثاني).

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحة

الفصل الثالث: حقوق وواجبات غير المسلمين في الإسلام

الفصل الرابع: التعايش الحضارى مع غير المسلمين

الفصل الخامس: صور من سماحة الإسلام مع غير أهله

الفصل السادس: أقباط مصر فى ظل الفتح الإسلامى

الفصل السابع: الأحكام الخاصة بغير المسلمين

الفصل الثامن: مظاهر السماحة والعدالة في الضرائب على غير المسلمين

الفصل التاسع: أسلوب الحوار مع غير المسلمين أسسه وضوابطه ـ نماذج من الحوارات المختلفة

الفصل العاشر: مقارنات وشهادات من غير المسلمين للإسلام

تصويبات أخطاء الطباعة فى كتاب
التسامح الإسلامى مع غير المسلمين

م	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	م	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	١٧	هامش (١)	ممحمد طلعت	محمد طلعت	١٩	١٣٧	١٩	يستطل	يستطلع
٢	٢٥	٣	وعألى	وعلى	٢٠	١٤٠	٢٢	تـزل	تنزل
٣	٤١	٦	م ن	من	٢١	١٤١	١٦	للملمين	للمسلمين
٤	٤١	٢١	هل	أهل	٢٢	١٤٢	١	أرل	أرسل
٥	٤٢	هامش (١)	دار	تكررت	٢٣	١٤٢	١٣	عمترو	عمرو
٦	٤٦	هامش (١)	فرقة	تكررت	٢٤	١٤٦	٣	وق ع	وقع
٧	٥٥	٩	يعلمه ا	يعلمها	٢٥	١٤٦	١٢	وغيره ا	وغيرها
٨	٥٧	٥	يدعوأن	يدعوان	٢٦	١٥٦	١٣	الصعي د	الصعيد
٩	٧٦	١٢	إفاط	إفراط	٢٧	١٧٠	١١	ف لا	فلا
١٠	٧٩	هامش (١)	بغير	تكررت	٢٨	١٨١	٤	أنن ا	أننا
١١	٩١	٢٢	وبى ن	وبين	٢٩	١٨٨	٩	الجنتد	الجند
١٢	١٠٦	١٢	وداسوه ا	وداسوها	٣٠	١٩٢	٣	الإستلام	الإسلام
١٣	١١٦	٧	عجب ا	عجبا	٣١	١٩٣	٣	وامتثال ا	وامتثالاً
١٤	١١٨	٧	واالفكرى	والفكرى	٣٢	١٩٣	١٢	تترى	ترى
١٥	١١٩	٢٠	قترونا	قرونا	٣٣	١٩٧	١٥	عتز	عز
١٦	١٣١	٥	وتعلبت	وتغلبت	٣٤	٢٠٩	١٩	وجتد	وجد
١٧	١٣٢	٥	الأسمر	الأمر	٣٥	٢١٤	٣	ب كل	بكل
١٨	١٣٣	٢٠	ارتـ ا	ارتبط		.			

ص ٢١٧

يقولون أيـن الله أيـن عجائبه — وذا الكون سفر ناطق وهو كاتـب

يشكون ، والإيمان ملء قلوبهـم — ويبدون ما كل العـقول تكـذب

عجائب ربى فـى الأنـام كثـيـرة — ولكن جهـل المرء لا شك غالـب

هذا الكتاب

- إن موقف التشريع الإسلامى فى رعاية حقوق غير المسلمين، تتمثل فى معاملة المخالف فى العقيدة المعاملة الإنسانية المتحضرة، فكما أن للمسلم حرمة فى ذاته وماله وعرضه، فإن لغير المسلم هذه الحرمة كذلك.
- لقد حفل الإسلام بالدعوة إلى التسامح منذ بزغ فجره وسطع نوره، فلقد عاش الجميع - مسلمين وغير مسلمين - فى حماية الدولة الإسلامية وفى ظلالها الوارفة، فى تسامح دينى، وعدالة شاملة وضمان لجميع الحقوق لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.
- كفل الإسلام للناس جميعاً حرية العقيدة قبل أن تهب الثورة الفرنسية بنحو اثنى عشر قرناً، فلغير المسلمين الحرية فى ممارسة شعائر دينهم، ولا يجبر أحد منهم على اعتناق الإسلام فهم أحرار فى عقيدتهم وعبادتهم وإقامة شعائرهم فى كنائسهم.
- ولم يفرق الإسلام بين المسلم والذمى فى المعاملات العامة وتولى الوظائف الرسمية؛ لأن الجميع سواسية أمام القانون، حتى وإن كان أحد الخصمين مسلماً والآخر يهودياً أو نصرانياً.
- وهذا الكتاب الذى بين يديك - أيها القارئ الكريم - ملىء بصور تسا[...] مع مخالفيهم فى العقيدة؛ حيث أشركوا معهم أهل الذمة فى كل عمل [...] المسلمون، ورفعوهم إلى أعلى المناصب فى دولهم.

المؤلف

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٦٥٥٨